

نشأة النحو

وتاريخ أشهر النحاة

تأليف الشيخ
الشيخ محمد الطنطاوي

الطبعة الثانية



دار المعارف

نشأة النحو

وتاريخ أشهر النحاة

أهم مراجع الكتاب

مراعى فيها الترتيب الزمنى بحسب وفيات المؤلفين

- ١ - الكتاب ، لسيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ .
- ٢ - أدب الكاتب ، وعيون الأخبار ، والشعر والشعراء ، لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .
- ٣ - الكامل ، لأبى العباس المبرد ، المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وشرحه رغبة الآمل ، للمرصفي ، المتوفى سنة ١٣٤٩ هـ .
- ٤ - الأمالى ، لأبى القاسم الزجاجي ، المتوفى سنة ٣٣٧ هـ .
- ٥ - مراتب النحويين ، لأبى الطيب عبد الواحد اللغوى ، المتوفى سنة ٣٥١ هـ ، مخطوط بالخزانة التيمورية رقم ١٠٢٥ .
- ٦ - أخبار النحويين البصريين ، للسيرافي ، المتوفى سنة ٣٦٨ هـ .
- ٧ - طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدي ، المتوفى سنة ٣٧٩ هـ .
- ٨ - التصحيف والتحريف ، لأبى أحمد العسكري ، المتوفى سنة ٣٨٢ هـ .
- ٩ - الفهرست ، لابن النديم ، المتوفى سنة ٣٨٥ هـ .
- ١٠ - الخصائص ، لأبى الفتح بن جنى ، المتوفى سنة ٣٩٢ هـ .
- ١١ - الصاحبي ، لأحمد بن فارس ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

١٢ - المفصل ، للزنجشري ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ . وشرحه لابن يعيش ،
المتوفى سنة ٦٤٣ هـ .

١٣ - نزهة الألبا في طبقات الأدبا (النحاة) . والإنصاف في مسائل
الخلاف بين البصريين والكوفيين . لكمال الدين الأنباري ،
المتوفى سنة ٥٧٧ هـ .

١٤ - التبيان : شرح ديوان المتنبي . لأبي البقاء العنكبتي . المتوفى
سنة ٦١٦ هـ .

١٥ - معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، لياقوت ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

١٦ - إنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطي ، المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

١٧ - الكافية ، والشافية . لابن الحاجب ، المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .
وشروحهما وحواشيهما .

١٨ - الألفية ، لابن مالك ، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وشروحها وحواشيها .

١٩ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان . المتوفى
سنة ٦٨١ هـ ، وفيات الوفيات ، لابن شاکر المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .

٢٠ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ومغني اللبيب عن كتب
الأعاريب ، لابن هشام . المتوفى سنة ٧٦١ هـ ، وشروحهما
وحواشيهما .

٢١ - المقدمة ، لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ .

- ٢٢ — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني ،
المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .
- ٢٣ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للسخاوي ، المتوفى سنة ٩٠٢ هـ .
- ٢٤ — الاقتراح في أصول النحو ، وجمع الهوامع على جمع الجوامع .
والأشباه والنظائر ، والمزهر ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين
والنحاة . وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، للسيوطي .
المتوفى سنة ٩١١ هـ .
- ٢٥ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . وذكر وزيرها لسان
الدين بن الخطيب . للمقري ، المتوفى سنة ١٠٤١ هـ .
- ٢٦ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب . لابن العماد الحنبلي ،
المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ .
- ٢٧ — خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب . شرح شواهد الرضي
على الكافية . وشرح شواهد شرحى الشافية للرضي والجاربردي ،
كلاهما للبغدادى ، المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ .
- ٢٨ — خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر . للمحبي . المتوفى
سنة ١١١١ هـ .
- ٢٩ — عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، للجبرتي ، المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ .
- ٣٠ — البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، للشوكاني ، المتوفى
سنة ١٢٥٠ هـ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ، على خير الخلق ، وأفصح من نطق
بالضاد ، صلاة الله وسلامه عليه وعلى عِترته الأجداد ، وأصحابه الأئمة
بذلوا مهجهم في سوح الجهاد ، فنالوا الزلفى عند ربهم يوم التناد .
وبعد ، فإن علم النحو من أسمى العلوم قدراً ، وأنفعها أثراً ، به
يتشقق أودُ اللسان ، ويسلس عنان البيان ، وقيمة المرء فيما تحت طي
لسانه لا طيلسانه ، ولقد صدق إسحق بن خلف البهراني في قوله :

النحو يبسطُ من لسان الأَلَكَنِ والمرءُ تكرمه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طَلَبَت من العلوم أَجَلُّهَا فَأَجَلُّهَا منها مقيم الأَلْسُنِ^(١)

وبه يسلم الكتاب والسنة من عادية اللحن والتحريف ، وهما مرثل
الدين وذخيرة المسلمين ، فكان تدوينه عملاً مبروراً ، وسعيّاً في سبيل
الدين مشكوراً .

وبه يستبين سبيل العلوم على تنوع مقاصدها ، وتفاوت ثمارها ،

(١) راجع البيتين في عيون الأخبار (كتاب العلم والبيان : الإعراب واللحن)
ج ٢ ص ١٥٧ ، والكامل مع الرغبة ج ٤ ص ١٣٢ ، والعقد الفريد (كتاب الياقوتة
في العلم والأدب ، باب في الإعراب واللحن) ج ٢ ص ٤٧٩ طبع اللجنة ، وإسحق شاعر
عباسي مدح الحسن بن سهل .

فإن الطالب لا يسلكها على هدى وبصيرة إلا إذا كان على جَدٍّ من هذا العلم موفور ، على أن المتحادثين في أى جزئية علمية إنما يعتمدان عليه في تحديد المعنى الذى يتحادثان بشأنه ، فهو الذريعة لتقريب تفاهمهما ، وأداة الحكم الصحيح بينهما ؛ قال ابن خلدون : « إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر . ولولاه لجهل أصل الإفادة » (١) .

وإن من يحاول إقامة الدليل على فضله بالبرهان كان كمن يتكلفه على إشراق الشمس وضياء النهار ؛ فلذا قدّر المؤرخون للنحويين جهودهم . ورفعوا لهم أعلام الحمد ، وخلدوهم في صحائفهم بمداد التبجيل والتكريم .

ونخلق بمن يدلف إلى روضة هذا الفن النصير أن يعرف سبب وضعه ، وكيف نشأ ؟ والمراحل التى اجتازها حتى استوى قائماً ؛ وأن يقف على تاريخ مشاهير رجاله الذين عبدوا مهيبته وأقاموا صوى الهداية على حفافيه خوف الدثور والضلال ، وعلى طبقاتهم فى عصورهم المختلفة وأوطانهم المتغابرة ، وعلى ما شجر بينهم من خلاف فى الآراء ورغبة منهم فى استكناه الحقيقة ؛ وأن يلم بمؤلفات هذا الفن الكثيرة ، وبتنوع اتجاهاتها . وبترتيبها الزمنى ، وبالصلة بينها نقلاً أو تعليقاً أو نقداً ، وفى الحق أن هذا العلم قد أربى على سائر العلوم فى مصنفاته .

(١) المقدمة ، الفصل السادس فى العلوم إلخ ، فصل فى علوم اللسان العربى .

لقد غبر كثير من طلابه يدرسونه آماداً متطاولة ونفوسهم تواقّة
إلى تعرف هذه النواحي التي لا ينتظمها سفر خاص ، بل تشتت
في بطون الكتب . فلا تنال منها إلا بشق الأنفس .
هذا الذي حفزني إلى وضع هذا الكتاب ، والله أستعين في السداد
والتوفيق .

تهديد

نشأت اللغة العربية في أحضان جزيرة العرب خالصة لأبنائها مذ ولدت ، نقية سليمة مما يشينها من أدران اللغات الأخرى .

لبثت كذلك أحقاباً مديدة كان العرب فيها يغدون ويروحون داخل بلادهم على ما هم عليه من شـمـظف العيش ، غير متطلعين إلى نعيم الحياة وزخارفها فيما حرّهم من بلاد فارس والروم وغيرها ، وإن دفعتهم الحاجة إليها حيناً وتبادل المنافع حيناً آخر ، على أنه كان في أسواقهم الكثيرة التي تقام بينهم طرال العام غناءً أى غناء في عيشتهم البدوية القانعة ، ومن أشهرها عكاظ (بين نخلة والطائف) كانت تقام شهر شوال ، وبعده مجنّة (بمر الظهران) من أول ذى القعدة إلى عشرين ، وبعده ذو المجاز (خلف عرفة) إلى أيام الحج .

ولقد كان في هذه الأسواق فرق ما تضمه من مرافق الحياة ومتطلبات المعيشة منتديات للأدب ، يعقدون فيها المجمع ذات الشأن ، يتبارى فيها مداره الخطباء ومفوهو الشعراء من القبائل المتناثية الأصقاع ، يعرضون فيها مفاخراتهم ومنافراتهم ومعاظمتهم وكل ما يعنّ لهم في

جيد الخطب وبديع الشعر (١) .

عاد ذلك كله على اللغة بنشيت دعائمها وإحكام رسوخها وجودة صقلها ، وبقيت كذلك متماسكة البنيان غير مشوبة بلوثة الأعجام ، إلى أن سطع نور الإسلام على ما حول الجزيرة العربية بالفتوحات الإسلامية ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ثم تتابعت الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين ، فوصلت في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه شرقاً إلى نهري السند وجيحون ، وغرباً إلى الشام ومصر ، فكان من الطبيعي هبوط العرب ، ومعهم عشائهم وعمائرهم ، إلى هذه الأمصار التي افتتحوها ودخلت تحت حوزتهم ، وبحكم الفتح قد كثر تملكهم للموالى في البلاد المفتوحة عتوة ، كما كان من الطبيعي تقاطر الوافدين من هذه الأمصار المفتوحة إلى الجزيرة العربية ، إذ فيها المدينة المنورة حاضرة الإسلام ومقر الخلفاء الراشدين وعلية الدولة ، وفيها مكة المكرمة وبها الكعبة المشرفة التي يؤمها كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهكذا ازداد هذا النزوح من الجانبين كلما توالى الفتوحات تترى في عهد بني أمية ، فلقد بلغت الفتوحات في عهدها شرقاً الهند والصين ، وشمالاً سيبيريا ، وغرباً ما وراء جبال البرانس بالأندلس ، وجنوباً السودان . كما امتدت إلى جزائر البحر المتوسط . فهذه الممسكة المترامية الأطراف

(١) أخبار أسواق العرب وأماكنها مبسوط في معجم ما استعجم للبكري ، ومعجم البلدان لياقوت ، وصفة جزيرة العرب للهمداني ، ومع التوزيع في أجزاء الأغاني ، وفي الجزء الأول من بلوغ الأرب للألوسي فصل صاف فيها .

كانت تحقق عليها الراية الإسلامية التي تأخى تحت ظلها الجميع — الأحمر والأسود — وامحت بينهم فوارق الجنس والوطن ، دينهم الإسلام ، وكتابهم القرآن ، ولغتهم العربية ، وكان أثراً لهذه الفتوحات من لدن كانت أن اختلط العرب بغيرهم اختلاطاً مستمراً في البيوت والأسواق والمناسك والمساجد ، وتصاهروا واندمج بعضهم في بعض ، حتى تكون منهم شعب واحد ، اجتمع فيه الصريح والمهجين والمقرف والعبد ، واقتضى كل أولئك أن يستمع بعضهم من بعض وأن يتفاهموا في كل ما يتصل بهم ، ولغة التخاطب الوحيدة بينهم في كل ما يحيط بهم هي العربية ، فكان لازماً على غير العربي أن تكون لغته العربية ، مهما عالج في ذلك وعانى . كما كان لازماً على العربي أن يترفق بغير العربي ويترث معه في التخاطب ، لضرورة التعاون بين الطرفين ، فكل منهما يسمع من الآخر ، والسمع سبيل الملكات اللسانية ، فما اللغة إلا وليدة المحاكاة وما يصل إلى السمع . وبطول هذا الامتزاج تسرب الضعف إلى نخبزة العربي وسليقته . على أن غير العربي كان ينزع قسراً عنه إلى بنى جلدته وإن طال لبثه بين ظهرائى العرب ، فقد كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم صهيب يرتضخ الرومية . وسلمان الفارسية ، وبلال وسحيم عبد بنى الحسحاس الحبشية ، تولد من هذا كله أن اللغة العربية تسرب إليها اللحن ، ووهنت الملاحظة الدقيقة التي تمتاز بها ، وهى اختلاف المعانى طوعاً لاختلاف شكل آخر الكلمة ، فإن هذه الميزة كانت موفرة لديهم وهم بعيدون

عن مخالطة سواهم من ذوى اللغات الأخرى التى خللت منها ، ولقد كان هذا النوع أول اختلال طرأ على اللغة العربية منذ كان الإسلام وكان الموالي والمتعربون ، وطفق يزداد رويداً رويداً ما طال الزمن وتفسحت رقعة الإسلام .

سبب وضع النحو

قال أبو الطيب : « واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب وأحوج إلى التعلم : الإعراب ، لأن اللحن ظهر فى كلام الموالى والمتعربين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد رويننا أن رجلاً لحن بمحضته فقال : " أرشدوا أخاكم فقد ضل " ، وقال أبو بكر لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فألحن » (١) .

وقال ياقوت : « ومرو عمر بن الخطاب رضى الله عنه على قوم يسيئون الرمى ، فتمرعهم ، فقالوا : إنا قوم " متعلمين " فأعرض مغضباً وقال : والله لخطوكم فى لسانكم أشد على من خطئكم فى رميكم » (٢) — وقال ابن جنى : « ورووا أيضاً أن أحد ولادة عمر رضى الله عنه كتب

(١) راجع مراتب النحويين . ونقل هذا السيوطى فى المزهرة أوائل النوع الرابع والأربعين ، والحديث الشريف المذكور فى الخصائص (باب فى ترك الأخذ عن أهل المدر إلخ) ج ١ ص ١٠٨ ، ومعجم الأدباء (الفصل الأول فضل الأدب) ج ١ ص ٨٢ ، والأثر المذكور نسب فى معجم الأدباء الموطن السالف للشعبى .

(٢) (٢) الموضوع السابق فى المعجم .

إليه كتاباً لحن فيه، فكتب إليه عمر أن قنع كاتبك سوطاً»^(١) - وقال ابن قتيبة : «سمع أعرابي مؤذناً يقول أشهد أن محمداً رسول الله بنصب رسول فقال : ويحك ! يفعل ماذا ؟ . . . ودخل أعرابي السرق فسمعهم يلحنون ، فقال سبحان الله ! يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح»^(٢) - وقال ابن عبد ربه : «ودخل على الوليد بن عبد الملك رجل من أشراف قريش فقال له الوليد : من نختك ؟ قال له : فلان اليهودي . فقال : ما تقول ؟ ويحك ! قال : لعلك إنما تسأل عن نختي يا أمير المؤمنين هو فلان بن فلان»^(٣) . وهكذا انتشرت جرثومة اللحن ، فأعدت الخاصة حتى صاروا يعدّون من لا يلحن ، قال الأصمعي : «أربعة لم يلحنوا في جند ولا هزل : الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج أفصحهم» ، واثقلت

(١) راجع الخصائص ، المبحث السابق ؛ وقد ذكر النحاة والمؤرخون هذا الأثر مع تغيير في بعض الكلمات ومع تعيين الوالي وهو أبو موسى الأسعري إذ كان واليه بالبصرة . وتعيين اللاحن وهو أبو الحصين بن أبي الحر العبدي كما في ترجمة يزيد بن مفرغ الحميري في وفيات الأعيان ، وتعيين اللحن وهو قول الكاتب : من أبو موسى الأسعري . راجع باب الاستثناء في المفصل وشرحه ، وفي شرح الرضي على الكافية . وفي معجم الأدباء ج ١ ص ٨٠ حادثة أخرى تماثل هذه استشخص عمر فيها العامل وضربه بالدرة .

(٢) راجع عيون الأخبار (كتاب العلم والبيان : الإعراب واللحن) ج ٢ ص ١٥٨ وما بعدها ، والحادثة الثانية مذكورة أيضاً في المعجم الموضع السابق .

(٣) راجع العقد الفريد (كتاب الياقوتة في العلم والأدب : الإعراب واللحن) ج ٢ ص ٤٨٠ ، لكن في خزنة الأدب شاهد ٦٥١ نسبة هذه الحادثة إلى عبد العزيز ابن مروان .

نشأة النحو

من الحاضرة إلى البادية ، قال الجاحظ : « قالوا وأول لحن سمع بالبادية هذه عصاتي » . كل ذلك والدولة الأموية ما فتئت قائمة ، والنصرة العربية مستحصدة الميرة ومانعة الدرة . وسترى أمثلة كثيرة من اللحن عند الكلام على واضح النحو اجتزاناً بذكرها ثمة حتى لا يكون الحديث معاداً . على أن ما رأيته وما ستره قيل من كثير وبعض من كل .

لهذا وذاك أهابت العصبية العربية بالعلماء في الصدر الأول الإسلامي أن يصدوا هذا السيل الجارف الذي كاد يكتسح اللغة العربية بما قذف فيها من لحن تسربت عدواه إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة بما هداوا إليه ، وسموه علم النحو ، غير أنهم لم تتفق كلمتهم على نوع السبب المفضي إلى وضعه ، فبعض المصادر التاريخية تذكر وقائع معينة كانت هي السبب عندهم ، وهي — مع كثرتها — لا تتفاوت عند المقارنة بينها قوة وضعفاً ، لا من ناحية الرواية ولا من ناحية اقتضاء الوضع ، وبعض المصادر الأخرى لا تقصر السبب على حادثة خاصة ، بل تعدّه نتيجة لازمة لتلك الحوادث ، السابقة منها والآتية أمثلة ملتفة بعضها على بعض . وما أشبه هذا الرأي بالصواب ، فغير مقبول في النظر أن ينهض العلماء ويستفرغوا مجهوداً جباراً يورقون فيه عيونهم ولا يطبقون جفونهم الليالي الطويلة لتأسيس فن خطير خالده الأثر في اللغة العربية وأبناء العروبة من جراء حادثة فردية كان يكفي في درتها إصلاحها وكفى . ومن جهة أخرى أين المؤهلات التي ترجح كفة حادثة جزئية على مثيلاتها ؟

وفى ذلك ترجيح بلا مرجع . فالحق الذى لا ينبغي الحيود عنه أن وضع هذا العلم إنما كان لهذه الحوادث متضافرة . قال ابن خلدون : « فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدي الأمم والدول ، وخالطوا العجم . تغيرت تلك الملكة بما ألتى إليها السمع من المخالقات التى للمتعبين ، والسمع أبو الملكات اللسانية . ففسدت بما ألتى إليها مما يغيرها ، لجنوحها إليه باعتياد السمع ، ونحشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ، ويطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ، ويلحقون الأشباه بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته إعراباً . وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً ، وأمثال ذلك ، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم ، فقيدها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة ، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو »^(١) .

متى وأين كان وضعه ؟

عرفت مما سلف أن وضعه فى الصدر الأول للإسلام ، لأن علم النحو ككل قانوناً تتطلبه الحوادث وتقتضيه الحاجات ، ولم يك قبل

(١) المقدمة ، الفصل السادس فى العلوم إلخ . . . علم النحو . . .

الإسلام ما يحمل العرب على النظر إليه ، فإنهم في جاهليتهم غنيون عن تعرفه ، لأنهم كانوا ينطقون عن سليقة جبلوا عليها ، فيتكلمون في شئونهم بدون أعمال فكر ، أو رعاية قانون كلامي يخضعون له ، قانونهم ملكتهم التي خلقت فيهم ، ومعلمهم بيئتهم المحيطة بهم ، بخلافهم بعد الإسلام ، إذ تأشبهوا بالفرس والروم والنبط وغيرهم ، فحل بلغتهم ما هال الغُيُور عليها وعلى الدين ، حتى هرعوا إلى وضع النحو كما تقدم . وهذا هو التحقيق الذي عول عليه الجمهور ، فقد زعم بعض العلماء أن العرب كانوا يتأملون مواقع الكلام ، وأن كلامهم ليس استرسالاً ولا ترجيماً ، بل كان عن خبرة بقانون العربية ، فالنحو قديم فيهم ، أبلته الأيام ثم جددته الإسلام على يد أبي الأسود الدؤلي بإرشاد الإمام على كرم الله وجهه . ومن هؤلاء العلماء أحمد بن فارس في أوائل كتابه « الصحاح » ، بل غلوا شديداً إذ نسب للعرب العاربة معرفتهم بمصطلحات النحو بتوقيف من قبلهم . حتى انتهى الأمر إلى الموقف الأول وهو الله عز وجل الذي علم آدم الأسماء كلها . وما من شك في أن هذا الرأي ناء عن المعقول ، جار وراء الخيال والوهم . نعم إن تحديد زمن وضعه في الإسلام لا سبيل إليه البتة ، وفي تعيين الواضع له في المبحث الآتي تقريب لزمه .

وقد كان وضعه ونشوؤه في العراق ، لأنه على حدود البادية ، وماتى العرب وغيرهم ، توطنه الجميع لرخاء الحياة فيه ، فكان أظهر بلد انتشر

فيه وباء اللحن الداعى إلى وضع النحو .
وما حاجة عرب البوادي في الحجاز إليه ، وما برحت لغتهم فصيحة؟

وضعه عربى محض

نشأ النحو في العراق صدر الإسلام لأسبابه نشأة عربية على مقتضى
القطرة ، ثم تدرج به التطور تمشياً مع سنة الترقى حتى كملت أبوابه ،
غير مقتبس من لغة أخرى ، لا في نشأته ولا في تدرجه . وقد اختلف
العلماء في أول ما وضع منه على رأيين : أحدهما أن أول ما وضع من
أبوابه هو ما وقع اللحن فيه ، ثم استمر الوضع فيما بعده على هذا النمط ،
وذلك ما ذهب إليه جمهور النحاة اعتماداً بالروايات المستفيضة التي
اقترن فيها الوضع باللحن ، إلا أن تعيين الباب الموضوع أولاً منوط
بالرواية التي قوى سندها من بين الروايات . والآخر أن أول ما وضع
منه ما كان أقرب إلى تناول الفكر في الاستنباط ، لأن وضعه مبنى
على أساس من التفكير في استخراج القواعد من الكلام لداعى انتشار
اللحن ، فالموضوع أولاً ما كثر دورانه على اللسان ، ثم ما يليه وهكذا ،
ولذا قيل إن الموضوع أولاً الفاعل ثم ردفه المفعول ثم المبتدأ والخبر
وهكذا . وما تقدم هو ما أطبق عليه علماؤنا خلفاً بعد سلف ، وزعم
بعض المستشرقين أن علم النحو منقول من لغة اليونان ، لأن وضعه في
العراق إنما كان بعد خلط العرب والسريان ، وتعلمهم ثقافتهم ،

والسريان نحو قديم ورثوه عن اليونان ، وزعم بعض آخر منهم رأياً ثالثاً ،
فيه بعض موافقة ومخالفة لكل من الرأيين المذكورين ، وافق الرأي الأول
فيما وضع منه ابتداء فقط . والثاني فيما أحدث فيه بعد دور التكوين من
تنظيم في التقسيم والتعريف والتعليل ، قال ليتمان : « اختلف الأورباويون
في أصل هذا العلم ، فمنهم من قال إنه نقل من اليونان إلى بلاد العرب ،
وقال آخرون ليس كذلك ، وإنما كما تنبت الشجرة في أرضها كذلك نبت
علم النحو عند العرب ، وهذا هو الذي روى في كتب العرب من زمن .
ونحن نذهب في هذه المسألة مذهباً وسطاً . . . وهو أنه أبدع العرب
علم النحو في الابتداء ، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه
هو والذين تقدموه ، لكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان
في بلاد العراق تعلموا أيضاً شيئاً من النحو . . . وبرهان هذا أن تقسيم
الكلمة مختلف ، قال سيبويه : فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ،
وهذا تقسيم أصلي ، أما الفلسفة فينقسم فيها الكلام إلى اسم وكلمة ورباط ،
وهذه الكلمات ترجمت من اليوناني إلى السرياني ومن السرياني إلى
العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة ، لا في كتب النحو . أما
كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت » (١) .
تلك هي الأقوال الثلاثة . والمعول عليه منها الأول ، إذ الثاني مجرد
اختصاص لا سر له إلا الولوع بالانتقاص من العرب ، والثالث لا يتناهى

(١) محاضرات ليتمان .

الأول فيما خالفه فيه ، فإنه غير مسلم أن يكون علماء العرب عيالا على غيرهم فيما يتصل بتنظيمه بعد اهتدائهم إلى اختراعه وابتكاره .

واضعه

علمت إجمالا أن واضعه من رجالات عصر الإسلام على ما تقدم بيانه ، لكنهم اختلفوا واضطرب اختيارهم متقدمين ومتأخرين ، كابن سلام في طبقات الشعراء . وابن قتيبة في المعارف . والزجاجي في الأمل ، وأبي الطيب اللغوي في مراتب النحويين . والسيرافي في أخبار النحويين البصريين . والزبيدي في الطبقات . وابن النديم في الفهرست ، والأنباري في نزهة الألبا ، والقفطي في إنباه الرواة — فيمن هو الواضع ؟

على أن هذا الاختيار لا يعدو في الواقع أن يكون إما للإمام عليّ كرم الله وجهه ، كما يرى الأنباري والقفطي ، أو لأبي الأسود الدؤلي رضي الله عنه ، كما يراه السابقون قبلهما . فأما عزو الوضع إلى نصر ابن عاصم الليثي أو عبد الرحمن بن هرمز فبمعزل عن الاختيار والتأييد . ولا أطيل الحديث بنقل كلام هؤلاء العلماء جميعاً مكتفياً بنقل كلام الأنباري ، لأنه أعناهم بهذا المقام ، وقد سرد معظم نقول السابقين عليه مع جودة الترتيب ، فذكر مختاره أولا مع روايتين في سبب وضع عليّ

كرم الله وجهه ، ثم ذكر مختار غيره مع روايات أربع في سبب وضع
أبي الأسود رضى الله عنه . ولعلك ذاكر ما لفتنا النظر إليه سابقاً في
سبب الوضع من أن الحق عدم الوقوف في سبب الوضع على أى قول
عند سبب خاص ، ثم فند القولين الأخيرين ، ثم عاد مصرحاً برجحان
اختياره قال : « اعلم أيديك الله تعالى بالتوفيق ، وأرشدك إلى سواء
الطريق ، أن أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحدّ حدوده
أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وأخذ عنه أبو الأسود
الدؤلى . . . وسبب وضع عليّ عليه السلام لهذا العلم ما روى أبو الأسود
قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ،
فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال :
إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء ، يعنى
الأعاجم ، فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى
إلى الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ
عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به ، والحرف ما أفاد معنى ، وقال لى :
انح هذا النحو ، وأضف إليه ما وقع إليك ، واعلم يا أبا الأسود أن
الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل
الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم
المبهم . قال : ثم وضعت بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب
والاستفهام ، إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها ما خلا لكن ،

فلما عرضتها على علي عليه السلام أمرني بضم لكن إليها ، وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه ، إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، قال : ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت ! فلذلك سمى النحو . . . وروى أن سبب وضع علي عليه السلام لهذا العلم أنه سمع أعرابياً يقرأ لا يأكله إلا " الخاطئين " فوضع النحو .

ويروى أيضاً أنه قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة ، فقال إن الله برئ من المشركين ورسوله بالجر ، فقال الأعرابي أو قد برئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابي فدعاه ، فقال : يا أعرابي ، أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرئني ؟ فأقرأني هذا سورة براءة ، فقال إن الله برئ من المشركين ورسوله ، فقلت : أو قد برئ الله تعالى من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ عنه ، فقال عمر رضي الله عنه : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن الله برئ من المشركين ورسوله ، فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم ، فأمر عمر رضي الله عنه ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو . . . وروى عاصم قال : جاء

أبو الأسود الدؤلى إلى زياد ، وهو أمير البصرة ، فقال إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ، وفسدت ألسنها ، أفتأذن لى أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم ؟ فقال له زياد : لا تفعل ، قال : فجاء رجل إلى زياد فقال : أوصالح الله الأمير ؛ توفي أبانا وترك بنونا ، فقال له زياد توفي أبانا وترك بنونا ؟! ادع لى أبا الأسود ، فلما جاءه قال له : ضع للناس ما كنت نهيتك عنه ، ففعل . ويروى عنه أيضاً أن أبا الأسود قالت له ابنته ما أحسنُ السماء ، فقال لها : نجومها ، فقالت : إني لم أرد هذا ! وإنما تعجبت من حسنها ، فقال لها : إذن فقولى ما أحسنَ السماء ؛ فحينئذ وضع النحو . وأول ما رسم منه باب التعجب .

وزعم قوم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وزعم آخرون أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم ، فأما من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز أو نصر بن عاصم فليس بصحيح ، والصحيح أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، لأن الروايات كلها تسند إلى أبى الأسود ، وأبو الأسود يسند إلى على ، فإنه روى عن أبى الأسود أنه سئل فقول له : من أين لك هذا النحو ؟ فقال : لفقت حدوده من على بن أبى طالب^(١) . ولا ريب أن الاختلاف فى المختار من القولين بين الجماعة والأنبارى

(١) راجع نزهة الألبا ، وقد تركنا رواية أخرى عن زياد .

مرجعه إلى الحدس والتخمين ، فليس مع أحد المختارين ما يرجحه على الآخر ، لا من العقل ولا من النقل المتواتر ، فما هي إلا روايات يتاهض بعضها بعضاً ، غير أن الظنون متفاوتة عند الموازنة بين المتكافئين ، ويظهر أن الحق في جانب الجماعة ، فإن وضع النحو أمر خطير يتقاضى من القائم به عناية مبدولة إليه خاصة ، وصدوقاً عن مشاغل الحياة عامة ، ووقتاً طويلاً يستنزف في التقصى للكلام العربي وإعمال الفكر واستخراج القواعد ، في حياة كلها هدوء واستقرار ، يرفرف عليها جناح الأمن والسلام . وحياة الإمام على كرم الله وجهه تقضت في النضال العنيف والشجار المستعمر ، ملأتها الحوادث المروعة ، واكتنفها أمواج الاضطرابات الشاملة ، فبعد أن الإمام يرايه الوقت " في النهوض بأعباء هذا العمل الجلل ، على أنا لا نأبى أن له اليد الطولى على أبي الأسود في الإرشاد له ، والإشراف عليه ، وتقريره لما صح في استنتاجه ، وقد يكون في ذلك تقريب للجمع بين الاختلاف في المختار ، فللإمام فضل الهداية إلى الأساس ، ولأبي الأسود فضل القيام بوضعه على ضوء هدى الإمام .

واضعه أبو الأسود الدؤلي

فالذي نخاله قريباً إلى الواقع ويرتضيه النظر أن أبا الأسود هو واضع هذا الفن ، ونسبة الوضع للفن إنما تعدّ نتيجة لقيام الواضع ببعض

الأبواب الأساسية في ذلك الفن ، وهذا ما كان من أبي الأسود كما رأيت ، واختيار الأنباري نسبة الوضع للإمام أول كلامه اعتماداً على تفهيم الإمام أبا الأسود أقسام الكلمة وأقسام الاسم والباقي من النواسخ ، إنما يتم لو تظاهر جمهور العلماء المعنيين بهذا الشأن على الموافقة على هذه الرواية والاعتزاز بها ، مع أن الذي قد سبق إليها - وهو الزجاجي - ساقها على أنها رواية من الروايات فحسب ، ونقلها عنه كذلك ياقوت في ترجمة الإمام ، أما الباقيون فلم يعرضوا لها ، وتصريحه آخر كلامه بالاختيار استناداً لرجوع الروايات عن أبي الأسود إلى الإمام في النهاية ، لا يتم أيضاً مع عدم مخالفتنا له في رجوع الروايات للإمام ، ولا يؤدي ذلك إلى انتهاء الوضع له على ما سبق في التقريب بين الاختيارين .

وما يؤيد نسبة الوضع إلى أبي الأسود ما روى ابن النديم محمد بن إسحق في الفهرست أن رجلاً بمدينة الحديثه اسمه محمد بن الحسين كان جماعة للكتب ، وقد آلت إليه خزانة صديق له كان مشتهراً بجمع الخطوط القديمة . قال ابن إسحق : « فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً ، إلا أن الزمان قد أنحلها ، وعمل فيها عملاً أدرسها . . . ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته ، وهي أربع أوراق وأحسبها من ورق الصين ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط

عتيق هذا خط علان النحوى ، وتحتته هذا خط النضر بن شميل»^(١) .

ولقد درج على هذا الرأى متقدمو المؤرخين من أصحاب الطبقات والمعاجم ، واحتذى حذوهم المتأخرون عدا الأنبارى ، فن الغريب بعدئذ أن يستنكر المستشرقون هذه النسبة المتواطأ عليها قديماً وحديثاً زعماء منهم أن عصر أبى الأسود لا يتواءم وهذه الاصطلاحات الرضعية المرتبة التى بأيدينا ، وإنما هى وليدة عصر متأخر عنه ، تطور فيه التعاليم حتى صار مناسباً لهذه القواعد المرتبة قالوا : « وليس حقاً ما يقال : إنه (أبا الأسود) واضع أصول النحو العربى »^(٢) .

وقد اقتفى أثرهم بعض علماء العصر الحاضر . ولهذا تختص الأستاذ أحمد أمين من الموقف بتأويل بعيد تذرع به إلى التوفيق بين الاعتراف بما هو مستفيض شائع وهذا الرأى الجديد ، وتلمس وجهاً لنسبة الوضع إلى أبى الأسود بعد تسليم صحتها ، لكن على وجه آخر فقال : « ويظهر لى أن نسبة النحو إلى أبى الأسود لها أساس صحيح ، وذلك أن الرواة يكادون يتفقون على أن أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط ، وهو أنه ابتكر شكل المصحف . . . وواضح أن هذه خطوة أولية

(١) راجع الفهرست ، الفن الأول ، من المقالة الثانية .

(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ، العدد الخامس ، ترجمة

أبى الأسود .

في سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء ، ويمكن أن تأتي من أبي الأسود ،
 وواضح كذلك أن هذا يلفت إلى النحو ، فعمل أبي الأسود يسلم إلى
 التفكير في الإعراب ووضع القواعد له . . . وأن هذه الأمور لما توسع
 العلماء فيها بعد ، وسما كلامهم نحواً ، سحجوا اسم النحو على ما كان
 قبل من أبي الأسود ، وقالوا : إنه واضح النحو للشبه في الأساس بين
 ما صنع وما صنعوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً . . .
 إنما الذي كان له الفضل الأكبر في ذلك الخليل بن أحمد ذو العقل
 الجبار المبتكر الذي قل أن يوجد له نظير في علماء ذلك العصر . . .
 وهو الذي عمل النحو الذي نعرفه إلى اليوم ^(١) .

نعم ، نحن لا ننكر ما للخليل من الفضل ، لا على النحو بل على
 كثير من علوم اللغة العربية ، وستعرف آثاره في ترجمته إن شاء الله
 تعالى ، لكننا مع ذلك على رأينا الأول .

فليس بغريب على أبي الأسود الذي أوتي العلم الواسع أن يلهم
 هذا الفن ويضع تعاليمه التي يسار عليها وينسج على منوالها ، ولا ندعى
 أنه قد وفق إليه على غرار ما نراه في كتبنا من تعريفات ومصطلحات
 وتقاسيم ، فإن طبيعة عهده السابق على عصر المقتنين تقتضي مجرد اتجاهه إلى
 أبواب هذا العلم إجمالاً حسباً تقتضيه الفطرة العربية على وفق ما ورد
 في مختلف الروايات الكثيرة التي صرحت بنسبة الوضع إليه فقط بدون

(١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٨٦ وما بعدها .

تعرض إلى التفصيل ، وذلك كاف في عده المؤسس له ، نعم قد تطور بمسيرة الزمن وأضيف إليه من كل طبقة بعد أخرى ما ضخمه ، وصيره فنًا مستكمل الدعائم ، مرتب الأبواب ، منظم التقسيم ، مع التعاريف التي امتازت بها الأبواب والتقسيم والاصطلاحات العلمية الخاصة ، إلا أنه مما لا يختلف فيه اثنان أن النهضة بهذا العلم في تلك النواحي كان عمادها الخليل بن أحمد . فمن عهده انتظم شتاته ، والتأم عقده ، واتخذ تعليمه دوره الفني ، كما ستقف على ذلك في أطواره ، ومع هذا فإن عناصره الأساسية التي اهتدى إليها أبو الأسود بتعليم الإمام على وإقراره لم تتغير ولم تتبدل .

ولقد اتفق العلماء متقدمين ومتأخرين على أن أبا الأسود هو الذي ابتكر شكل المصحف ، ففعل ذلك كان منه تكميلًا لما بدأ به من القيام بما يحفظ على المسلمين كتابهم الكريم ولغتهم الشريفة .

وما لنا ننكر هذه النقول الصريحة وقد وافق عليها الخلف بعد السلف عصرًا بعد آخر تلك الأزمنة المتطاولة ، ولم نر منهم نكيرًا ؟

على أننا لو تمثلنا شخصيته ونزعتة وعصره الذي كان ينشر فيه علمه بالبصرة لأيقنا صحة هذه النسبة ، فقد كان علوى الرأي ، يجاهر بتشيعة وهواه ، فيمدح الإمام بالقصائد الحسان . وعمال البصرة وسواد العراق من قبل معاوية يشقون عليه ويعنتونه ، حتى بنو قشير الذين جاورهم وصاهرهم بزواجه منهم امرأته أم عوف أجزموا معه ، فسبوه ونالوا من

على كرم الله وجهه إيلاماً له ، وقذفوه ليلاً بالحجارة . قال المبرد :
« وكان بنو قشير عثمانية ، وكان أبو الأسود نازلاً فيهم ، فكانوا يرمونه
بالليل ، فإذا أصبح شكوا ذلك ، فشكا مرة فقالوا : ما نحن نرمىك
ولكن الله يرمىك ، فقال : كذبتُم والله لو كان الله يرمىني لما أخطأني »^(١) .
أصبحوا ذلك كله أبا الأسود ، وأقضى مضجعه ، فانزلق إلى هجاء
أمير العراق زياد وابنه عبيد الله ، وهما ما هما ! وقد توالى خلافة الأمويين
زمناً ليس بالقصير ، وهم منطوون على نار من الحقد للعلويين وأتباعهم ،
إذ لم تقم دولتهم إلا بدعوى المطالبة بدم عثمان ، بعد اتهامهم أمير
المؤمنين علياً بالتفريط فيه والتغاضي عن السافكين دمه رضوان الله
عليه ، فكيف يدعون أمراً خطيراً كهذا يمضي على كر الزمان ويخاد
في بطون الأسفار ! وهم أحرص الناس على الغرض من شأن العلويين
وشيعتهم ، ولا سيما في مثل هذا الشأن ذى البال والأثر الخالد .

تسميته بالنحو بعد أبي الأسود

روت كتب الأدب والتراجم على سبيل اليقين أن هذا العلم كان
يسمى بالعربية في عصر أبي الأسود ، قال ابن سلام في الطبقات :
« وكان أول من استن العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع
قياسها ، أبو الأسود الدؤلي » ، وقال ابن قتيبة في المعارف : « أول

(١) الكامل مع الرغبة ج ٧ ص ١٣٣ .

من وضع العربية أبو الأسود » ، وقال ابن حجر في الإصابة : « أول من ضبط المصحف ووضع العربية أبو الأسود » ، فالتسمية بالنحو بعد عصره . إلا أنها لم تتجاوز الطبقة الثانية ، فقد اشتهرت عنها مؤلفات اتسمت بأنها نحوية ، وصرح فيها باسم النحو ، كما ستقف على ذلك في الطبقات إن شاء الله تعالى ، فما يذكر في كتب التراجم من نسبة التسمية بالنحو إلى أبي الأسود مبنى على التسامح ، وملاحظ فيه انسحاب التسمية الطارئة بالنحو بعدُ على ما كان من أبي الأسود ضرورة أن ما وضعه أبو الأسود أساس ما رسمه بالنحو ، ولو غنى أصحاب التراجم بنوعين صاحب التسمية رقبها لأغنوننا عن تنازع الظنون .

سبب التسمية بالنحو

اسم العلم من وضع أدله ووجه ملحقهم بالقبضى الملازمات المناسبة في نظرهم ، وقد سلف أن أبا الأسود لما عرض على الإمام ما وضعه فأقره بقوله : « ما أحسن هذا النحو الذى قد نعت » ، فأثر العلماء تسمية هذا العلم باسم النحو استبقاء لكلمة الإمام التى كان يراد بها أحد معانى النحو اللغوية : والمناسبة بين المعنيين : اللغوى والاصطلاحي جليلة .

نشأة النحو وتدرجه

نشأ النحو أول أمره صغيراً شأن كل كائن ، فوضع أبو الأسود منه ما أدركه عقله ، ونفذ إليه تفكيره ، ثم أقره الإمام على ما وضعه ، وأشار عليه أن يقتضيه ، فقام بما عهد إليه خير قيام ، ولم يهتد ببحث العلماء إلى يقين فيما وضعه أبو الأسود أولاً على ما سلف تفصيلاً ، وكانت هذه النهضة الميسونة بالبصرة التي كان في أهلها ميل بالطبيعة إلى الاستفادة من هذا الفن اتقاء لوباء اللحن الزارى بصاحبه ، وبخاصة الموالى الذين كانوا أحوج الناس حينذاك إلى تلقى هذا العلم رغبة منهم في تقويم لسانهم وتخليصه من رطانة العجمة ، وحباً في معرفة لغة الدين الذي اعتنقوه ، وطمعاً في رفع قدرهم بين العرب ، فصدمت عزيمتهم في دراسته والتزيد منه ، وما انفكوا جادين فيه بعدئذ حتى نبغ منهم كثير قاموا بأوفى قسط في هذا العلم ، وقادوا حركته العلمية قال المبرد : « مر الشعبي بقوم من الموالى يتذاكرون النحو ، فقال لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده»^(١) - فكان منهم علماؤه المبرزون دراسة وتأليفاً حتى أشير إليه ردماً من الزمن أنه علم الموالى .

للأبي الأسود الفضل الوافر في بدء الغرس الذي نما وترعرع وازدهر

(١) الكامل مع الرغبة ج ٤ ص ١٩٣ .

على كثر الزمان بإضافة اللاحق إلى السابق ما استدركه وما ابتدعه ، فازداد فيه التدوين والتصنيف شيئاً فشيئاً ، غير أن هذا العلم لم تطل عليه الأيام كسائر الفنون ، فاكتمل وضعه قبلها ، والباعث على النشاط فيه والسرعة شعور العرب بالحاجة إليه قبل كل علم ، فإن الفتوحات الإسلامية متوالية في الأمصار ، والعرب متدفقون عليها ، والامتزاج مستحكم بينهم وبين من دخلوا في حوزتهم وعيشير اللحن منتشر أقضى الأبصار ، فهب العلماء لا يلوون على شيء منكمشين في تدوينه ، فكان يسير بخطى فسيحة تبشر بالأمل القوى العاجل ، حتى نضج ودنا جناه ، فتم وضعه في العصر الأموي من دون سائر العلوم اللسانية .

وما استهل العصر العباسي إلا وهو يدرس دراسة واسعة واسعة النطاق في العراقين (البصرة والكوفة) ، وكمل وأوفى على الغاية في بغداد ولما ينقض العصر العباسي الأول ، وذلك قبل تمام القرن الثالث الهجري .

ولقد تلمسنا تعرف المراحل التي اجتازها هذا العلم طبقاً لنواميس النشوء ؛ فلكل علم أطوار يمر بها كما يمر الحي بأطوار الحياة : وليداً وناشئاً وشاباً وكهلاً ، في كثير من الكتب التي يحال فيها التعرض لذلك ، فما وقفنا على ما يشق الغلة وينير السبيل ، فلاح لنا بعد إنعام الفكرة وإطالة النظرة أن نجعل الصلة بين هذه المراحل والعلماء القائمين بأمر هذا الفن ، إذ كان على أيديهم ما نقله من طور إلى آخر .

روى لنا التاريخ أن البصريين هم الذين وضعوه بتعهدوه بالرعاية

قُرابة قرن كانت فيه الكوفة منصرفة عنه بما شغلها من رواية الأشعار والأخبار والميل إلى التندر بالطرائف من الملح والزاد ، ثم تكاتف الفريقان على استكمال قواعده ، واستحبهما التنافس الذي جدّ بينهما واستحرت ناره ردحاً من الدهر ينيف على مائة سنة ، خرج بعدها هذا الفن تام الأصول ، كامل العناصر ، وانتهى الاجتهاد فيه ، وحينذاك التأم عقد الفريقين في بغداد ، فنشأ المذهب البغدادي الذي عماده الترجيح بين الفريقين ، ثم شمع نور هذا العلم في سائر البلاد الإسلامية التي احتفظت به بعد أن دالت دولة بغداد العلمية ، وفي طليعتها الأندلس في عصرها الزاهر ، ومصر المعزية والشام وما يتاخها .

أطوار النحو الأربعة

وعلى ضوء هذا التاريخ قد عدنا أطواره أربعة : طور الوضع والتكوين (بصرى) ، طور النشوء والنمو (بصرى كوفى) ، طور النضج والكمال (بصرى كوفى) ، طور الترجيح والبسط في التصنيف (بغدادي وأندلسي ومصرى وشامي) .

على أنه ليس في الاستطاعة وضع حد توقيتي ينفصل به كل طور عما يسبقه أو يعقبه ، فإن الأطوار لا بد من تداخلها وسريان بعض أحكام سابقها على لاحقها ، كما أنه لا مناص من تسرب شيء مما في تاليها على بادئها ، فغير ممكن أن يوجد الطور دفعاً ، وإنما تلده

المؤثرات التي تسبقه وتمهد له ، وهي بالطبع في غيره ، إلا أنها لما تكاثرت وتزايدت حتى بدا للعلم بمقتضاها طابع آخر غير الطابع السابق عليه استوجبت جعله في طور آخر جديد ، ولا يكون ذلك التمييز الظاهر إلا بعد انقضاء زمن المداخلة بين الطورين . وعلى هذا الأساس فإن تحديد هذه الأطوار إلى التقريب أقرب منه إلى التحقيق ، وبدهى أن تحديدها بالعلماء على ما سبق يعود بالنفع إلى طبقاتهم التي يمثلونها ، وستعرف هذه الطبقات مرتبة بحسب الزمن مع تراجم علمائها كلهم ، وإننا سنكتفي في هذا التحديد بالعلماء المبرزين المعلمين فقط للاختصار .

الأول طور الوضع وائتكوين (بصرى)

هذا الطور من عصر واضع النحو أبي الأسود إلى أول عصر الخليل ابن أحمد ، وقد سلف أن وضعه انتهى في عصر بني أمية . هذا هو الطور الذي استأثرت به البصرة صاحبة الفضل في وضعه وتعهده في نشأته ، والكوفة منصرفه عنه بما شغلها من رواية الأشعار والأخبار والنوادر زهاء قرن ، اشتغل فيه طبقتان من البصريين بعد أبي الأسود حتى تأصلت أصول منه كثيرة وعرفت بعض أبوابه . فإن الطبقة الأولى التي أخذت عن أبي الأسود استمرت في ت شمير ما تلقته عنه ، ووفقت إلى استنباط كثير من أحكامه ، وقامت بقسط

في نشره وإذاعته بين الناس . وكان من أفذاذ هذه الطبقة عنبسة بن معدان الفيل ، ونصر بن عاصم الليثي ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر العدواني ، ولم يدرك أحد من رجال هذه الطبقة الدولة العباسية ، ويغلب على الظن أن ما تكون من نحو هذه الطبقة - فضلا عن قلته - كان شبه الرواية للمسموع ، فلم تنبت بينهم فكرة القياس ، ولم ينهض ما حدث في عهدهم من أخطاء إلى إحداث ثغرة خلاف بينهم لقرب عهد القوم بسلامة السليقة ، كذلك لم تقو حركة التصنيف بينهم ، فلم يؤثر عنهم إلا بعض نُتف في مواطن متفرقة من الفن لم تبلغ حد الكتب المنظمة ، إذ كان جل اعتمادهم على حفظهم في صدورهم ورواياتهم بلسانهم ، وزعم بعض المؤرخين أن أستاذها أبا الأسود قد وضع مختصراً على ما تقدم بيانه .

أما الطبقة الثانية التي كانت أكثر عدداً من سابقتها فقد كانت أوفر منها حظاً في هذا الشأن ، إذ وطأت لها سبيله ، فازدادت المباحث لديها ، وأضافت كثيراً من القواعد ، ونشأت حركة النقاش بينها ، فجدت في تتبع النصوص واستخراج الضوابط ما هياً لها وقتها ، واستطاعت التصنيف فدوّنت فيه بعض كتب مفيدة ، وكان من المشار إليهم فيها عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي الذي يقول فيه أبو الطيب : « وكان يقال عبد الله أعلم أهل البصرة وأعقلهم ففرع النحو وقاسه »^(١) ، وكان

(١) مراتب النحويين .

يُحْطَى الفرزدق كثيراً حتى هجاءه ، وستعرف تفصيل ذلك في ترجمته
بمشيئة الله تعالى ، وعيسى بن عمر الثقفى صاحب الكتابين في النحو :
الجامع والإكمال ، وقد نوه عن فضلهما الخليل بن أحمد بقوله :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وأبو عمرو بن العلاء صاحب التصانيف الكثيرة على ما ستعرف
في ترجمته ، ورجال هذه الطبقة أظلمت الدولة العباسية جميعاً خلا
عبد الله بن أبي إسحاق الذى مات سنة ١١٧ هـ .

لم ينقض هذا الطور حتى وفق العلماء إلى وضع طائفة كبيرة من
أصوله بعثتهم إلى التزيد فيها ، فاختمت بينهم فكرة التعليل التى كان
أول متجه لها ابن أبي إسحاق ، كما أنه أول من نشط للقياس ، وأعمل
فكره فيه ، وخرج مسائل كثيرة عليه ، ووافقه عليه عيسى بن عمر ،
ونخالفهما بعض معاصريهما ، فانفسح ميدان القول في هذا العلم ، وأنس
الناس به ، وتداولوه في كتبهم التى كانت تسير روح هذا العهد ، فقد
كانت مزيجاً من النحو والصرف واللغة والأدب وما إلى ذلك من علوم
اللغة العربية ، لأن هذه الفروع كانت متداخلة آخذاً بعضها بحُجُز
بعض ، لقرب الوشيجة بينها في الغرض والمقصد ، فكان الأديب
حينذاك نحويّاً صرفيّاً لغويّاً ، والنحوى أديباً لغويّاً صرفيّاً وهكذا ،

يحملنا على هذا ما روى لنا عنهم في نقاشهم ومحاوراتهم ، وإن لم تصلنا مؤلفاتهم التي طارت بها عواصف الأيام ، ونالها ما نال أربابها من الزوال ، وصدق المتنبي في قوله :

تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

نعم أخذت هذه الفروع تمتاز بعضها من بعض في البحث والتدوين من أوائل الطور الثاني تدريجاً حتى اشتهر بعض العلماء بالنحو ، وأشير إلى آخر باللغة ، ودواليك . . .

الثاني طور النشوء والنمو (بصرى كوفى)

هذا الطور من عهد الخليل بن أحمد البصرى ، وأبى جعفر محمد ابن الحسن الرؤاسى إلى أول عصر المازنى البصرى ، وابن السكيت الكوفى . فبهذا الطور مبدأ الاشتراك بين البلدين في النهوض بهذا الفن والمنافسة في الظفر بشرفه ، فقد تلاقت فيه الطبقة الثالثة البصرية برياسة الخليل ، والأولى الكوفية بزعامة الرؤاسى ، وكذا بعدهما طبقتان من كل من البلدين ، فوثب هذا الفن وثبة حي بها حياة قوية أبدية بعد ، وكان هذا الطور حريئاً أن يسمى طور النشوء والنمو .

ونقصد الآن بالنحو معناه العام الذى يشمل مباحث الصرف ، لأن

مباحث رجال الطور الماضى كانت منصرفة حول أواخر الكلمات كما عرف عنهم . بخلاف رجال هذا الطور . فإنهم قد اتجهت أنظارهم إلى مراعاة أحوال الأبنية أيضاً ، فقد راعهم ما اعتورها من خطأ يجب درؤه . وذلك أنهم ما ساولوا صرن الكلام من غوائل اللحن فى أطرافه إلا ضناً به ألا ينهض بالإفادة والاستفادة المقصودتين منه ، ورعاية أواخر الكلمات بتوانين النحو إن كفلت دفع اللحن عن الكلام . وأصلحت هيكله الصورى للتأدية العامة ، فإن تلك التأدية لا تتم فيه إلا إذا سلمت جواهر أجزائه التى يتقوم بها ، وما تأخرت ملاحظتها لهذا الحين إلا لقلة العثرات فيها بالإضافة إلى العثرات التى كانت تعترض الكلام فى أواخر أجزائه ، ولأن الخطأ فيها لا يذهب بالمعنى المقصود للمتكلم كالخطأ فى أواخر الكلمات ، كما لمست هذا فى سبب وضع النحو .

فإن هذا الحين ظهرت مباحث الصرف فى طى كتب النحو وشغلت منها فراغاً . وعمّ الأمرين اسم النحو ، واستمر هذا الاندماج طويلاً من الزمن حتى تدوول فى بعض كتب المتأخرين ، ولذا عرف بعضهم النحو بأنه علم يعرف به أحوال الكلم العربية إفراداً وتركيباً ليشمل الأمرين . نعم قد تقلص عن كتب النحو من أوائل هذا الطور ما لا يتصل به هذا الاتصال الوثيق ، كمباحث اللغة والأدب والأخبار ، ولا ريب أن للصرف من بين سائر علوم اللغة العربية قرابته الدنيا بالنحو ، على أن التحليل — وهو غرة جبين هذا الطور — قد جمع بين اللغة والنحو ،

فإنه ذكر في كتاب العين الذي هو الأساس لكتب اللغة فيما نعلم مقداراً كبيراً من النحو .

ابتدأ هذا الطور ، وأخذ العلماء في كتب النحو ومباحثه سمياً آخر غير ما اتجهوا إليه في الماضي على ما عرفت ، ونشطوا في التقصي والاستقراء للمأثور عن العرب ، وفي أعمال الفكر واستخراج القواعد ، وكان مبعث ذلك النشاط هو التنافس البلدي الذي عرض إبان هذا الطور ، فرام كل من أهل البلدين (البصرة والكوفة) ظفراً على الآخر ، فالخليل — بعد أن جاب بوادي الحجاز ونجد وتهامة مواجهاً العرب في صحرائها مستمعاً لأحاديثها — يعود إلى البصرة ، ويستجمع كل ما سمع ، ويشحذ ذهنه الحاد ، ويفرغ للبحث عن لآلئ هذا الفن من بحر علمه العميق ، حتى جمع أصوله ، وفرع تفاريعه ، وضم كل شيء إلى ليفقه ، وساق الشواهد وعلل الأحكام ، وبلغ في ذلك غاية محمودة فاتت كل من سبقه ، بيد أنه اكتفى عن تدوينه موسوعة فيه بطلبته الذين كان يملئ عليهم ، ومن حمل الراية في البصرة مع الخليل يونس إلا أنه قصر مجهوده على التلقى عنه ، ونصب نفسه للإفادة ، فكانت له حلقات دراسة يؤمها القاصي والداني من فصحاء الأعراب وأهل العلم ، وكان له في النحو أقيسة ومذاهب خاصة تفرد بها .

ولقد عاصرهما الرأسى الكوفي شيخ الطبقة الأولى الكوفية ، فإنه بعد اشتراكه معهما في التلقى عن الطبقة الثانية البصرية يسم الكوفة ،

وَأَلْقَى عَصَاهُ فِيهَا ، وَقَدْ أَلْنَى عَمَّهُ مَعَاذَ بْنِ مُسْلِمٍ الْهَرَاءِ الَّذِي كَانَ أَقْدَمَ مِنْهُ سَنًا يَزَاوِلُ هَذَا الْعِلْمَ ، إِلَّا أَنَّهُ كَلِيفٌ بِالْبَحْثِ عَنِ الْأَبْنِيَةِ وَالتَّهَارِيرِ إِلَى أَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ النَّاحِيَةُ الصَّرْفِيَّةُ الَّتِي التَفَتَ إِلَيْهَا الْكُوفِيُّونَ ، وَاسْتَنْبَطُوا لِلصَّرْفِ كَثِيرًا مِنْ الْقَوَاعِدِ الَّتِي سَبَقُوا بِهَا الْبَصَرِيِّينَ ، حَتَّى عَدَّاهُمُ الْمُؤَرِّخُونَ الْوَاضِعِينَ لِلصَّرْفِ ، إِذْ كَانَ الصَّرْفُ عِنْدَ الْبَصَرِيِّينَ فِي الْمَحَلِّ الثَّانِي ، وَلَمْ يَكْفِ ذَلِكَ الْكُوفِيِّينَ فِي دَفْعِ التَّخْلُفِ الْلاحِقِ بِهِمْ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ شَرَفِ النَّحْوِ ، فَتَهَالَكُوا عَلَيْهِ ، وَتَزَاحَمُوا بِالْمَنَاقِبِ ، شَأْنُ الْمَفْرُطِ الَّذِي يَحَاوِلُ تَلَاْفِي خَطْئِهِ ، فَظَهَرَ فِيهِمْ عُلَمَاءُ ، وَانْبَعَثَتْ فِيهِمْ فِكْرَةُ التَّأْلِيفِ ، وَكَانَ أَوَّلُ مُؤَلِّفٍ تَدَاوَلَوْهُ بَيْنَهُمْ كِتَابُ « الْفَيْصَلِ » لِلرُّوَاسِيِّ ، رَوَى ابْنُ الزَّيْدِ وَغَيْرُهُ : « وَقَالَ الرُّوَاسِيُّ : بَعَثَ الْخَلِيلُ إِلَىَّ يَطْلُبُ كِتَابِي ، فَبَعَثْتُ بِهِ إِلَيْهِ فَقَرَأَهُ ، وَكُلَّ مَا فِي كِتَابِ سَيَبَوِيهِ وَقَالَ الْكُوفِيُّ كَذَا فَإِنَّمَا يَعْنِي الرُّوَاسِيُّ » (١) .

تَكُونُ عَلَى يَدِ الْإِمَامِينَ : الْخَلِيلُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْبَصَرِيِّينَ ، وَالرُّوَاسِيُّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْكُوفِيِّينَ ، بِكُلِّ مِنَ الْبَلَدَيْنِ مَدْرَسَةٌ خَاصَّةٌ لَهَا عِلْمٌ تَنْحَازُ إِلَيْهِ كُلُّ فِرْقَةٍ ، وَتَتَابَعَتِ الطَّبَقَاتُ الْمُتَعَاَصِرَةُ مِنْ كُلِّ الْبَلَدَيْنِ . فَسَطَعَ فِي سَمَاءِ الْبَصْرَةِ نَجْمٌ مُتَأَلِّقَةٌ تَأَلَّفَ مِنْهَا عَقْدُ الطَّبَقَةِ الرَّابِعَةِ بِزَعَامَةِ سَيَبَوِيهِ الَّذِي وَهَبَ مُلْكَةَ التَّصْنِيفِ وَالتَّنْسِيقِ ، فَأَبْدَعَ كِتَابَهُ عَلَى

(١) رَاجِعِ الْفَهْرَسْت : الْفَنُّ الثَّانِي مِنْ الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ ، وَنَزْهَةُ الْأَلْبَا ، تَرْجُمَةُ الرُّوَاسِيِّ ، وَمَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ تَرْجُمَتُهُ أَيْضًا ج ١٨ ص ١٢٢ .

مثال لم يسبق إليه ، ولم يدع للمتأخرين استدراكاً عليه ، وكان يعاصرها الطبقة الثانية الكوفية التي كان يقودها الكسائي الذي لم يأل جهداً حتى أخرج للناس مؤلفات استفادوا منها ، وشدة من أزره لإقبال الدنيا عليه بعد اتصاله بالخلفاء والأمراء ببغداد ، فأعتد للكوفيين فيها متكاً ، وسعى سعيه حتى كوّن من الكوفيين جبهة قوية ثبتت أمام الجبهة البصرية ، ووقفت منها موقف الند للند ، فإنه الذي يعد بحق المؤسس للمذهب الكوفي ، ولولاه لذهبت ريحهم ولما خفقت بنودهم على بغداد التي عطفت عليهم من هذا الحين ورفعت شأنهم ، فاستفز ذلك البصريين لمناصبهم أشد العداة وإشهار سلاح الخصام في وجوههم ، وما زال كل من البلدين جد حريص على حوز قصب السبق رغبة في التغلب وحرصاً على الإزراء بالآخر وتفانياً في الدنو من العباسيين ، فاتسعت رواياته واستفاض تعليمه بين الدهماء وازدادت تأليفه .

فالأخفش البصري شيخ الخامسة يصنف ويذيع على الناس ما أوتي من علم ، ومعاصره الفراء الكوفي أستاذ الثالثة تغمره عطايا المأمون وتحفزه إلى نشر العلم وتتيح له أن يدون طوال الكتب التي راجت في بغداد والكوفة .

كل ذلك بفضل المناظرة التي بدأت هادئة أول الأمر بين البلدين على يد الخليل والرؤاسي ، ثم اشتدت على مرور الأيام ، وكان لها أثرها الفعال ، إذ كانت وقوداً صالحاً لإشعال نار الاجتهاد والدأب على استكمال

ما بقي من مواد هذا الفن ، فحمى وطيسها في غضون هذا الطور ،
واندلع لهيبها إلى نهاية الطور الثالث فصلى بنارها كثير من جيلة البصريين
وقليل من الكوفيين ، وسندكرلمحة عنها إن شاء الله تعالى بعد إتمام الكلام
على هذين الطورين (البصريين الكوفيين) ، فإنه عند تلاقى الفريقين
ببغداد وابتداء الطور الرابع الجديد قد انطفأت نار العصبية البلدية ،
واختبأ أوارها فلم تك مناظرات بصرية وكرفية .

وقصارى القول أنه لم ينصرم هذا الطور حتى قطع النحو شوطاً
كبيراً شارب فيه النهاية ، فأرهفت له الأسماع ، وكثرت فيه المؤلفات التي
أزيل منها ما ليس من فن النحو ، وإن كان التصريف ما لبث مندرساً
فيه عند البصريين ، فإن كتاب سيبويه — وهو البقية الباقية بأيدينا
من مؤلفات هذا الطور والمرآة التي تتكشف بها صورة التأليف فيه —
قد جمع بين الفنين .

ولقد بهر العلماء أمر هذا الكتاب ، إذ قصرت همهم عن مطالعته
حيناً من الدهر ، فلم يروا إلا الطواف حوله تعليقاً عليه في النواحي
المختلفة شرحاً واختصاراً وانتقاداً واستدراكاً ورداً وإعراباً للشواهد، وكان
لذلك أثره في استبقاء الفنين معاً بحثاً وتصنيفاً مدة مديدة عند كثير
من العلماء الذين انتضروا للتأليف في كتبهم الخاصة بعد ، فاحتذوا حذو
سيبويه ، ومزجوا بينهما ، واستمر ذلك طويلاً حتى تخطى ابن مالك
من بعده . .

أما الكوفيون فقد ألفوا في بعض أبواب الصرف كتباً خاصة اعتناء بشأنها ، لكن لم تصل تأليفهم إلى حد يجعل الصرف منفرداً عن النحو بالتأليف . صنف الرؤاسي كتاب التصغير ، والكسائي كتاب المصادر ، والقراء كتاب فعل وأفعل ، ومع هذا فإن النحو قد طفق يتخلص من الصرف ، ويستقل الصرف بالتأليف في مستهل الطور الآتي ، على ما سترى .

الثالث طور النضج والكمال

(بصري كوفي)

هذا الطور من عهد أبي عثمان المازني البصري إمام الطبقة السادسة ، ويعقوب بن السكيت الكوفي إمام الرابعة ، إلى آخر عصر المبرد البصري شيخ السابعة ، وثعلب الكوفي شيخ الخامسة .

لقد هيا الطور السالف لهذا الطور الكمال والنضج بفضل ما بذل رجاله من جهد مضمّن كان له الأثر الناجع في تخريج جمهرة من العلماء امتاز بها هذا الطور عن سابقيه في كلا البلدين .

ولقد شمر الجميع عن ساعد الجهد ونزلوا الميدان تسوقهم العصبية البلدية ، وكان حادي عيسهم في البصرة أبا عثمان المازني وأبا عمر صالح الجرمي وأبا محمد التوزي وأبا علي الحرمازي وأبا حاتم السجستاني والرياشي

والمبرد وغيرهم ، وفي الكوفة يعقوب بن السكيت ومحمد بن سعدان وثلعباً والطُّوال وغيرهم ، وكثيراً ما جمعت الفريقين بغداد بين حين وآخر على تعصب كل مذهبه وانتقال هذا التعصب لمن يشايعهما ، فكانت مناظرات وإفحامات تقض المضاجع وتمز في النفوس ، حتى تلاقيا أخيراً وتوطنا بغداد على ضغن في القلوب أذهبه تعاقب الأيام وانقراض المتنافسين شيئاً فشيئاً .

كل ذلك دعاهم إلى الانهماك والنشاط . فأكملوا ما فات السابقين ، وشرحوا مجمل كلامهم ، واختصروا ما ينبغي . وبسطوا ما يستحق ، وهدّبوا التعريفات ، وأكملوا وضع الاصطلاحات ، ولم يدعوا شيئاً منه إلا نظروه ، ولا أمراً من غيره إلا فصلوه ، بحاصل النحو من الصرف الذي بقي وحده متمسكاً به في التأليف إلى أول هذا الطور .

وأول من سلك هذا السبيل المازني ، فقد ألف في الصرف وحده ، وشق ذلك الطريق لمن بعده ، ومن هذا الحين تشعبت مسالك التأليف في العلوم العربية . فمن مؤلف في النحو وحده ، ومن مصنف في الصرف وحده . ومن خالط بينهما ، وقد رعى العهد القديم المبرد في كتابه الكامل الذي جمع فيه من كل دوحة ذمناً ، فبينما يسبح في الأخبار إذا هو يوافيك بالتحقيق اللغوي ، ثم إذا هو يباغتك بالإشكالات الغريبة في النحو والتحقيقات الممتعة في الصرف ، ولا تكاد تنتهي منها حتى يطل عليك بالأدب الطريف ، إلا أن ذلك النهج قليل تلاق

ما كثر من مؤلفات مستقلة بالفروع العربية بعد تمييزها ، وكان أكثرها مصنفات فن النحو الذي قد تحولت لهجات التصنيف فيه عن ذي قبل بما وضع فيها من العبارات التأليفية والمصطلحات النحوية التي بقيت خالدة في كتب النحاة إلى يومنا هذا ، وإنا لنرى ذلك واضحاً عند الموازنة بين كتاب سيبويه ومخلفات هذا الطور .

لم ينسلخ هذا الطور حتى فاضت دراساته في المادتين الثلاث (البصرة والكوفة وبغداد) وما يضافها ، واغترف الجميع من منهلها ، وبذلوا الجهود الجبارة في استكمالها والإحاطة بجميع قراءتها - وكان لهم ما أرادوا - فاستوى النحو قائماً على قدميه ، وشلت حركته . إرزة للجميع ، وامتازت شخصيته ، وأوفى على الغاية التي ليس وراءها نهاية لمستزيد ولا مرتقى لذي هممة ، فتمت أصوله ، وانتهى الاجتهاد فيه بين النريقيين على يدي الإمامين : المبرد خاتم البصريين وثلعب خاتم الكوفيين . روى ياقوت : « قال لي أبو عمر الزاهد : سألت أبا بكر بن السراج ، فقلت : أي الرجلين أعلم أثعلب أم المبرد ؟ فقال : ما أقول في رجلين العالمين بينهما ؟ » (١) . وكان بين الإمامين ما بين المتعاصرين من الإحسان والأضغان ، ولكل منهما شيعته وأنصاره ، والعيون لهما رامة ، فكانت المناظرات بينهما دائبة ، والغلب بينهما سجالات ، ورحمة الله على الجميع .

كانت نهاية هذا الطور الثالث (طور النضج والكمال) في

(١) راجع معجم الأدباء ، ترجمة ثعلب - ه . طبعة دار المأمون .

أخريات القرن الثالث الهجري ، بعد أن توافد الفريقان على بغداد
أرسالا ، وهجرا المصريين عندما كثرت فيهما الاضطرابات . وتوالت
المحن من الزُّط والقرامطة والزُّوج ، وعدا عليهما حدثان الدهر بعد أن
أبليا في سبيل هذا العلم بلاء حسناً خلده لهذا الدهر في صحائفه ،
ومع ذلك ظلت الحزبية قائمة إلا أنها آخذة في الاضمحلال . فإن
توحيد الوطن بينهما ، واتصالهما بالخلفاء والأمراء والشعب البغدادي ،
عاملان على تقويض دعائم الخلاف بينهما .

وإنه لما يحمل بنا هنا أن نذكر كلمة مرجزة تتعلق بالطورين
الآخرين (الثاني والثالث) نعرض فيها بعض المناظرات والمجاسات
النحوية التي جرت بين البلدين . فإنها حدثت فيهما فكانت سبباً في
آثارها المترتبة عليها .

كلمة في مناظرات الطورين (الثاني والثالث)

إن المتتبع لتراجم رجال الطورين بين البلدين يرى أن كل واحد
منهم قد نخب فيها ووضع ، وأن المشادة بين الفريقين ما فترت حبناً .
إذ كانت تثيرها الرغبة في الوصول إلى الحقائق . والاعتزاز بالنفس ،
والعصبية للبلد والنمط العلمي . والطمع في نائل الخلفاء والأمراء الذين
ساهموا بنمسط قيم فيها ، وكان أغلبها على أيديهم أو على كُتب منهم .
وحكموا في كثير منها ، فنصروا ونخلوا ورفعوا وخفضوا . كان لذلك
نشأة النحر

كله أثره في زج العلماء بأنفسهم في هذه المعمة التي كان يأمل كل واحد فيها أن يكون المجلى ، لأن هذا العلم كان حينذاك لما ينضح في أغلب مسأله ، ولم يتخذ شكلا ولا صورة ثابتة يقف أمامها كل رائد مكتوف اليد ، بل كان يبدو لكل ما لا يلمحه الآخر ، وحجة هذا تناهض دليل ذلك ، لاختلاف الروايات وتفاوت المسموعات وتنوع العصبية ، ولقد تطاير شررها من الخارج إلى الداخل ، فكانت مناظرات بين البصريين أنفسهم والكوفيين أنفسهم .

إن المناظرات تصير حيث يصير العلم وحيث يصير العلماء ، فحب الغلبة جباى في الإنسان في مظاهر الحياة المختلفة ، فكيف العلم الذي هو أنبل الغايات وأسمى المقاصد ؟ نعم إذا كان مبعث المناظرات محض العلم فحبذا الغرض والمطلب ، لكنها فيما نحن فيه قد شجيت بالعصبية فكانت حرباً ضرراً غير أنها محمودة المغبة على كل حال لما تسفر عنه من نتائج القرائح المكنونة ، فما نعمت اللغة وغنيت إلا من هذا السجال العلمي و « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

من مناظرات الطور الثاني

إن مناظرات الطور الثاني — على كثرتها — كان قطب رحاها في الكوفيين الكسائي إذ كان دريشتهم وحامى حقيقتهم ، فنازل الأصبمى وسيبويه واليزيدى وغيرهم ، ولتقتصر في هذا الطور على ثلاث منها .

بين الكسائي والأصمعي .

روى الزجاجي في أماليه : « كان الكسائي والأصمعي بحضره الرشيد ، وكانا ملازمين له ، يقيمان بإقامته ويظعنان بظاعنه ، فأنشد الكسائي :

أَنْتَى جَزَوَا عَامِرًا سُوءَى بِفَعْلِهِمْ أَمْ كَيْفَ يَجْزُونَنِي السُّوءَى مِنَ الْحَسَنِ ؟
أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ مَا تَعْطَى الْعَاوِقُ بِهِ رُثْمَانُ أَنْفٍ إِذَا مَا ضُنَّ بِاللِّبَنِ ؟
فَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : إِنَّمَا هُوَ رُثْمَانُ أَنْفٍ بِالنَّصَبِ ، فَقَالَ لَهُ الْكَسَائِيُّ :
اسْكُتْ ، مَا أَنْتَ وَذَاكَ ؟ يَجُوزُ بِالرَّفْعِ وَالنَّصَبِ وَالْخَفْضِ ، أَمَّا الرَّفْعُ
فَعَلَى الرَّدِّ عَلَى مَا ، لِأَنَّهَا فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بَيْنَفْعٍ ، فَيَصِيرُ التَّقْدِيرُ أَمْ كَيْفَ
يَنْفَعُ رُثْمَانُ أَنْفٍ ، وَالنَّصَبُ بِتَعْطَى . وَالْخَفْضُ عَلَى الرَّدِّ عَلَى الْهَاءِ فِي
بِهِ ، قَالَ : فَسَكَتَ الْأَصْمَعِيُّ » (١) .

(١) راجع أمالي الزجاجي ، والمناظرة مذكورة أيضاً في أمالي ابن الشجري ، المجلس السادس ، ومعجم الأدباء ترجمة الكسائي ، والمغنى الباب الأول حرف أم ، وخزانة الأدب . شاهد ٩٠٦ ، والعلوق الناقة التي ترام البو ، وهو جلد الحوار يحشى ثبناً أو ثماماً ويقدم لها إيهاماً أنه ولدها عند فقده ثم لاتدر اللبن ، والرثمان مصدر لرثم كسبح سماعي ، أوضافه إلى الأنف لأنه مظهر حنوها ، والمعنى إني لأعجب من قومي كيف ياملون بني عامر ابن صعصعة بالشرف في مقابلة الحر ؟ وأعجب من ذلك مكافأتهم لي وأنا أدفع عنهم ، وماذا يبيني من وعودهم اللسانية مع انطوائهم على حرمانني ، وما حالهم معي إلا كهذه الناقة التي تطعف على البو بأدنها على حين ينكره قلبها فلا ترسل درها ، واليبسان من قصيدة لأفنون التغلبي شاعر جاهلي ، وهي من قصائد المفضليات ، وبيت المناظرة من شواهد النحاة على أم ، راجع شرح المفصل ، وشرح الرضي على الكافية والمغنى .

بين الكسائي وسيبويه

طمحت نفس سيبويه إلى الشخصوص إلى بغداد أملا في الحظوة
عند الخلفاء والأمراء ، فارتحل إليها وهو لا يدري ما خبأه الغيب له ،
فرب ساع لحفته ، وحق ما قال خليفة بن براز الجاهلي :

والمرء قد يرجو الرجا ء مؤملا والموت دونه (١)

ونزل ضيفاً عند يحيى بن خالد البرمكي وزير هرون الرشيد ، فاعتزم
يحيى الجمع بينه وبين الكسائي ، بعد أن عرّف الرشيد جليلة الأمر ،
وعين لذلك يوماً في دار الرشيد ، فحضر سيبويه أولاً ، وتلاقى مع الفراء
والأحمر تلميذ الكسائي ، فسألاه وخطأه في الإجابة وأغلظا له في
القول . ويطول بنا الكلام ونخرج عن المقصود لو عرضنا لهذه الأسئلة
وما أجيب به عنها ، وكل ذلك معروف في كتب النحو المبسوطة ، فقال
لهما : لست أكلمكما حتى يحضر صاحبكما ، يعني شيخهما الكسائي .

جاء الكسائي وغصت الدار بالحضور على مشهد من يحيى وابنه
جعفر ، ثم بدأ الكسائي الحديث وقال لسيبويه : تسألني أو أسألك ؟
فقال سيبويه : سل أنت ، فقال له : هل يقال كنت أظن أن العقرب
أشدّ لسعة من الزنبور فإذا هو هي أو يقال مع ذلك فإذا هو إياها ؟

(١) ثاني بيتين نسبهما القاسم بن سلام له في كتاب الأمثال ، راجع خزانة الأدب

فقال سيبويه : فإذا هو هي ولا يجوز النصب ، فسأله عن أمثال ذلك نحو خرجت فإذا عبد الله القائمُ أو القائمَ ، فقال : كله بالرفع ، فقال الكسائي : العرب ترفع ذلك وتنصبه ، واحتدم الخلاف بينهما طويلاً ، فقال يحيى : قد اختلفتا وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ فقال الكسائي : هؤلاء العرب ببابك وفدوا عليك من كل صقع ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، يحضرون ويسألون ، فقال يحيى : قد أنصفت ، واستدعاهم فتابعوا الكسائي ، فأقبل الكسائي على سيبويه وقال له : قد تسمع أيها الرجل ، فاستكان سيبويه عند ذلك وانقبض خاطره ، فقال الكسائي ليحيى : أصلح الله الوزير . إنه قدم إليك راغباً فإن أردت ألا ترده خائباً . فرق له يحيى وجبر كسره ، فخرج من بغداد وتوجه تلقاء فارس يتواري من الناس من سوء ما لحقه ، ولم يقدر أن يعود إلى البصرة ، وقد كان إمامها غير منازع ، فمات غمماً بفارس في ريعان شبابه ، وقال قرب احتضاره متمثلاً :

يؤمل دنيساً لتبقى له فوافى المنية دون الأمل

حشياً يُروى أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل^(١)

وقد رويت هذه المناظرة على صور مختلفة . ويرى جمهور العلماء أن إصبع السياسة لعبت دوراً كبيراً في هذه الحادثة الخطيرة ، لأنها حكم

(١) حشياً : مسرعاً ، والفسيل النخل الصغير يقطع من أمه فيغرس ، واحدته فسيلة .

بين البلدين لا بين الرجلين ، وما وافق العرب الكسائي إلا لعلمهم أنه ذو حظوة عند الرشيد وحاشيته ، وهم على يقين أن الحق مع سيبويه ، على أنه روى أنهم قالوا : القول قول الكسائي ، بإيعاز رجال الدولة ، ولم ينطقوا بالنصب إذ لا تطاوعهم ألسنتهم ، ولذا طلب سيبويه أمرهم بالنطق بها لكنه لم يستمع له . قال الروداني : « والذي لا ينبغي أن يشك فيه أن ذلك إذا ترك العربي وسليقته ، أما لو أراد النطق بالخطأ أو بلغة غيره فلا يشك في أنه لا يعجز عن ذلك ، وقد تكلمت العرب بلغة الحبش والفرس واللغة العبرانية وغيرها ، وأبو الأسود عربي وقد حكى قول ابنته لأمير المؤمنين علي : ما أشد الحر بالرفع . فقول سيبويه في قصته مع الكسائي في مسألة كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي : مرهم أن ينطقوا بذلك ، لا بد من تأويله ، كأن يقال المراد من لم يسمع مقالة انكسائي ولم يدر القصة أو نحو ذلك مما يقتضي نطقهم على سليقتهم الذي هو المعيار»^(١) .

وبعد فإن الحق مع سيبويه ، والقرآن الكريم أصدق شاهد له ، يقول الله تعالى : (فإذا هي بيضاء للناظرين) ، وعلى نمط هذه الآية آي كثيرة ، ولو ثبت النصب لكان خارجاً عن القياس واستعمال الفصحاء ، ولذا تمحل النحويون في تخريج هذا النصب على أوجه ثم تعقبوها ، ذكر بعضها الرضي في شرح الكافية باب الظروف ، وأفاض القول فيها الأعلام

(١) العبدان على الأسموفى في الكلام على ما العاملة عمل ليس .

الشتيمرى ، ونقل كلامه المقرئ فى نفح الطيب فى فصل برأسه فى الجزء الثانى عنوانه « المسألة الزنبورية » ، وأجاد التفصيل لها ابن هشام فى المغنى الباب الأول مبحث « إذا » ، فذكر أوجه خمسة مع التعقيب على كل وجه بما يفنده ، وخلاصة هذه الأوجه : الأول أن الظرف وهو إذا نصب الضمير لأن فيه معنى وجدت ، والثانى أن الضمير المنصوب استعير من مكان ضمير الرفع ، والثالث أن الضمير مفعول به ، والأصل فإذا هو يساويها ، ثم حذف الفعل فانفصل الضمير ، والرابع أن الضمير مفعول مطلق ، والأصل فإذا هو يلسع لسعتها ، ثم حذف الفعل والمضاف ، والخامس أن الضمير منصوب على الحال من الضمير فى الخبر المحذوف ، والأصل فإذا هو ثابت مثلها ، ثم حذف المضاف فانفصل الضمير ، وقد جمع هذه الأوجه الخمسة مع الاختصار أحمد بن الحسن الجوهري المتوفى سنة ١١٨٢هـ فى هذا النظم :

وفى ضمير نصب تالياً إذا تعدد التوجيه فادر المأخذا
مفعولها أو نائب المرفوع أو نصبه بفعله المقطوع
أو أنه مفعول فعل مطلقاً أو معرب حالاً أنيب فارتقى^(١)

ولخطورة هذه المناظرة نوّهت عنها أغلب كتب الأدب والتراجم والتاريخ ، فقد ذكرت فى أمالى الزجاجى ، كما ذكرت فى ترجمة سيبويه

(١) الأبيات فى الإنبان على الصبان ، و ترجمة الجوهري فى الجبرق .

في طبقات الزبيدي والفهرست ونزهة الألبا ووفيات الأعيان ومعجم الأدباء وإنباه الرواة ، غير أنها ذكرت مرة أخرى في معجم الأدباء ترجمة الكسائي ، وقد نوه عنها حازم الأنصاري القرطاجني في منظومته النحوية المشهورة معترفاً لسيبويه بالحق ومننداً بغلبة الكسائي بدون نصفه وعدالة ، وعرض لها السيوطي في الأشباه والنظائر أول الفن السابع (فن المناظرات والمجالات إلخ) .

ولئن ظفر الكسائي بسيبويه في هذه المناظرة ظلماً لقد ثر له منه على يد اليزيدي في المناظرة الآتية التي اندحر فيها الكسائي :

بين الكسائي واليزيدي

قال العسكري : « اجتمع الكسائي واليزيدي عند الرشيد ، فجرت بينهما مسائل كثيرة ، فقال له اليزيدي : أتمييز هذين البيتين ؟ :

ما رأينا خرباً نقدر عنه البيض صقراً
لا يكون العير مهراً لا يكون المهر مهر

فقال الكسائي : يجوز على الإقواء ، وحقه لا يكون المهر مهراً ، فقال له اليزيدي : فانظر جيداً ، فنظر ثم أعاد القول ، فقال اليزيدي لا يكون المهر مهراً محال في الإعراب ، والبيتان جيدان ، وإنما ابتداء فقال المهر مهر . وضرب بقلنسوته الأرض ، وقال : أنا أبو محمد ،

فقال له يحيى بن خالد : خطأ الكسائي مع حسن أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء أدبك ، أتكتنى قدام أمير المؤمنين وتكشف رأسك ؟ فقال : إن حلاوة الظفر وعز الغلبة أذهبا عني التحفظ^(١) .
وينبغي للكسائي أن يعبر بالإصراف لا الإقواء بحسب اصطلاح العروضيين .

من مناظرات الطور الثالث

وهن أشهر المناظرات فيه مناظرات المبرد وثعلب . ولنكتف بواحدة منها .

بين المبرد وثعلب

اختلف المبرد وثعلب بحضرة الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر ابن الحسين — الذي كان ينفق معظم وقته في البحوث العلمية ، وكان يهوى المناظرات ، فكثرت ما جمع لها بين علماء الفريقين : البصري والكوفي — في قول امرئ القيس :

(١) راجع كتاب التصحيف والتحريف ما وهم فيه الكسائي ، وذكرت هذه المناظرة أيضاً في معجم الأدباء ترجمة الكسائي ، وفي الوفيات ترجمة اليزيدي ، وفي شرح درة النواص الوهم ٣٥ ، والحرب ذكر الحباري ، ونقر : نقب البيض لخروج الفرخ . والشرط الأول من البيت الثاني تمثيل للإيضاح ، و (لا يكون) في أول الشرط الثاني تأكيد لفظي وما بعدها تأكيد معنوي .

لهما متنتان خطاتا كما أكب على ساعديه النمر^(١)

فقال ثعلب : إنه خطتا كما يقال غزتا إلا أنه رد الألف التي كانت ساقطة في الواحد لتاء التأنيث الساكنة لما تحركت التاء لأجل ألف التثنية ، ومسوخ ذلك ضرورة النظم ، وقال المبرد : إنه خطاتان فحذف نون المثني للإضافة إلى « كما » ، فثعلب يرى أن الكلمة فعل وأن الألف الثانية فيها اسم . والمبرد يخالفه في الأمرين ، فالكلمة اسم والألف الثانية حرف علامة المثني ، أما الألف الأولى عندهما فهي لام الكلمة سواء أكانت فعلا كما يرى ثعلب أم اسماً كما يرى المبرد . ولما طال تلاحيهما بحضرة الأمير قال ثعلب للأمير : أصبح أن يقال : مررت بالزيدين ظريفي عمرو ؟ فيضاف نعت الشيء إلى غيره فقال : لا والله ما يقال هذا . ثم التفت إلى المبرد فأمسك ولم يقل شيئاً ثم قام من المجلس مقهوراً .

قال ياقوت : « لا أدري لم لا يجوز هذا ؟ وما أظن أحداً ينكر قول القائل : رأيت الفرسين مركوبين زيد ، ولا الغلامين عبدى عمرو ، ولا الثوبين دراعتي عمرو . ومثله مررت بالزيدين ظريفي عمرو . »

(١) المتنتان : في القاموس . تننا الظهر مكتنفا الصلب ، وخطاتا إن كانت فعلا فالفعل من باب سما وفي القاموس خطا لحمه اكتنز ، وإن كانت اسماً مثني فالمفرد خطاة ، وفي الصحاح لحم خطاة بظاة مكتنز ، وقوله كما أكب على ساعديه النمر يريد لها متنتان كساعدي النمر المبارك في صلابتهما . والميت في وصف فرسه من قصيدة طويلة .

فيكون مضافاً إلى عمرو ، وهو صفة لزيد ، وهذا ظاهر لكل متأمل» ^(١) .
وقال القفطى : « قال البصريون والقرول ما قاله المبرد ، وإنما ترك
الجواب أدباً مع محمد بن عبد الله بن طاهر لما تعجل اليمين وحلف :
لا يقال هذا » ^(٢) .

ومع استظهار ياقوت له ونقل القفطى موافقة البصريين له ، فالنفس
لا تستريح إليه . نعم لا نكران في صحة الأمثلة المنظر بها من ياقوت
لكنها ليست مما يجوز التنظير بها لأنها من قبيل الأبدال لا النعوت فلا
تشفع في صحة دعوى المبرد . ولهذا قال البغدادى : « وأقول هذه
الأمثلة كلها أبدال لا نعوت لعدم الربط » .

ومن العجب الذى يسترعى النظر أن هذا البيت نفسه قد وقع فيه
الخلاف سابقاً قبل المبرد وثعلب على هذا النحو بين الكسائى والفراء ،
وكان رأى الكسائى فيه ما قال ثعلب في المناظرة ، ورأى الفراء فيه ما قال
المبرد فيها ، غير أن الفراء عدّ حذف النون في المثنى لضرورة النظم لا
للإضافة كما قال المبرد ، وعلى هذا ففى توجيه البيت أقوال ثلاثة ،
وتخريج الفراء مقبول وإن لزمته ضرورة حذف النون فإن مقابله وهو
تخريج الكسائى قد لزمه ضرورة عود لام الفعل ، فقد تساوى الرأيان
والتكافؤ بينهما قائم ، وقد عرض لهما فى البيت ابن يعيش فى شرح

(١) راجع معجم الأدباء ترجمة ثعلب .

(٢) إنباء الرواة ترجمة ثعلب .

المفصل قسم الحروف مبحث « تاء التأنيث الساكنة » وابن هشام في المغنى الباب الأول مبحث « كل » ، وقد استشهد بالبيت الرضى في شرح الشافية مبحث التقاء الساكنين على نمط رأى الكسائى ، وكتب على البيت شارح شواهد البغدادى فأوفاه حقه ونقل كل ما قيل فيه من خلاف بين الكسائى والفراء ومن مناظرة بين المبرد وثعلب مع الإسهاب المفيد في الشاهد الثالث والثمانين . وموطن العبرة في هذا المقام أن بيتاً يحدث فيه خلاف بين السابقين مشهور متعالم تتناقله الكتب أخيراً ، ثم تجد في البيت نفسه بعدئذ مناظرة يتحقق فيها أحد المتناظرين وتتناقلها كتب أخرى ، وبعدئذ يدع العلماء المسألة على أذلالها بدون تمحيص فيها يتبين منه جليلة الأمر ، ومن ثم ترى انفساح الميدان للأقاويل والخلافات ، وربما لو تكشفت الحقائق الأولى بصورة واحدة وتناولها كل من تناولها وهى هى بدون نقص أو زيادة أو تحريف ، وتكشفت مع هذا أيضاً آراء العلماء بعضهم لبعض لتغير مجرى العلم في كثير من المسائل ، وإنك لتأخذ من ذلك مثلاً من الأمثال في عدم الوقوف على حقائق المسائل ، إذ ليس في وسع كل كاتب ومؤلف أن تكون كل الرغائب في مكنة يده وتحت بصره ، فللكاتب بعدئذ العذر فيما يكتب أو يملأ إذ يعتمد على معيار تفكيره ومنطقه ، وعلى كل حال جزى الله السابقين عن أهل العلم خير الجزاء .

هذا ، ويقرب من المناظرات شأناً وإن غيرها اتجاهاً ما يعرف

المؤرخين بالمجالسات ، ولقد كان يجري فيها التساؤل فيما دق من
مائل عرضاً ، ولذا حرص على تدوينها المتأدبون ، بل كتبت فيها أسفار
صحة كمجالس أبي مسلم ومجالس ثعلب ، ولتذكر واحداً منها مما جرى
هذا الطور كضرب مثل .

لسنة الرياشي وثلعب

قال ياقوت : « قال أبو العباس ثعلب : كنت أسير إلى الرياشي
سمع منه ، وكان نقي العلم ، فقال لي يوماً وقد قرئ عليه :

ما تنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث سنّي

لمثل هذا والمدني أمي

كيف تقول بازلُ أو بازلَ ؟ فقلت : أتقول هذا في العربية إنما
صمدك لغير هذا ، يروي بازلُ أو بازلَ أو بازلٍ : الرفع على الاستئناف ،
لخفض على الإتياع ، والنصب على الحال فاستحيا وأمسك » (١) .

(١) معجم الأدباء ترجمة ثعلب ، العوان من الحروب التي قوتل فيها مرة ، والبازل
حم فاعل من بزل البعير إذا طلع نابه وذلك في تاسع سنه لأنه إذا دخل في العاشرة سمي مخلفاً
يسمى له بعد الإخلاف اسم ، ولكن يقال بازل عام أو عامين ومخلف عام أو عامين ،
يعطى البازل أيضاً على الرجل الكامل في تجربته وعليه فلا تشبيه في البيت ، والشعر لأبي جهل
له يوم بدر أو تمثل به وكان مغروراً مأفوناً أكذبه الله إذ كان في هذه الموقعة هلاكه ،
لا بيتات مذكورة في الكامل شرح الرغبة ج ٦ ص ٢٢٧ .

وقد نقل هذه المجالسة ابن هشام في المغنى الباب الأول مبحث «أم». ثم استشهد ثانياً بهذه الأبيات في الباب الثامن القاعدة الأولى «إعطاء الشيء حكم ما أشبهه في اللفظ» على إعطاء الحرف حكم مقاربه في المخرج حتى يقعا رويين كما في الأبيات ، كما نقل هذه المجالسة السيوطي في الأشباه والنظائر الفن السابع فن المناظرات والمجالسات إلخ . . ولايضاح هذا الإعراب أن الرفع على أنه خبر أنا محذوفة والجملة مستأنفة ، والخفض على البدلية من ياء المتكلم بدل كل من كل إلا أنه يرد على هذا أن بدل الظاهر من ضمير المتكلم لا يكون إلا حيث تكون الإحاطة والشمول . نعم إذا جرينا على مذهب الأخفش المبيح للبدلية بدون شرط فلا بأس ، والنصب على أنه حال من ياء المتكلم . وبحسبنا هذا المقدار من المناظرات والمجالس ، ومن أراد أن يتزيد فعليه الرجوع إلى الأشباه والنظائر (الفن السابع فن المناظرات والمجالسات والمذاكرات والمراجعات والمحاورات والفتاوى والواقعات والمكاتبات والمراسلات).
بقي علينا أن نعود إلى المقصود بالذات ، فنتكلم على ما يتعلق بمشاهير البصريين والكوفيين في طبقاتهما وأسباب الخلاف بين الفريقين وتغير اتجاهيهما ، وحكمة تخصص كل منهما باتجاهه ، ونتائج هذه الفروق ، والموازنة بين المذهبين ، فإن ذلك متصل بالأطوار الماضية .

مشاهير البصريين والكوفيين

جدير بمن يريد أن يفقه النحو على الوجه المرضي أن يتعرف تاريخ النحاة القدامى ، ويقف على طبقاتهم التي انضوا إليها وترتيب هذه الطبقات بحسب الزمن منذ تدوينه إلى منتهى الاجتهاد فيه ، وهذا لو استكمل نفسه بمعرفة المتأخرين ، إذ بذلك كله تنكشف له تطورات هذا الفن ، ويقر في نفسه صحة انتساب القول لقائله ، ويدرك وجهة الرد عليه ويتفهم حكمة الموافقة له وعلة مخالفته ، حتى لكأنه معهم يستمع بنفسه ويرحل من بلد إلى آخر معهم .

ولا جرم أن المعلومات إذا ارتبطت بمعرفة مصادرها رجالاً وزماناً ومكاناً تلتفتها العقول بالقبول ورسخت في الحواظ ، إذ نفذت إليها من سبيلها المنير ، فلا تختلط مسائله ، ولا تضطرب الآراء فيه على الطالب حتى يكون كضال في مهمه مشتبه الأعلام مغبر الأرجاء ، قال أبو الطيب بعد كلام طويل أنحى فيه باللائمة على من يجهل الرجال وترتيبهم وسرد كثيراً من الأمثلة في ذلك ما نصه : « ولقد بلغني عن بعض من يختص بهذا العلم ويرويه ، ويزعم أنه يتقنه ويدريه ، أنه أسند شيئاً فقال عن الفراء عن المازني ، فظن أن الفراء الذي هو بإزاء الأخفش كان يروي عن المازني ، وحُدثتُ عن آخر أنه روى مناظرة

جرت بين ابن الأعرابي والأصمعي ، وهما ما اجتماعاً قط ، وابن الأعرابي
 بإزاء غلمان الأصمعي ، وإنما كان يرد عليه بعده ، وحرى بمن عني
 عن معرفة قوم أن يكون عن علومهم أعمى وأضل سبيلاً ^(١) .

لهذا سنذكر علماء البصرة والكوفة ، فإن هذا العلم إنما نشأ ونما وازدهر
 فيهما دون غيرهما من سائر الأمصار الإسلامية ، فلم يكن بالحجاز
 ولا الشام شيء يذكر من النحو واللغة بجانب ما في العراق . أما الحجاز
 فإن بني أمية قد أغدقوا على أهل المدينة ومكة العطايا المتدفقة من خزائن
 الشام خشية قيام من بهما من الهاشميين وأبناء الصحابة بالمطالبة
 بالخلافة ، ووسعوهم بالحلم حتى أدخلوا إلى التمتع بلذائد الدنيا ،
 ونبغ فيهم المغنون وأهل القصص ، وصدفوا عن النظر إلى هذا العلم ،
 واستمر ذلك دأبهم حتى في خلافة العباسيين . وأما الشام فإن دمشق
 صارت دار الخلافة والملك ، وقد عرفت آنفاً أن وضع هذا العلم في
 البصرة ، ونشوءه في البصرة والكوفة ، قال أبو الطيب : « ولا علم
 للعرب إلا في هاتين المدينتين ، فأما مدينة الرسول فلا نعلم بها إماماً في
 العربية ، قال الأصمعي : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة
 واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة ، وكان بها ابن دأب يضع
 الشعر وأحاديث السمر وكلاماً ينسبه إلى العرب ، فسقط وذهب علمه
 وخفيت روايته (وهو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب الكناني يكنى

(١) مراتب النعمانيين ، ونقل في المزهراًول النوع الرابع والأربعين .

أبا الوليد وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر وممن كان بالمدينة أيضاً على الملقب بالجمل وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً ، وأما مكة فكان بها رجل من الموالي يقال له ابن قسطنطين شدا شيئاً من النحو ووضع كتاباً لا يساوى شيئاً « (١) .

وفي الحق أن العراق ، وبه البصرة والكوفة ، يجب أن يتقدم البلاد الإسلامية في هذا العلم ، إذ كان قبل الفتح الإسلامي موطن العجم ، وبعده قد انتال عليه المسلمون من كل صوب لأنه أنصب البلاد الإسلامية وأنصرها في الصدر الأول ، تضامنت فيه أسباب رفاهية الحياة ورغد العيش ، فاستوطنه العرب والعجم ، ونعموا جميعاً بخيراته الوفيرة ، فظهرت أرزاء اللحن فاشية فيه ظهوراً لا مثيل له في سائر البلاد مما تقاضى أهل العلم والمعرفة أن يتلافوا الأمر قبل تفاقمه .

يضم إلى هذا أن العراقيين ذوو عهد قديم بالعلوم والتأليف ، ولهم خبرة فيهما متوارثة تليدة ، وفيهم شغف وميل إلى تعرف الوسائل التي تقوم أود لسانهم وتنقلهم إلى مصاف إخوانهم العرب ، فمن هذا وذاك نبئت نابتة هذا الفن في العراق وترعرعت فيه ، إذ ما كان على أهله بعد هذا الاقتضاء إلا أن يطبقوا قواعد هذا الفن الحديثة على منوال ما نسجوا عليه قديماً في تعاليمهم ، وينهجوا فيها على غرار ما ألفوه في نظمهم ، وتلك خطة مستطاعة .

(١) مراتب النحويين ، ونقل في المزهرة ، وترجمة ابن دأب في معجم الأدباء .
نشأة النحو

وإننا حين نريد الحديث عن رجال هذا العلم في العراق إنما نريد بالعراق البصرة والكوفة لا بغداد ، لأنهما قد تأسستا في فجر الإسلام فكان بهما مولد النحو ومهدده ومدرجه ، أما بغداد فإن تخطيطها في صدر الدولة العباسية التي اتخذتها مقر خلافتها ، كما اتخذت الدولة الأموية دمشق مقر خلافتها ، ففتبأت بغداد مكانة دمشق ، وصارت مدينة الخلافة والملك كما كانت سالفها دمشق ، فلم يتقدم ببغداد الزمن حتى تشاطر أختها : البصرة والكوفة مزاوله هذا العلم ، قال أبو الطيب : « وأما بغداد فمدينة ملك وليست بمدينة علم ، وما فيها من العلم فنقول إليها ومجاوب للخلفاء وأتباعهم »^(١) .

وسنبداً بذكر طبقات البصرة قبل الكوفة ، إذ أن البصرة كما عرفت استأثرت بهذا العلم زهاء مائة عام ، ثم تعاصرتا ، فكانت الأولى الكوفية والثالثة البصرية ، وهكذا حتى الخامسة الكوفية والسابعة البصرية اللتين توطنتا بغداد ، ثم كان البغداديون والأندلسيون والمصريون والشاميون . والنظر في تعاقب طبقة لأخرى يرجع إلى الهيئة العامة فيهما ، فربما أخذ واحد أو أكثر من طبقة عن واحد أو أكثر من طبقة سابقة ، لا أن يأخذ كل عن كل ، فالمنظور إليه المجموع لا الجميع ، ولكتّاب التراجم في فريقين البصريين والكوفيين مخالفات في عدد الطبقات نشأ عنها اختلاف في وضع بعض الرجال ببعضها ، ولعل مبعث هذا التلاحق

(١) مراتب النحويين ومنقولة في المزهري ، المبحث الماضي .

الزمنى تقارب المعاصرة بدون حد ظاهر فاصل بين كل طبقة وأخرى ،
على أنه ليس لهذا الاختلاف من أثر . وأول من صنف فى الطبقات
أبو العباس المبرد ، وضع كتابه طبقات النحويين البصريين ، ثم صنف
بعده أبو الطيب اللغوى كتابه مراتب النحويين ، ثم ألف بعده
السيرافى كتابه أخبار النحويين البصريين ، ثم دوّن بعده الزبيدى
كتاب طبقات النحويين واللغويين . ثم صنف بعده الأنبارى كتابه نزّهة
الألبا فى طبقات الأدبا ، ثم ألف القفطى بعده كتابه إنباه الرواة على
أنباه النحاة ، ثم اطرّد التّأليف بعدئذ ، وظهرت كتب لا حاجة لذكرها ،
وقد عولنا على ما اشتهر بينهم فى الطبقات ، كما اقتصرنا على مشاهير
الرجال فى كل طبقة .

ولقد التزمت مع العلماء الذين جرى التعريف بهم فى الكتب النحوية
بلقب أو كنية أن أذكر اسمهم الحقيقى مع ما اشتهروا به من كنية أو
لقب حتى يسهل على الراغب الكشف عما يجب الاطلاع عليه منها
فى كتب التراجم والمعاجم . فإن أغلبها مرتب على حسب الحروف الأبجدية
باعتبار الأسماء أنفسها ، فى حين أن المعروف الشائع على الألسنة هو
هذه الألقاب وتلك الكنى ، وهكذا سأصنع مع جميع العلماء الذين
سأعرض لهم فى هذا الكتاب إن شاء الله .

فكم يلاقى الطالب من النصب واللغوب إذا هو حاول تعرف
قاريخ واحد من هؤلاء وهو لم يقف على اسمه الحقيقى ، فربما ضاع

عليه من الوقت الذهبي آناء كان في فسحة عن إضاعتها ، وكلّ طرفه
وتصدع رأسه وهو ما يزال ينشد ضالته .

وتجد في الصفحة التالية جدولاً فيه طبقات الفريقين ، تتبين منه
إجمالاً أسبقية البصريين ، وانفراد الفريقين بعد الاشتراك ، وأشهر
العلماء منهما .

هذا وإذا كان الفضل لأبي الأسود ، وهو جذع هذه الدوحة الفرعاء
فلنا نبداً به :

أبو الأسود الدؤلي

هو ظالم بن عمرو ، من الدليل : بطن من كنانة ، كان من سادات
التابعين ، ورد البصرة من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولبت
بها إلى أن تولى بعض العمل فيها لابن عباس رضي الله عنه عامل على
كرم الله وجهه أيام خلافته ، ولم يبرحها مع الإيذاء الذي كان يلقاه
من عمال بني أمية وأصهاره الذين كانوا يرحمونهم ليلاً لما عرف عنه من
تشيعه لعلى كرم الله وجهه ، يقول من مقطوعة له في زياد :
رأيت زياداً صدّ عني بوجهه ولم يك مردوداً عن الخير سائله .

ومن مقطوعة أخرى في ابنه عبید الله :

دعاني أميري كي أفوه بحاجتي فقلت فما رد الجواب ولا استمع

أبو الأسود الدؤلي

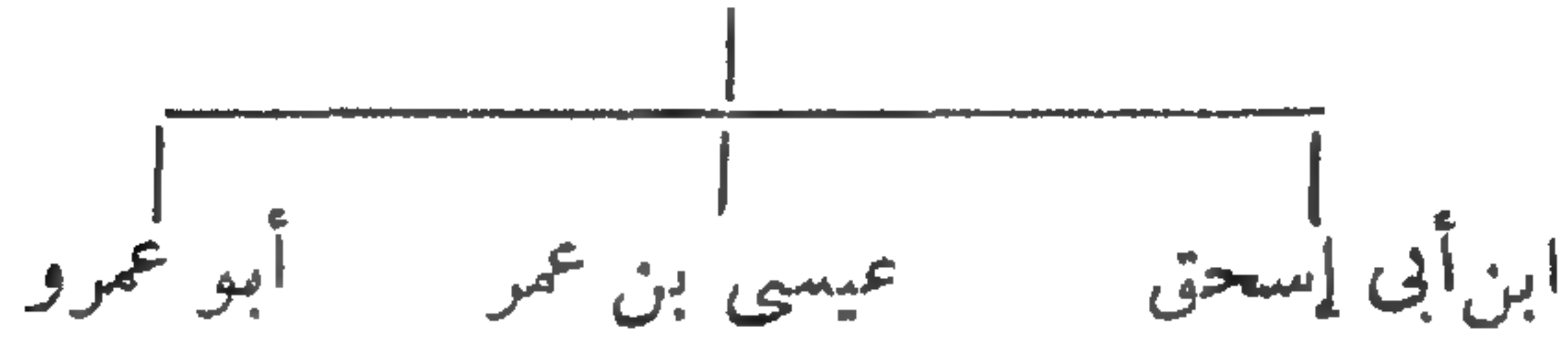
(١)

بصرية

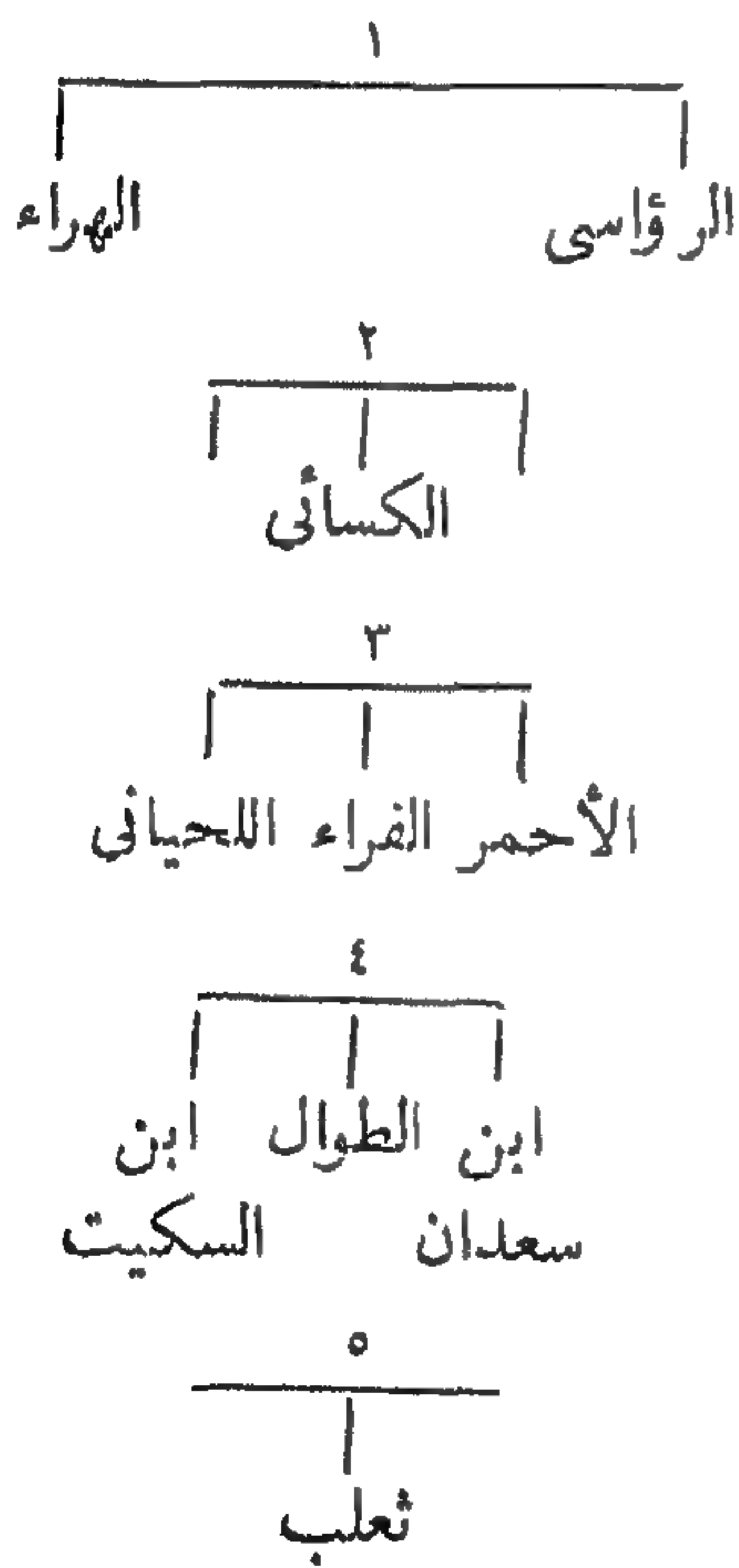


(٢)

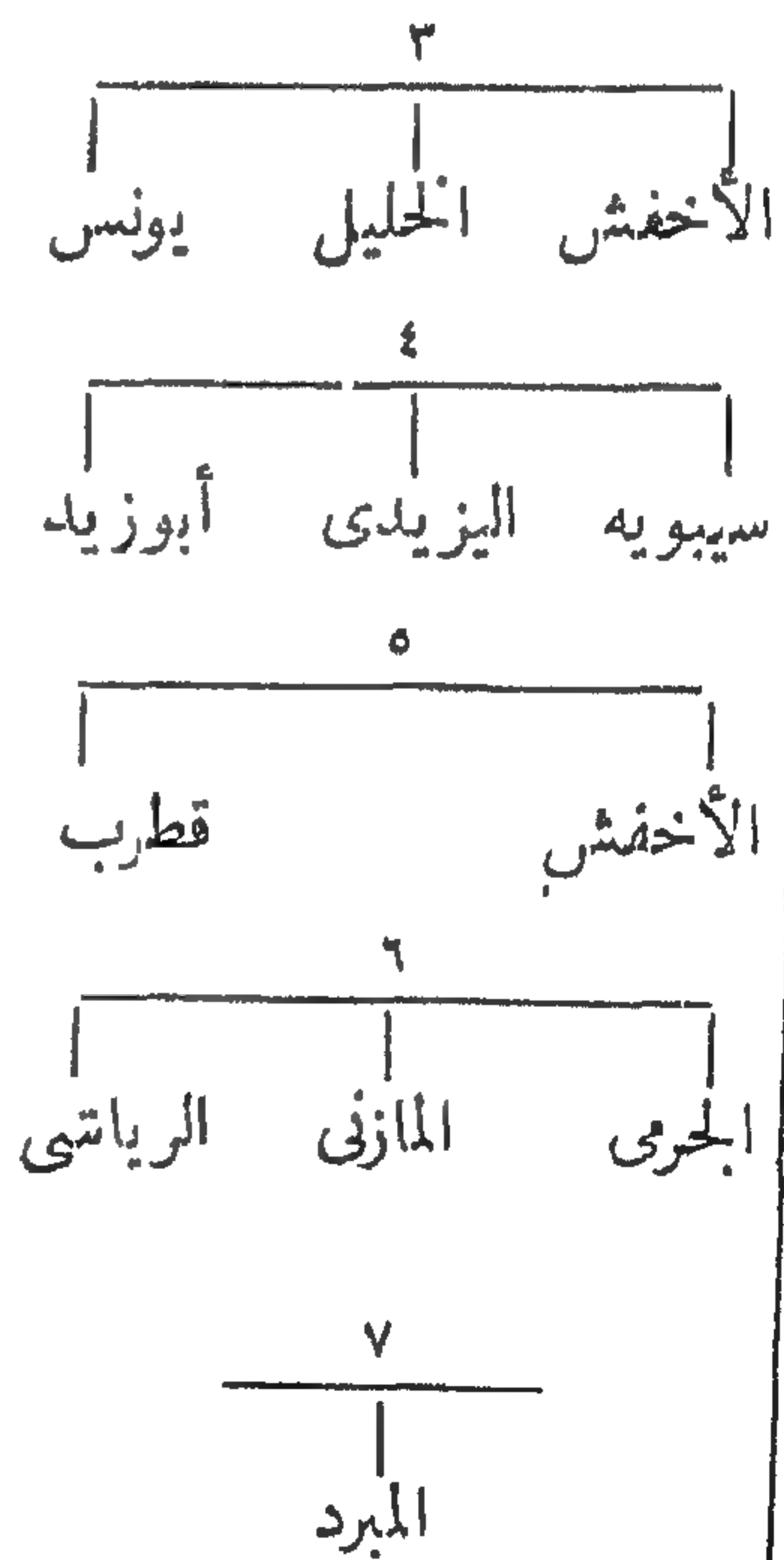
بصرية



كوفية



بصرية



ويقول في مطلع قصيدة له في أصهاره :

يقول الأزدلون بنو قشير طوال الدهر ما تنسى علياً

كان أعلم عصره بكلام العرب ، وله أجوبة مسكتة في أمالي المرتضى ،
المجلس العشرين ، وتقدم أنه واضع النحو على الصحيح بتعليم الإمام علي
كرم الله وجهه ، وأول من دوّن فيه ، كما أنه أول من ضبط المصحف
بالشكل ، وقد أخذ عنه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وغيرهما ، توفي
— رحمه الله — بالبصرة في الطاعون الحارف سنة ٦٩ هـ (١).

(١) ترجمته في جميع المعاجم ، وخزانة الأدب الشاهد الأربعين ، ودائرة المعارف
الإسلامية .

طبقات البصريين

الأولى

- ١ - نصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة ٨٩ هـ .
- ٢ - عنيسة بن معدان الفيل المتهرى . ولقب بالفيل لأن أناه كان يروض فيلا للحجاج فغلب عليه اللقب . ثم انتقل منه إليه . ولم نقف على تاريخ وفاته ، إلا أننا نعرف أنه عاصر الفرزدق . ولعل وفاته كانت حول المائة الأولى من الهجرة .
- ٣ - عباد الرحمن بن هرمز أبو داود الأعرج المتوفى بالإسكندرية سنة ١١٧ هـ .
- ٤ - يحيى بن يغمّر العدواني : أبو سليمان الذي قال له الحجاج الثقفي يوماً : أتسمعني ألحن ؟ قال : في حرف واحد . قال : في أي ؟ قال : في القرآن . قال : ذلك أشنع ، ثم قال له : ما هو ؟ قال : تقول : (قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله) فتقرأ أحب بالرفع ، قال الحجاج : لا جرم أنك لا تسمع لي لحناً بعد هذا ، ثم ألحقه بخراسان ، فولاه يزيد بن المهلب القضاء بها ، كان شيعياً فصيحاً بليغاً يستعمل الغريب في كلامه . توفي سنة ١٢٩ هـ .

وهؤلاء الأربعة ما منهم إلا من عُرِى إليه وضع النحو في بعض الروايات .

وما من شك أن إعجام المصحف بالنقط لدفع التصحيف كان من نصر ويحيى بأمر الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان بعد إعجامة بالشكل لدفع التحريف من أستاذهما أبي الأسود في خلافة معاوية .

الثانية

١ - ابن أبي إسحق

هو أبو بحر عبد الله بن أبي إسحق زيد الحضرمي البصري . اشتهر بكنية والده ، وكان مولى آل الحضرمي ، أخذ عن نصر بن عاصم ويحيى ابن يعمر ، وجدّ في هذا العلم حتى بلغ الغاية فيه ، سئل عنه يونس فقال : هو والنحو سواء ، كان أول من علل النحو ، كما كان شديد التجريد للقياس والعمل به كما سلف ، وعاصره عيسى بن عمر الثقفي ، وأبو عمرو ابن العلاء ، وجمع بينه وبين أبي عمرو بلال بن أبي بردة عامل البصرة من قِبَل خالد القسري والى العراق لهشام بن عبد الملك ، قال ابن سلام : « قال أبو عمرو فغلبني ابن أبي إسحق بالهمز ، فنظرت فيه بعد ذلك وبالغت فيه » ، كان كثير السؤال للفرزدق ، « قال ابن هشام : قد حضر يوماً مجلس عبد الله ، فقال له : كيف تنشد هذا البيت :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألأباب ما تفعل الخمر
فأنشده فعولان ، فقال له عبد الله : ما كان عليك لو قلت فعولين ،
فقال الفرزدق : لو شئت أن أسبِّح لسبَّحت . ونهض ، فلم يعرفوا
مراده ، فقال عبد الله : لو قال : فعولين لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما ،
ولكنه أراد أنهما تفعلان ما تفعل الخمر^(١) . ثم تدرج الأمر بعبد الله
إلى إعنات الفرزدق في شعره نفسه إذ عابه في قوله :

وعضُّ زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلف^(٢)
فقال له : بم رفعت أو مجلف ؟ فقال له : بما يسوءك وينوءك . علينا
أن نقول وعليكم أن تتأولوا . كما عابه في قوله :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منشور

(١) راجع الأشباه والنظائر ، الفن السابع ، فن المناظرات والمجالات إلخ ، والبيت
من قصيدة طويلة لدى الرمة .

(٢) راجع مقدمة الشعر والشعراء ، نقد الشعر ، عض الزمان : شدته . والمسحت :
المستأصل ، والمجلف : الباقي منه بقية ، والإشكال في البيت مبنى على فتح الدال في يدع
ونصب مسحت ، وقد خرج العلماء رفع مجلف حينئذ على أوجه : منها ما قال ابن يعيش
في شرح المفصل باب العلم المنقول ج ١ وباب الإعلال في الواو والياء لامين ج ١٠ :
إنه معطوف على المنصوب بملاحظة المعنى ، إذ كأنه قال بقي مسحت ، ومنها وجهان
آخران ذكرهما الرضوي في شرح الكافية آخر عطف النسق . أما على رواية كسر الدال
في يدع ورفع مسحت كما قال ابن جني في الخصائص (باب القول على الاطراد والشذوذ)
فلا إشكال ، ومعنى يدع حينئذ يسكن ، وقد أحاط بنقل ما تقدم مع التفصيل والزيادة
عدا نسبة القول لابن يعيش البغدادى في الخزانة شاهد ٣٥٧ ، والبيت من قصيدة طويلة =

على عمائنا يُلْقَى وأرحلنا على زواحف تُزجى مخها رير^(١)
 فقال : إنما هو رير بالرفع ، وإن رفع أقوى . فوجد عليه الفرزدق
 وقال : أما وجد هذا المنتفخ الحصيتين لبيتى مخرجاً فى العربية ؟ أما
 إنى لو أشاء لقلت :

على عمائنا يلقى وأرحلنا على زواحف نزجيتها محاسير
 ولكنى والله لا أقوله ، ثم هجاه بقوله :

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى هواليا^(٢)

فقال عبد الله : عذره شر من ذنبه ، فقد أخطأ أيضاً والصواب
 مولى موال ، توفى سنة ١١٧ هـ .

من النقائص فى مدح عبد الملك مع أنه ليس فيها ما يتصل بالمدح إلا هذا البيت مع آخر قبله ،
 فإن ما قبلهما نسيب وما بعدهما فى كلال الإبل والفخر بآثاته على جرير .

(١) راجع الشعر والشعراء ، المبحث السابق . الشمال : الريح المعلومة ، والخاصب :
 الريح التى تثير الحصباء . والزواحف جمع راحفة : الإبل التى أعيت فجرت فراسنها ،
 وتزجى : تساق ، ورير : فاسد ذائب من الهزال . وقد تكلف بعض العلماء تصحيح الجر
 لرير بأن الأصل على زواحف رير نخها وهو كما ترى . ولذا اعترف الفرزدق مع المكابرة
 فقال : نزجيتها محاسير ، والمحاسير جمع محسور أى متعب . والبيتان من قصيدة فى مدح
 يزيد بن عبد الملك وهجاه يزيد بن المهلب .

(٢) راجع الشعر والشعراء ، والمولى : الحليف ولا يحالف إلا الذليل ، فالمعنى لو كان
 ذليلاً لهجوته ، ولكنه أذل من الذليل لأنه حليف الحصريين وهم حلفاء بنى عبد شمس ،
 والتخطئة فى البيت معروفة فى النحوباب ما لا ينصرف ، راجع سيبويه ج ٢ ص ٥٨
 وشرح المفصل والرضى على الكافية ، راجع الخزانة شاهدة ٣٥ .

٢ - عيسى بن عمر الثقفي البصري

هو أبو عمر مولى خالد بن الوليد ، ونزل في ثقيف فنسب إليهم ، أخذ عن ابن أبي إسحق وغيره ، وكان مولعاً بالغريب والتشادق ، استودعه بعض أصحاب خالد القسري وإلى العراق لهشام بن عبد الملك وديعة ، فلما نزع خالد عن ولاية العراق وتقلدها يوسف بن عمر الثقفي استدعاه من البصرة لأخذ الوديعة فأنكرها ، ولما اشتد عليه ضرب السياط جعل يقول : « والله إن كانت إلا أثيتاباً في أسيفاط قبضها عشاروك »^(١) . وروى أن الضارب له عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق قبل خالد ابن عبد الله . وقد لزمته علة من ذلك الضرب بقية حياته ، وهو صاحب الكتابين المشار إليهما سابقاً ، توفي سنة ١٤٩ هـ .

٣ - أبو عمرو بن العلاء

هو زبان بن العلاء بن عمار المازني التميمي . قال ياقوت : « واختلف في اسمه على واحد وعشرين قولاً ، والصحيح أنه زبان لما روى أن الفرزدق جاء معتذراً إليه من هجو بلغه عنه فقال له أبو عمرو :

هجوتَ زبانَ ثم جئتَ معتذراً من هجو زبان لم تهجو ولم تدع فاعتذر إليه الفرزدق ومدحه بمقطوعة منها قوله :

(١) راجع العبارة في مقدمة أدب الكاتب ، وعيون الأخبار (كتاب العلم والبيان ، التشادق والغريب) ج ٢ ، وخزانة الأدب الشاهد التاسع .

ما زلتُ أفتح أبواباً وأغلقها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار^(١)

أخذ النحو عن نصر بن عاصم وغيره ، واشتهر بالقراءات والعربية وأيام العرب ولهجات القبائل ، ومن الطريف لهذه المناسبة أن عيسى ابن عمر جاءه متعجباً من تجويزه « ليس الطيب إلا المسك » بالرفع ، فقال له أبو عمرو : نعمت يا أبا عمر وأدلج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ، ثم أرسلنا اليزيدي وخلفاً الأحمر للتثبت من العرب ، فكان كما أخبر أبو عمرو ، فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال : ولك الخاتم ، بهذا والله فقت الناس^(٢) .

لكنه مع هذا لم يخالف أثراً مكتوباً ، ذلك أنه لما تنسك أحرقها وتفرّد للعبادة ، توفي رحمه الله في الكوفة عائداً من دمشق سنة ١٥٤ هـ^(٣) .

(١) البيت من شواهد سيبويه في ج ٢ على حذف التنوين من عمرو ص ١٤٨ وعلى دخول أفملت على فعلات ص ٢٣٧ وعلى الأول استشهد به ابن يعين في باب العلم وعلى الثاني أدب الكاتب كتاب الأبنية معاني أبنية الأفعال ، والرضي على الشافية ، راجع الشاهد رقم ١٦ والبيت من ثلاثة أنشأها له لما صعد إلى غرف ووصل إليه .

(٢) هذه الحادثة الطريفة مفصلة في ذيل الأمل ص ٣٩ وطبقات الزبيدي ، والمننى الباب الأول مبحث ليس ، والأشباه والنظائر الفن السابع .

(٣) ترجمته في المعاجم المرتبة أبجدياً في العين إلا في معجم الأدباء وفوات الوفيات في الزاى ، وراجعها في شرح شواهد الشافية رقم ١٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية .

الثالثة

١ - الأنخفش الأكبر

هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس بن ثعلبة من أهل هجر ، أول الأنخافشة الثلاثة المشهورين ، أخذ عن أبي عمرو ابن العلاء وطبقته ، ولقى الأعراب فأخذ عنهم . قال الرضى فى شرحه على الكافية باب أسماء الأفعال المنقرلة من الظروف : « وسمع أبو الخطاب من قيل له إليك فقال إلى » ، وتوفى سنة ١٧٧ هـ .

٢ - الخليل بن أحمد

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدي ، ولد بالبصرة وشب على حب العلم ، فتلقى عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى ابن عمر الثقفى وغيرهما ، ثم ساه فى بوادى الجزيرة العربية ، وشافه الأعراب فى الحجاز ونجد وتهامة إلى أن ملأ جنعبته ، ثم آب إلى مسقط رأسه البصرة ، واعتكف فى داره دائماً على العلم ليله ونهاره دائماً بالذته الروحية ، فنبغ فى العربية نبوغاً لم يسبق إليه ، وبلغ الغاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو ، قال الزبيدى : « وهو الذى بسط النحو ومدّ أطنا به وسبب علله وفتق معانيه وأوضح الحجاج فيه ، حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غاياته ، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم منه رسماً ترفعاً بنفسه وترفعاً بقدره إذ كان قد تقدم إلى القول عليه

والتأليف فيه ، فكره أن يكون لمن تقدمه تالياً ، وعلى نظر من سبقه محتدياً .
واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ، ولقنه من دقائق نظره
ونتائج فكره ولطائف حكمته ، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقاده وألف فيه
الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله ، كما امتنع على من تأخر بعده ^(١) .

فلا غرو أنه لولا تعهد الخليل النحو في نشأته لبعد عنه طور النضج
والكمال ، فلا خليل فضل النهوض به كما لأبي الأسود فضل تكوينه ،
نعم ، قد اتفقت كلمة العلماء على أن الخليل واضع فن الموسيقى العربية ،
وواضع علم العروض والقافية ، وأول من دوّن معجماً في اللغة بتأليفه
« كتاب العين » ، وله بعدئذ مآثرة الشكل العربي المستعمل الآن ،
وله مؤلفات أخرى في غير اللغة أيضاً . كان رحمه الله في غاقة وزهد
لا يبالي الدنيا ، على حين أن الناس محظوظون بها من علمه وكتبه . وجه
إليه سليمان بن علي عم أبي العباس السفاح ووالي فارس والأهواز رسولا
لتأديب ولده ، فأخرج الخليل إلى الرسول خبزاً يابساً وقال : مادمت أجدّه
فلا حاجة بي إلى سليمان ، فقال الرسول : فما أبلغه عندك ؟ فقال :
أبياتاً مطلعها :

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنى غير أني لست ذا مال

(١) أول كتابه : استدراك الغلط الواقع في كتاب العين ، ونقل هذا الكلام
زهر النوع الأول المسألة السادسة عشرة .

توفي رحمه الله بالبصرة متأثراً بصدمة في دماغه من سارية سنة ١٧٥ هـ
على الأصح .

٣ - يونس

هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي مولى بني ضبة ،
أخذ عن أبي عمرو وغيره ، وواجه العرب فسمع منهم حتى غدا
مرجع الأدباء والنحويين في المشكلات ، وكانت له حلقة دراسة في
المسجد الجامع بالبصرة يؤمها العلماء والأدباء وفصحاء الأعراب ، وله
مذاهب خاصة في النحو ، منتشرة في كتبه . من ذلك قول سيبويه في
باب ما يتقدم فيه المستثنى : « وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق
بهم يقولون : مالى إلا أبرك أحد ، فيجعلون أحداً بدلاً ، كما قالوا
ما مررت بمثل أحد فجعلوه بدلاً » ، وقول الرضى في الكلام على ما الحجازية :
« ونقل عن يونس أنه يجوز إعمالها مع انتقاض نفيها بإلا » . وله
مصنفات كثيرة في غير النحو ، قضى حياته ولم يتزوج ولم يتسر ،
وأخباره مستفيضة في كتب المعاجم ، توفي بالبصرة سنة ١٨٢ هـ .

الرابعة

١ - سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب ،
ولقب بسيبويه « رائحة التفاح » ، لأن أمه كانت ترقصه بذلك في صغره ،

ولد بالبيضاء (بلد بفارس^(١)) من سلالة فارسية ، ونشأ بالبصرة ، ورغب في تعلم الحديث والفقه ، إلى أن لحقه التأنيب ذات يوم بشأن حديث شريف من شيخه حماد البصري ، قال ابن هشام : « وذلك أنه جاء إلى حماد بن سلمة لكتابة الحديث فاستملى منه قوله صلى الله عليه وسلم : ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء ، فصاح به حماد : لحنت ياسيبويه ، إنما هذا استثناء ، فقال سيبويه : والله لأطلبن علماً لا يلحنني معه أحد ، ثم مضى ولزم الخليل وغيره^(٢) . فكما أخذ عن الخليل أخذ عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهم ، وبرع في النحو حتى بزّ أثرابه فيه ، فاحتفى به علماء البصرة التي صار إمامها غير مدافع ، وأخرج للناس كتابه الذي أكسبه فخار الأبد ، فإنه شاهد صدق على علو كعبه في هذا الفن .

كتاب سيبويه

جمع سيبويه في كتابه ما تفرق من أقوال من تقدمه من العلماء كأبي الخطاب الأنخفش والخليل ويونس وأبي زيد وعيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم في علمي النحو والصرف ، إذ كان النحو

(١) راجع المعنى الباب الأول مبحث ليس .

فى ذلك الحين يطلق عليهما ، واسمه يعمهما ، وأكثرهم نقلا عنه الخليل الذى كان لا يمل لقاءه ، وأتابه فى رواية الفن عنه ، فكان كتاب سيبويه سجلا لآراء الخليل فى النحو ، ولذا كثيراً ما يقول فيه : سألت الخليل : وذلك مستفيض فى الكتاب ، وسأذكر بعض أمثلة للنقل عن غير الخليل ، روى عن أبى الخطاب فقال : « حدثنا به أبو الخطاب عن شاعره »^(١) . وعن يونس فقال : « وزعم يونس فقال إنه سمع رؤبة يقول ماجأت حاجتُك فرفع »^(٢) ، وروى عنهما فقال : « وذلك قولك هذا عبد الله منطلق حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب »^(٣) ، وكثر نقله عن يونس حتى نقل عنه أبواباً برمتها ، فقد نقل عنه فصلين من التصغير ، فقال : « وجميع ما ذكرت لك فى هذا الباب وما أذكر لك فى الباب الذى يليه قول يونس »^(٤) لأنه كان يطمئن إليه ، فكثيراً ما كان يسأله للتثبت عما سمعه من غيره ، قال : « وزعم عيسى بن عمر أن ناساً من العرب يقولون إذن أفعلُ ذاك فى الجواب ، فأخبرت يونس بذلك ، فقال لا تبعدنّ ذا ، ولم يكن ليروى إلا ما سمع »^(٥) . وروى عن أبى زيد فقال : « حدثنى من أثق بعربيته » .

فإذا اختلفت أقوال العلماء فإنه يحكيها ويوازن بينها ثم يحكم

(١) راجع ج ١ ص ٤٠ .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٠٩ .

(٤) راجع ج ٢ ص ٤١٢ .

بالترجيح ، ففي باب تحقير بنات الباء والوار إلخ عند الكلام على تصغير
أحوى قال : « وأما عيسى فكان يقول أحى ويصرف . وهذا خطأ . .
وأما أبو عمرو فكان يقول أحى . . وأما يونس فيقول هذا أحى كما
ترى وهو القياس والصواب » . وفي باب ما يحذف من أواخر الأسماء
في الوقف وهي الياءات قال : « وسألت الحليل عن القاضى في النداء ،
فقال أختار يا قاضى . لأنه ليس بمنون كما أختار هذا القاضى ،
وأما يونس فقال يا قاضى وقول يونس أقوى » .

وقد ضم إلى أقوال هؤلاء العلماء ما استخرجه بنفسه من القواعد
اعتماداً على سماعه من العرب الخالص قال : « سمعنا العرب الفصحاء
يقولون انطلقتُ الصيف »^(١) ، وقال : « وسمعنا بعض العرب المؤثوق به
يقال له : كيف أصبحت ؟ فيقول حمدُ الله وثناء عليه »^(٢) ، وقال : « إن
هذا البيت أنشدناه أعرابى من أفصح الناس وزعم أنه شعر أبيه »^(٣) .

كوّن سيبويه كتابه من أقوال العلماء ومما استنبطه هو بنفسه ،
فكان جماع الفن ، شاملاً كل ما يحتاج إليه طالبه مع الترتيب والتبويب ،
ولكل عصر طبيعته المتسقة معه . فترتيب الكتاب على غير المؤلف
في كتبنا المتداولة بين أيدينا ، والإسراف في عناوين أبوابه جاوز الحد ،
فقد بلغت عشرين وثمانمائة ، مع الغموض الذى لا يفصح عن المقصود

(٢) ج ١ ص ١٦١ .

(١) ج ١ ص ١١١ .

(٣) ج ٢ ص ٥٢ .

لأول وهلة ومع التداخل في كثير من الأبواب ، فمن ذلك على سبيل المثال باب البديل فقد قال : « هذا باب من الفعل يستعمل في الاسم ثم تبدل مكان ذلك الاسم إلخ ، هذا باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول إلخ ، باب المبدل من المبدل منه ، باب بدل المعرفة من النكرة إلخ ، باب من البديل أيضاً »^(١) وبعض عباراته الاصطلاحية حلت بدلها عبارات أخرى عندنا ، ونظرة أولية إلى مستهله في ترتيب أبوابه وعناوينها واصطلاحاتها كافية في ذلك ، قال : « هذا باب علم ما الكلم من العربية ، باب مجازي أواخر الكلم من العربية ، باب المسند والمسند إليه ، باب اللفظ للمعاني ، باب ما يكون في اللفظ من الأعراض ، باب الاستقامة من الكلام والإحالة ، باب ما يحتمل الشعر ، باب الفاعل إلخ ».

فلم يك سيبويه في كتابه جماعاً لآراء السابقين فحسب ، بل له شخصية قوية ظهرت في ابتداع بعض القواعد ، وفي ترتيب الكتاب حاوياً عناصر الفن كلها ، وتبويبه واضعاً كل شيء وما يتصل به معه ، وحسن التعليل للقواعد ، وجودة الترجيح عند الاختلاف ، واستخراج الفروع من القياس الذي امتأ به الكتاب ، فكثيراً ما يقول : والقياس كذا ، أو والقياس يأباه ، ويقول : « سألت الخليل عن قول العرب ما أميلحه فقال : لم يكن ينبغي أن يكون في القياس لأن الفعل لا يحقر ،

(١) في ج ١ على الترتيب ٧٥ ، ٧٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٣٩٣ .

وإنما تحقر الأسماء إلخ»^(١) .

وفى الحرص على الاعتزاز بالشواهد الوثيقة لدعم الأحكام التي قررها .

شواهد

عنى سيبويه فى كتابه بالشواهد لتثبيت الأحكام والإذعان بها من القرآن الكريم ونثر العرب والشعر ، ولم ينجح إلى الاستدلال بالحديث الشريف شأن أسلافه ومعاصريه ، وذلك لانعدام الثقة فى نقل الحديث بلفظه الوارد عنه صلى الله عليه وسلم ، لتصريح العلماء بجواز الرواية بالمعنى ، إذ لو وثقوا بلفظه لجرى مجرى القرآن الكريم فى القواعد الكلية ، ثم صارت سنة جارية بعده فى المتقدمين والمتأخرين لم يبتدع خلافها غير ابن خروف وابن مالك ، ثم الرضى الذى أضاف إلى الحديث فى الاستشهاد به كلام أهل البيت رضى الله عنهم ، وقد أنكر ابن الصانع وأبو حيان على ابن مالك فى حديث طويل ، وللاطبي تفصيل قيم فى شأن الحديث الشريف نذكره فى ترجمته بمشيئة الله تعالى .

فالقرآن الكريم قد بلغ ما ذكره فى الكتاب من آى ما يربى على ثلثائة آية ، قال المازنى اعتذاراً عن تعليم الذمى الكتاب فى نظير أجر كبير : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثائة وكذا آية من كتاب الله عز وجل ،

ولست أرى أن أمكن منها ذمياً ، وأكثر الآيات مسوقة للاستدلال على الحكم الذي يقرره من ناحية الاستعمال العربي ، وهي بين يدي القارئ فلا حاجة إلى ذكر مثال منها ، وفي غير الكثير منها قد تذكر بعض آيات استثناساً لناحية المعنى في الأحكام ، قال سيبويه : « وقد يكون علمتُ بمنزلة عرفت لا تريد إلا علم الأول ، فمن ذلك قوله تعالى : ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ، وقال سبحانه : وآخرين منهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فهي ههنا بمنزلة عرفت »^(١) . وقد تذكر بعض آيات أخرى عندما يكون ظاهرها مخالفاً للحكم الذي ذكره لتخرجها على ما يوافقها ، قال سيبويه : « وأما قوله عز وجل : الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، وقوله تعالى : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، فإن هذا لم يبن عن العمل ولكنه جاء على مثل قوله تعالى : مثل الجنة التي وعد المتقون ، ثم قال بعد : فيها كذا وكذا ، وإنما وضع المثل للحديث الذي بعده ، وذكر بعد أخبار وأحاديث فكأنه على قوله ومن القصص مثل الجنة أو مما يُقص عليكم مثل الجنة ، فهو محمول على هذا الإضمار ونحوه والله أعلم ، وكذلك الزانية والزاني كأنه لما قال : سورة أنزلناها وفرضناها قال في الفرائض الزانية والزاني أو الزانية والزاني في الفرائض ، ثم قال : فاجلدوا فجاء بالفعل بعد أن مضى فيهما الرفع إلخ »^(٢) وهكذا .

(٢) ج ١ ص ٧١ .

(١) راجع ج ١ ص ١٨ .

والشواهد النثرية المعين الذي لا ينضب في الاستشهاد لكثرتها والظفر بها عند تلمس الدليل ، فهو منطق العربي في غدواته وروحاته يرسلها متى شاء وحيث كان وفيما يبتغي ويريد ، ويدخل فيها الأمثال السائرة ، يسمعها سيبويه من العلماء الذين يتلقى عنهم ، أو يأخذها مشافهة من العربي . وهاك شيئاً منها : قال سيبويه : « ومثل قولهم من كان أخاك قول العرب : ما جاءت حاجتك » (١) ، وقال أيضاً : « وسمعنا من يوثق به من العرب يقول : احتمعت أهل اليمامة إلخ » (٢) . ومن الأمثال ما قال : « كما جعلوا عسى بمنزلة كان في قولهم عسى الغوير أبؤساً » (٣) — وهكذا .

والشواهد الشعرية كثيرة كذلك ، فقد قالوا إن فيه ألفاً وخمسين بيتاً . غير أنه لم يعن رحمه الله بنسبة الشعر المذكور إلى قائله في كثير من الشواهد ، سواء ما استشهد به العلماء الحاكي عنهم وما استشهد به هو ، لأن بعض الشعر قد روى لشاعرين أو أكثر ، وبعضه قديم العهد لا يعرف قائله ، فاعتمد على شيوخه فيما استشهدوا به ونسب الإنشاد إليهم ، وعلى نفسه فيما سمعه بأذنه ، ولم يتخذ أحد من العلماء إغفاله للنسبة سبيلاً للطعن عليه ، على حين أنه أخرج للناس كتابه والعلماء كثير ، والعناية بهذا العلم وتهذيبه وكيدته ، ولعل ذلك لأن العلماء في

(٢) ج ١ ص ٢٦ .

(١) ج ١ ص ٢٤ .

(٣) ج ١ ص ٢٤ .

ذلك الحين كانوا على علم بها لقرب العهد ، فإن العلماء بعدئذ تطلعوا إلى معرفة الشعراء وبحثوا عنهم ، قال الجرمي : « نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً ، فأما ألف بيت فعرفت أسماء قائلها فأثبتها ، وأما خمسون فلم أعرف أسماء قائلها » . و يروى مثل هذا الخبر عن المازني وهما متعاصران ، فالنسبة المذكورة الآن في الكتاب حادثة بعد سيبويه إما من الجرمي أو المازني ، وسميت الأبيات الخمسون بين العلماء بأبيات سيبويه الخمسين المجهولة القائل ، ونسبة الشعر للشاعر الصادرة من الجرمي أو المازني لم تشمل الألف كلها في الكتاب المطبوع بين أيدينا ، ولا أدري سبباً في ذكر القائل في بعضها دون بعض ، فقد كان في تعيين النسبة للألف كلها إعلان كاف عن الخمسين المجهولة ، فليس وراء المعلوم إلا المجهول ، والمهم إنما هو الوصول إلى معرفة هذه الأبيات المجهولة الخمسين ، وقد استعنت خزانة الأدب للبغدادى في الوصول إليها فعلمت منها بالنص اثنين وثلاثين ، وسأذكرها لك مع الإشارة في الهامش إلى موطن كل منها في سيبويه وفي خزانة الأدب ، غير أن بيتاً منها قد اهتمدى البحاثة الشنقيطي إلى اسم قائله في كتابه « الحماسة السنية » وهو قوله :

. أفبعد كندة تملحن قبيلاً^(١)

(١) راجع الكتاب ج ٢ ص ١٥١ وخزانة الأدب شاهد ٩٤٣ .

فإن قائله امرؤ القيس وهذا عجز البيت ، والبيت كله .

قالت فطيمة حلّ شعرك مدحاً أغبعد كندة تمدحنّ قبيلاً

ومعنى البيت : حلّ "تخفيف حلّ" من حلاؤه إذا طرده عن الماء ، ومدحه بدل اشتمال ، فمرادها ألا يمدح أحداً بعد كندة ، دل على ذلك المصراع الثاني ، والبيت مطلع قصيدة نادرة الوجود أوردها كلنّها الشنقيطي مع ذكر السبب . وذلك في القسم الثاني ، آخر الكلام على البرزنجي . وعلى هذا فالأبيات المجهولة في كتاب سيبويه تسعة وأربعون ، والأبيات المجهولة التي أذكرها واحد وثلاثون . وهاكها بالترتيب على نسق الكتاب :

أبياته المجهولة القائل

ما في الجزء الأول

هل تعرف الدار على تبراكا دار لسُعدى إذّه من هواكا^(١)
أستغفر الله ذنباً لست محصيه ربّ العباد إليه الوجه والعمل^(٢)

(١) راجع ص ٩ والخزاة شاهد ٨٣ . (٢) راجع ص ١٧ والخزاة شاهد ١٧٥ .

وقائلة خولان فأنكح فتاتهم
 إن على الله أن تباعها
 وكأنه لهن السراة كأنه
 هل أنت باعث دينار لحاجتنا
 ضعيف النكاية أعداءه
 كلوا في بعض بطنكم تعفوا

 دعوت ليما نابني مشورا
 فلا تلحنى فيها فإن بحبها
 ووجهه مشرق النحر

 على أننى بعدما قد مضى
 وأكرومة الحيين خلوكما هيا (١)
 تؤخذ كرها أوتجىء طائعا (٢)
 ما حاجبيه معين بسواد (٣)
 أو عبد رب أخا عون بن مخراق (٤)
 يخال الفرار يراخى الأجل (٥)
 فإن زمانكم زمن خميص (٦)
 من لد تمولا فالى إتلاها (٧)
 فلبى فلبى يدي مسور (٨)
 أخاك مصاب القلب جم بلابله (٩)
 كأن تدياه حقان (١٠)
 يا ليت أيام الصبا راجعا (١١)
 ثلاثون للهجر حولا كميلا

- (١) راجع ص ٧٠ والخزانة شاهد ٧٧ . (٢) راجع ص ٧٨ والخزانة شاهد ٣٧٢ .
 (٣) راجع ص ٨٠ والخزانة شاهد ٣٧٠ . (٤) راجع ص ٨٧ والخزانة شاهد ٦١٠ .
 (٥) راجع ص ٩٩ والخزانة شاهد ٥٩٧ . (٦) راجع ص ١٠٨ والخزانة شاهد ٥٧٥ .
 (٧) راجع ص ١٣٤ والخزانة شاهد ٢٥٢ . (٨) راجع ص ١٧٦ والخزانة شاهد ٩٣ .
 (٩) راجع ص ٢٨ والخزانة شاهد ٦٤٨ . (١٠) راجع ص ٢٨١ والخزانة شاهد ٨٧١ .
 (١١) راجع ص ٢٨٤ والخزانة شاهد ٨٤١ .

يذكركُ نيكُ حنينُ العجولِ ونوحُ الحمامة تدعو هديلاً^(١)
 من آجلك يا التي تيمت قلبي وأنت بخيلة بالودّ غني^(٢)
 يالقوم منّ للعلا والمساعى يالقوم منّ ليلندي والسماح
 يالْعطافنسا ويا لرياح وأبي الحشرج الفتى النفاح^(٣)
 فلا أب وابناً مثل مروان وابنيه إذا هو بالمجد ارتدى وتآزرًا^(٤)
 لا هيثمَ الليلة لِلْمَطَى^(٥)
 بكت جزعاً واسترجعت ثم آذنت ركائبها أن لا إلينا رجوعها^(٦)
 حنّت قلوصى حين لا حين مَحَن^(٧)
 فالיום قريت تهجونا وتشتمنا فاذهب فمابك والأيام من عجب^(٨)
 دعى ماذا علمت سأتقيه ولكن بالمغيّب نبئني^(٩)
 غير أنا لم تأتنا بيقين فنرجى ونكثر التأملاً^(١٠)
 هذا سراقه للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا إن يلقها ذيب^(١١)

-
- (١) راجع ص ٢٩٢ والخزانة شاهد ٢١٦. (٢) راجع ص ٣١٠ والخزانة شاهد ١٢٨.
 (٣) راجع ص ٣١٩ والخزانة شاهد ١٠٨. (٤) راجع ص ٣٤٩ والخزانة شاهد ٢٦٣.
 (٥) راجع ص ٣٥٤ والخزانة شاهد ٢٦١. (٦) راجع ص ٣٥٥ والخزانة شاهد ٢٥٥.
 (٧) راجع ص ٣٥٨ والخزانة شاهد ٢٥٨. (٨) راجع ص ٣٩٢ والخزانة شاهد ٣٥٣.
 (٩) راجع ص ٤٠٥ والخزانة شاهد ٤٤٤. (١٠) راجع ص ٤١٩ والخزانة شاهد ٦٦٥.
 (١١) راجع ص ٤٣٧ والخزانة شاهد ٨٢.

إن الكريم وأبيك يَعْتَمِلُ إن لم يجد يوماً على مَنْ يَتَّكِلُ^(١)
و كنت أرى زيدا كما قيل سيِّداً إذا أنه عبدُ القفا واللهازم^(٢)
ولست أبالي بعد يوم مطرف حتوف المنايا أكثرت أو أقلت^(٣)

ما في الجزء الثاني

لقد رأيتُ عَجَباً مُذْ أَمَسَا عجائزاً مثلَ السعالِ خُمُسا^(٤)
وهيَّجَ الحى من دارِ فِظْلٍ لهم يومٌ كثيرٌ تَنَادِيهِ وَحَيْهَلُهُ^(٥)
..... وهي تنوش الحوض نوשא من علا^(٦)
فأقبل على رهطى ورهطاك نبتحت مساعينا حتى ترى كيف نفعلا^(٧)

هذا ما يختص بالأبيات المجهولة القائل في الكتاب — أما الألف الباقية فقد ارتضاها جمهور العلماء ، سواء منها ما نسب إلى قائله وما لم ينسب إليه ، وقليل منهم اعترض على بعض الأبيات المنسوبة لقائلها بما يؤدي إلى عدم صحة الاستشهاد بها على ما ساقها دليلا عليه سيبويه لتحريف أو تصحيف نفي عليه في الرواية للشاهد ، وقليل منهم تعقب بعض

(١) راجع ص ٤٤٣ والخزانة شاهد ٨٢٧ . (٢) راجع ص ٤٧٢ والخزانة شاهد ٨٤٦ .
(٣) راجع ص ٤٩٠ والخزانة شاهد ٩١٠ . (٤) راجع ص ٤٤ والخزانة شاهد ٥٢٢ .
(٥) راجع ص ٥٢ والخزانة شاهد ٤٦٢ . (٦) راجع ص ١٢٣ والخزانة شاهد ٧٧٣ .
(٧) راجع ص ١٥١ والخزانة شاهد ٩٤٤ .

الأبيات غير المنسوبة لقائلها وعدّها مفتعلة مصنوعة ، وهذا كله عدا الأبيات المزیدة على شواهد سیبویه فلم تذكر فی أصل الكتاب معها . وقد شرحها الأعلّم أيضاً ناسباً كل شاهد زائد فی الباب المذكور فیهِ لمن أنشده من العلماء الذین زادوه على شواهد الكتاب فی خلال نظرهم فیهِ وإن فاته كمعظم الشراح (رجز) خلط بكلام الكتاب ، ذلك هو قول سیبویه فی باب « ما لا يعمل فیهِ ما قبله من الفعل إلخ »

لقد علمت أىّ حین عُنُقَتِ (١)

وهو من شواهد الرضی (فی أفعال القلوب) ، ونبه على كل ذلك البغدادی فی الخزانة (٢) — فهذه أصناف ثلاثة ، وهاك بیانها :

بعض الأبیات التي خطأوا روايتها

كثر ما طعن بعض العلماء على بعض الأبیات المنسوبة للقائل طعناً يقضى بعدم الاستدلال بها ، وفي مقدمة هؤلاء ابن قتیبة والمبرد والعسکری ، وإنی لذاكر من ذلك أبیاتاً ثلاثة على سبیل التمثیل خوفاً الإطالة . فمن ذلك :

١ — قول عُنُقِیة بن هبيرة الأسدی :

معاویَ إنا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

(١) راجع سیبویه ج ١ ص ١٢٢ . (٢) راجع خزانة الأدب شاهد ٧١٧ .

أديروها بني حرب عليكم ولا ترموا بها الغرض البعيدا^(١)
استشهد سيبويه بالبيت الأول على جواز الإجراء على الموضع ، فإن
قوله « الحديداء » معطوف على محل المجرور قبله في قوله « بالجلال »
لأن الباء زائدة .

لقد خطأ ابن قتيبة في أواخر مقدمة الشعر والشعراء هذه الرواية
مدعياً أن الصراب البحر كبقية القصيدة ، والبيت الثاني من بيتي سيبويه
لا صلة له بالأول منهما ، وتابعه المبرد في ذلك ، وكذا العسكري في
« التصحيف والتحريف » .

لكن العلماء المنتصرين لسيبويه . وفي مقدمتهم الأنباري في كتابه
« الإنصاف » ، قالوا إن البيت روى مع أبيات منصوبة ومع أبيات
مجرورة . واستشهد سيبويه منوط بالرواية الأولى ، فصح الاعتماد
عليه . ولهذا استشهد به الرضى على الكافية . راجع الخزانة في الشاهد
الرابع والعشرين بعد المائة .

٢ — ومن ذلك قول نهشل بن حري :

لَيْسَبُكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحَصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تَطِيحُ الطَّوَائِحُ^(١)
استشهد به سيبويه في باب « ما يحدف منه الفعل إلخ » على أن رافع

(١) راجع ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥٢ ، ٣٧٥ ، ٤٤٨ .

(٢) راجع ج ١ ص ١٤٥ و ص ١٨٣ ، والبيت من مرتبة في يزيد ، راجع خزانة
الأدب الشاهد الخامس والأربعين .

ضارع محذوف للعلم به من سابقه .
 وقد تعقب الأصمعي رواية البيت كذلك قائلاً إن الصواب نصب
 يزيد بالفعل قبله والفعل مبنى للمعلوم ، فضارع فاعل له لا للمحذوف ،
 وقد نقل عن الأصمعي هذا التصحيح ابن قتيبة في أواخر مقدمة الشعر
 والشعراء ، وتبعهما العسكري في « التصحيح والتحريف » .
 لكن العلماء الآخرون أجازوا رواية سيبويه ، فاقتفاه في الاستدلال
 بها في « باب الفاعل » الزمخشري في المفصل ، وابن الحاجب في الكافية
 وابن هشام في التوضيح ، والأشمونى في شرح الألفية .

٣ - ومن ذلك قول الأخطل :

كُروا إلى حرتيكم تعمرونهما كما تكرر إلى أوطانها البقر^(١)

استشهد سيبويه بهذا البيت في باب « من الجزاء ما لا ينجزم فيه
 الفعل إذا كان جواباً لأمر إلخ » ، على جواز رفع المضارع وهو تعمرونهما
 بعد الطلب وهو « كروا » لعدم قصد الجزائية ، وتبعه في الاستشهاد به
 الزمخشري في المفصل ، والأشمونى في شرحه على الألفية - لم ينبه أحد
 من العلماء قط على ما في البيت من خطأ ابتنى عليه زعم الاستدلال بالبيت
 إذ مدار الاستشهاد به على أن « كروا » فعل أمر بدليل الخطاب في
 حرتيكم .

(١) راجع ج ١ ص ٤٥١ .

والحقيقة أن الفعل «اض» وأن صواب الشطر الأول «كروا إلى حرتهم يعصرونهما» على الحكاية للغائبين ، فالبيت من قصيدة في تناول أيدي الجميع . ويبدو لي أن هذا التحريف غير معمرد إليه وإنما سرى لسيبويه من الراوى المحرف . وأكاد أعتقد أن هذا البيت في تحريفه لا مثيل له في الكتاب . والعجب العاجب عدم الالتفات لما فيه من الأعلام السابقين .

بعض الأبيات التي قيل إنها مصنوعة

فما قالوا إنه مصنوع :

١ - حَذِرْ أُمُورًا لَا تُضِيرُ وَآمِنْ مَا لَيْسَ مُنْجِيهِ مِنَ الْأَقْدَارِ^(١)

استشهد به سيبويه على عمل «فَعِيل» من أبنية المبالغة ، وتبعه من بعده كابن يعيشر في شرح المفصل ، والرضي في شرح الكافية وغيرهما .

لكن قال النقدة يروى عن اللاحق أنه قال : «إن سيبويه سألني عن شاهد في تعدى فَعِيل فعملت له هذا البيت» .

(١) راجع ج ١ ص ٥٨ ، وراجع خزانة الأدب شاهد ٦٠٥ فقه كل ما قيل في البيت ، ومعنى البيت مختلف فيه ، قال ابن السيد : والأشبه عندي أن يكون أراد أن الإنسان جاهل بعواقب الأمور يدبر ليخونه التدبير .

وقد تصدى للرد عن سيبويه في الطعن الوارد على هذا البيت الكثير من العلماء ، قال الأعلام في شرحه لهذا الشاهد : « وإن كان هذا صحيحاً فلا يضر ذلك سيبويه لأن المقياس يعضده » ، وقال هرون بن موسى : « وإنما أراد اللاحق بقوله فوضعت له هذا البيت : فرويته له » . وقال ابن يعيش في شرح المفصل : « فإن سيبويه رواه عن بعض العرب ، وهو ثقة لا سبيل إلى رد ما رواه » ، وبعدئذ فلا مجال للطعن على سيبويه .

٢- هم الفاعلون الخير والآمرونه إذا ما خشوا يوماً من الأمر معظما

٣- ولم يرتفق والناس محتضرونه جميعاً وأيدى المعتفين رواهقه

قال المبرد : « وقد روى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من المفتشين يجيز مثل هذه الضرورة لما ذكرت من انفصال الكناية ، والبيتان اللذان رواهما سيبويه : هم الفاعلون الخير إلخ » ^(١) .

المراد من الكناية الضمير ، وأول من استعملها في ذلك سيبويه .

(١) راجع الكامل مع الرغبة ج ٤ ص ٤٢ وما بعدها ، والبيتان في سيبويه ج ١ ص ٩٦ ومعنى البيت الأول أنهم يفعلون الخير ويأمرون به وقت خشيتهم الأمر العظيم من حوادث الدهر فلا يمتنعهم خوف الضرر عن الأمر بالمعروف . والثاني أنه لم يرتفق أى يتكئ على المرفق ، وأيدى المعتفين طلاب المعروف رواهقه غاشية له قريبة منه ، وذلك كناية عن اهتمام مدوحه بقضاء حاج الناس .

وتوجيه طعن المبرد على سيبويه أن الضمير لا يتصل بالوصف المثنى أو المجموع إلا إذا تجرد من النون اللاحقة في آخره حتى يحل محلها الضمير المتصل المضاف إليه ، وذلك للتناوب بين النون والضمير ، فإذا اقترنت بالوصف النون وجب انفصال الضمير عنه حينئذ ، والنتيجة أن الجمع بينهما ممنوع ، فكيف استباح سيبويه ذكر بيتين اجتمع فيهما النون والضمير المتصل للضرورة مع أنهما مصنوعان ؟

والذى يقتضى العجب أن المبرد يتجنى على سيبويه في هذا الانتقاد ، مع أن سيبويه نفسه قد صرح في البيت الأول أنه مصنوع وكذا في الثاني ، ونقل ذلك عنه ابن يعيش في شرح المفصل : مبحث الإضافة اللفظية ، لأن صاحب المفصل ذكر الشطر الأول من البيت الأول للرد عليه ، وكذا الرضى على الكافية ، وقد استعرض اعتراض المبرد على البيتين وما قيل في دفع الاعتراض عليهما البغدادى في الخزانة في الشاهدين : السادس والتسعين والسابع والتسعين بعد المائتين .

٤ - إذا ما الخبز تأدمه بلحم فذاك أمانة الله الثريد^(١)

استشهد بالبيت مرتين الأولى على رفع ما بعد إذا والثانية على نصب أمانة بفعل مقدر . وتابعه في الاستشهاد به على الثانية الزمخشري في المفصل عند الكلام على حروف القسم ، وابن يعيش في شرح المفصل

(١) ج ١ ص ٤٣٤ ، ج ٢ ص ١٤٤ .

في أوائل الكلام على القسم .

لكن قال النقدة إن البيت مصنوع ، والله أعلم بالحقيقة .

الأبيات المزيدة على الشواهد

يرى المتأمل في شرح شواهد سيبويه للأعلم أبياتاً مضافة إلى أبيات سيبويه ، وقد تناولها الأعلم بالبيان لمعناها وموطن الشاهد فيها على غرار شرحه لأبيات الكتاب ، غير أنه قبل ذكرها يعزوها لمنشدها في الباب المتحدث فيه ، ويعرض للغرض منها في الاستشهاد ، ما خلا بيتين فيؤخذ منه نسبتهما لسيبويه لإطلاقه الإنشاد له على وفق طريقته في شواهد ، والأبيات المزيدة بلغت أحد عشر أكثرها من إنشاد الأخفش فالمازني ثم الجرمي والمبرد ، ولهذا يحسن بعد ذكر البيتين المظنون نسبتهما لسيبويه سرد ما أنشده الأخفش في الكتاب مستقلاً ، وكذا المازني ، وبعدهما أراعى ترتيب الكتاب في المبرد والجرمي .

البيتان المنسوبان له وهما في الجزء الثاني

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أحرف متتابعات
ونخطوا لي أبا جاد وقالوا تعلم صغصاً وقريسيات^(١)

الأخفش في الجزء الأول

فبيناه يشرى رحله قال قائل
وما مثله في الناس إلا مملكا
ألم يأتيك والأنباء تنمى
فزوجتها بمزجة
لمن جمل رخو المِلاط نجيب^(١)
أبو أمه حيّ أبوه يقاربه^(٢)
بما لاقت لبون بنى زياد^(٣)
زج القلوص أبى مزاده^(٤)

المازنى في الجزء الأول

أتهجر ليلي بالفراق حبيبها
وما كان نفساً بالفراق تطيب^(٥)

وفي الجزء الثاني

إن الفرزدق صخرة عادية
فما سبق القيسى من ضعف حيلة
طالت فليس تنالها الأوعالا^(٦)
ولكن طفت علماء غرلة خالد^(٧)

(٢) ص ١٤ .

(٤) ص ٨٨ .

(٦) ص ٣٥٦ .

(١) ص ١٤ .

(٣) ص ١٥ .

(٥) ص ١٠٨ .

(٧) ص ٤٢٤ .

المبرد في الجزء الأول

ثأرنا بها قتلى وما في دماءها وفاء وهن الشافيات الحوائم^(١)

الجرى في الجزء الثاني

أرى عليها وهي فرع أجمع وهي ثلاث أذرع وإصبع^(٢)

وبعد ، فمما لا ريب فيه بين العلماء قاطبة أن سيبويه لم يحتج في كتابه إلا بأشعار من يستشهد بشعرهم من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، فلم يتجاوزهم إلى المحدثين ، ولقد كان ذلك ديدنه في تعليمه ودراسته وحججه . نعم روى أنه عاب على بشار صدر المحدثين كلمات له في أبيات ، وبلغ عيبه لها بشاراً ، فقال يهجره :

أسيبويه يابن الفارسية ما الذي تحدثت عن شتمي وما كنت تنبذ
أظلت تغنى سادراً في مساءتي وأملك بالمصريين تعطى وتأخذ^(٣)

فتوقى شره بعدئذ ، وكان إذا سئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له من شعر بشار شاهداً احتج به استنكافاً لشره .

(٢) ص ٣٠٨ .

(١) ص ٩٤ .

(٣) راجع الأغاني أخبار بشار ج ٣ ص ٢١٠ طبع الدار .

ومن الحق البين أن الكتاب يحتاج إلى دراسة طويلة عميقة في البحث يضيق المقام عن استيفائها ، وما أجدرها بسفر خاص !

تقدير الكتاب

لقد دهش الناس عند ظهور الكتاب فجأة على صورته الرائعة الغريبة من سيبويه الشاب ، فتسرب إلى نفوسهم النظم في أمانته العلمية ، قال يونس : « أظن هذا الغلام كذب على الخليل » ، فقليل له : وقد روى عنك أيضاً . فاستحضر الكتاب ورأى ما نقله عنه صحيحاً ، فقال : إنه صدق في جميع ما قال . . .

عظم شأن الكتاب في البصرة حتى صار علماً بالغبلة ، فكان إذا قيل في البصرة فلان يقرأ الكتاب لا يفهم السامع سوى كتاب سيبويه ، بل سموه إكباراً له قرآن النحو ، وهكذا كان الكتاب أعجوبة الدهر الخالدة فإنه منذ ألف استفرغ عناية العلماء به في الطواف حوله ، فمن شارح له ومن شارح لشواهد له ، ومن متتبع له واستخذوا حيناً وضع كتاب جديد بعده ، ولهذا كان المازني يقول : « من أراد أن يصنف كتاباً واسعاً في النحو بعد سيبويه فليستحي » .

لم يقف العلماء فيه على عشرات شأن المؤلفات الضافية لا في أسلوبه ولا في القواعد المسطورة فيه ، مع أن الكتاب كباكورة في النحو ، ومع كثرة الناظرين فيه . وحسبه في أسلوبه أن يتلقف ابن الطراوة غلطة واحدة

فيه ثم لم تسلم له مع هذا إلا تلك : هي أن سيبويه في الجزء الأول باب « ماتجرى عليه صفة ما كان من سببه وصفة ما التبس به إلخ » أجاب بكلمة نعم عن استفهام تقريرى داخل على النفي مرتين إذ يقول : « قيل له : أأست تعلم أن الصفة . . فإنه لا يجد بدءاً من أن يقول : نعم . . أفأست تجعل هذا العمل . . فإنه قائل : نعم » ، والمعروف في نعم أنها جواب لما بعد الاستفهام ، وهو خلاف المراد على ما هو واضح .

ودفع هذا التعقب ابن هشام في المغنى مبحث « نعم » فقال : « وزعم ابن الطراوة أن ذلك لحن . . ويجوز عند أمن اللبس أن يجاب النفي بما يجاب به الإيجاب رعيّاً لمعناه . . وعلى ذلك قول الأنصار رضى الله عنهم للنبي عليه الصلاة والسلام وقد قال : أأستم ترون لهم ذلك : نعم . . وعلى ذلك جرى كلام سيبويه ، والمخطئ مخطئ » .

ويكفيه في قواعده أن الزجاج لم يعثر إلا على غلطتين فيها : إحداهما عدّه بناء أى الموصولة على الضم مع الإضافة وحذف صدر الصلة ، قال ابن هشام في المغنى مبحث أى : « قال الزجاج : ماتبين لى أن سيبويه غلط إلا في موضعين هذا أحدهما ، فإنه يسلم أنها تعرب إذا أفردت فكيف يقول ببنائها إذا أضيفت ؟ »

ومنذ ألف الكتاب ما فارقه النحو وما تخلف هو عنه ، بل كانا يقبلمان معاً ويرحلمان معاً ، فطوف معه وانتقل من البصرة إلى الكوفة ثم بغداد ثم الأندلس والشام ومصر ، وسندكر نبذة عنه إن شاء الله في

الطور الرابع عند الكلام على علماء الأندلس ، تبين منها إقبال الأندلس عليه وتقديرها له ، وبعبارة أخرى احتفاء المغاربة به بعد المشاركة ، وفي خزانة الأدب للبغدادى الشاهد السابع والحمدسين نبذة عن الكتاب .

ولقد قدر لهذا العبقري أن تكون منيته في أمنيته ، حببت إليه التوجه إلى بغداد لمنازلة الكسائي الذي كان ينفس عليه ما نال من جاه كبير ومال وفير ، ثقة منه بالظفر عليه ، فتلاقى القرينان وجرت بينهما تلك المناظرة المشهورة التي سلف الكلام عليها ، فخاب الأمل ، وفارق سيبويه بغداد مقهوراً ، وعز على نفسه أن يعود إلى البصرة بعد هذا الحزى والخذلان ، فاستقدم تلميذه أبا الحسن الأنخفش في طريقه إلى بلدة في فارس ، وبث إليه حزنه ، وما كاد يرد بلده حتى اشتدت علته ، فمات في ريعان شبابه قبل جل شيونحه ، رحمه الله ، سنة ١٨٨ هـ .

٢ — اليزيدى

هو أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى ، مولى بنى عدى ، نشأ بالبصرة . وتلقى عن أبي عمرو بن العلاء وابن أبي إسحق والحليل ويونس وغيرهم ، ثم اشتهر فضله فيها ، وعرف باللغة والنحو وأخبار الناس ، وعرضت فتنة بالبصرة اقتضت اختفائه عنها ، ثم ظهر بعد في بغداد عند يزيد بن منصور الحميري خال المهدي ، فأدب أولاده ونسب إليه ، ولقب باليزيدى من هذا الحين ، وسرى هذا اللقب في أولاده وحفدته

من بعده ، ولم يلبث أن وصله يزيد بالرشيد فاختصه بأدب المأمون ، كما كان الكسائي يؤدب الأمين ، وصار اليزيدي يدرس في مساجد بغداد كما يدرس الكسائي ، فتولدت بين الشيخين المنافسة ، وتطاع كل منهما لغلب الآخر ، فحدثت المناظرات بينهما ، وكان اليزيدي مظهرًا في أغلبها . وقد أسلفنا القول على إحداها . ولما مات الكسائي قبله لم يقتصر في رثائه . كان اليزيدي مع علمه أديبًا شاعرًا له مجموعة شعرية فيها شعر كثير في مدح النحاة البصريين وهجاء الكوفيين ، وسندكر بعضًا منها في الكلام على المذهب الكوفي بمشاعة الله تعالى ، وله مؤلفات في متنوع العلوم ، منها مختصر في النحو . وقد بورك له في نسله فكان العلم والأدب والفضل في أبنائه وحفدته ، توفي رحمه الله بمرور سنة ٢٠٢ هـ ^(١) .

الخامسة

١ - الأنخفش

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، مولى بني مجاشع بن دارم (بطن من تميم) ، أوسط الأخافشة الثلاثة المشهورة ، فقبله أبو الخطاب الأنخفش الأكبر شيخ سيبويه الذي سلفت ترجمته ، وبعده أبو الحسن الأنخفش الأصغر تلميذ المبرد وثعلب وستأني ترجمته ، وأشهرهم ذكرًا في

(١) ترجمته في المعاجم ، وخزانة الأدب شاهد ٨٩٧ .

النحو ، فلذا ينصرف إليه الحديث عند ذكر الأنخفش مجرداً من الوصف
 في كتب النحو ، فإن قصد غيره وجب ضم الأكبر أو الأصغر إليه على
 وفاق المطلوب ، ولد ببلخ وأقام بالبصرة لطلب العلم ، وتلقى مع سيبويه عن
 جل شيوخه سوى الخليل ، ثم أخذ عنه بعد المشاركة مع كبر سنه عنه
 فكان أنحى تلاميذه ، وكان ضئيلاً بكتاب سيبويه لنفاسته حتى ظن
 به ادعائه لنفسه ، لأن سيبويه لم يقرأه على أحد ولا قرأه عليه أحد ماعداه ،
 قال : « اوضع سيبويه في كتابه شيئاً إلا عرضه على » ، وكان يرى أنه
 أعلم به مني وأنا اليوم أعلم به منه . فتشاور تلميذا الأنخفش : الجرمي
 والمازني على الحيلولة بينه وبين ما ظن فيه بترغيبه في المال ، إذ كان الجرمي
 ثرياً ، فقرأه عليه ، وظهر الكتاب ؛ فليس للكتاب طريق إلا الأنخفش ،
 فإليه يرجع الفضل في استبقائه ، كما يرجع للكتاب الفضل في إقبال
 العلماء على الأنخفش .

لما قفل سيبويه من بغداد بعد خذلانه في المناظرة الماضية استشخص
 تلميذه الأنخفش في طريقه إلى الأهواز لما سبق أنه ولي وجهه عن البصرة
 خزيّاً ، وشكاً إليه بثه وحزنه لما هاضه ، فتحرش الأنخفش بالكسائي
 ووصل إلى بغداد في الغلس ، وصلى خلف الكسائي الغداة في مسجده ؛
 ثم سأل أمام تلامذته الفراء والأحر وغيرهما ، وخطأه في إجابته حتى هم
 التلامذة بالوثوب عليه ، فمنعهم الكسائي وقال له : بالله أما أنت
 أبو الحسن سعيد بن مسعدة ؟ فقال : بلى ، فقام إليه وعانقه وأجلسه

بجنبه وأكرم مثواه . فاستحال تحرشه محبة له . وأقام عنده ينعم بالحياة السعيدة الجديدة ، وبقى في جواره ببغداد بقية حياته ، وصار مؤدب أولاده ، وقرأ له كتاب سيبويه سرّاً ، وقد تغيرت لذلك عصبية الأنخفش حتى وافق الكوفيين كثيراً في آرائهم ، فكان أكثر البصريين موافقة للكوفيين ، وكتب النحو هلائى بالمسائل التي وافقهم فيها ، وإني ذاكر لك بعضاً منها على سبيل التمثيل :

من المسائل التي وافق فيها الأنخفش الكوفيين

- ١ - إعراب فعل الأمر وجزمه بلام الأمر المقدرة على أنه مقتطع من المضارع المجزوم بها قال ابن هشام : « وزعم الكوفيون وأبو الحسن أن لام الطلب حذف حذفاً مستمراً في نحو قم واقعد . وأن الأصل لتقم ولتقعد فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة »^(١) .
- ٢ - جواز رفع الوصف فاعلاً ظاهراً من غير اعتماد للوصف ، وكذا الظرف ، قال الرضى : « والأنخفش والكوفيون جوزوا رفع الصفة للظاهر على أنه فاعل لها من غير اعتماد على الاستفهام أو النفي نحو قائم الزيدان ، كما يجيزون في نحو في الدار زيد أن يعمل الظرف بلا اعتماد »^(٢) .
- ٣ - جواز زيادة « مِّنْ » في غير الإيجاب مع المعرفة ، قال

(١) راجع المعنى الباب الأول مبحث اللام ، اللام العاملة للجزم .

(٢) شرحه على الكافية : باب المبتدأ والخبر ، تقسيم المبتدأ .

الرضى : « وغير الأخفش والكوفيين شرط فيها شرطين : كونها في غير
الموجب ودخولها في النكرات ، والكوفيون والأخفش لا يشترطون ذلك
استدلالاً بقوله تعالى : (يغفر لكم من ذنوبكم) » (١).

كما تغيرت نزعتة البصرية نزعة السماع إلى النزعة الكوفية نزعة القياس ،
بل أسرف فيها . فعول على قياسه النظري في كثير من المسائل التي لم يأبه
فيها بالفريقين ، وهاك بعضاً منها :

من المسائل التي انفرد فيها الأخفش بالقياس

١ - جواز وقوع أن بعد لعل قياساً على ليت قال الزمخشري :
« وقد أجاز الأخفش لعل أن زيداً قائم قاسماً على ليت » (٢) .

٢ - تجويزه رفع المضارع بعد حتى المسبوقة بالنفي قياساً على الإيجاب
وعدة النفي داخل على الكلام برمته . قال ابن هشام : « وأجاز الأخفش
الرفع بعد النفي على أن يكون أصل الكلام إيجاباً ثم أدخلت أداة النفي
على الكلام بأسره لا على ما قبل حتى خاصة إلخ » (٣) ، قال
الداميني : « فكأنه إنما أجاز بالقياس لا بالسمع » ، وقد سبق إلى
هذا النقل الرضى .

(١) شرحه على الكافية : حروف الجر : من .

(٢) من المفصل : القسم الثالث ، الحروف : لعل ...

(٣) راجع المنفى الباب الأول . حتى الجارة .

٣ - جواز منع الصرف لأفعل الصفة مع قبوله التاء نحو أرمل قياساً على أحمر ، قال الأشموني : « وأجاز الأخفش منعه بلحريه مجرى أحمر لأنه صفة وعلى وزنه »^(١) .

٤ - قياسية مجيء اسم فعل الأمر من الرباعي على فعّال ، قال الرضى : « وعند الأخفش فعّال أمراً من الرباعي قياساً »^(٢) .

٥ - تصغيره اللاتى واللاتى على لفظهما ، قال الرضى : « وقد صغرها على لفظهما قياساً لا سماعاً ، وكان لا يبالي بالقياس فى غير المسموع إلخ »^(٣) .

وبعد فالمخالفات التى خرج فيها على الفريقين معتمداً على قياسه النظرى غير متقيد فيها بقانون السماع كثيرة جداً . ولهذا يقول الرضى : « وأجاز الأخفش الكسر أيضاً فى " ألم الله " قياساً لا سماعاً كما هو عادته فى التجرد بقياساته على كلام العرب الذى أكثره مبنى على السماع »^(٤) . على أنه كان لتحلله من التقليد أثره فى آرائه ، فكثير ما كان له فى المسألة الواحدة رأيان فصاعداً ؛ قال ابن جنى : « وقد كان أبو الحسن ركاباً لهذا الشبج آخذاً به غير محتشم منه ، وأكثر كلامه فى عامة كتبه عليه ، وكنت إذا ألزمت عند أبى على رحمه الله أن أقول لأبى الحسن

(١) شرحه على الألفية لقول الناظم (ووصف أصلى ووزن أفعلا إلخ) .

(٢) شرح الكافية ، أسماء الأفعال .

(٣) شرح الشافية ، التصغير .

(٤) شرح الشافية ، التقاء الساكنين ، الأصل فى تحريك أول الساكنين الكسر .

شيئاً لا بد للنظر من إلزامه إياه ، يقول لى مذاهب أبى الحسن كثيرة إلخ»^(١) .

له مؤلفات كثيرة منها فى النحو : المقاييس ، والأوسط ، توفى ببغداد سنة ٢١٥ هـ .

٢ - قُطْرِب

هو أبو على محمد بن المستنير ، نشأ بالبصرة وتلقى عن عيسى ابن عمر وسيبويه وغيرهما إلا أن اتصاله بسيبويه أكثر ، كان كلما خرج سيبويه من بيته سحراً وجده على بابه فقال له : إنما أنت قطرب ليل فأطلق عليه واصق به . حذق الجدل والكلام ، ومال إلى مذهب المعتزلة النظامية ، له تصانيف كثيرة ، منها فى النحو كتاب العلال ، توفى ببغداد عام ٢٠٦ هـ .

السادسة

١ - الجَرْمَى

هو أبو عمر صالح بن إسحق مولى بنى جَرم من قبائل اليمن ، نشأ بالبصرة ، فتعلم عن شيوخها النحو واللغة ، وسمع من يونس والأنخفش الأوسط ، ولم يلق سيبويه ، وزامله فى عصره وتلقيه المازنى ، وإليهما

(١) الخصائص باب (فى اللفظين عن المعنى الواحد يراد عن العامل متضادين) .

انتهت الرياسة النحوية . وسبق أنهما ذوا الفضل في إظهار الكتاب على يد شيخهما الأنخفش ، كان الجرمي أديباً شاعراً ديناً صحيح العقيدة ، وله مناصرة مع الفراء ، ومصنفاته كثيرة ، منها في النحو مختصره المشهور لدعائه له بالبركة ، وكتاب الفرخ (فرخ كتاب سيبويه) ، ورد بغداد وأقام فيها حتى قضى نحبه سنة ٢٢٥ هـ .

٢ - التّوّزى

هو أبو محمد عبد الله بن محمد مولى قريش من توّز (بلدة بفارس) أخذ عن الجرمي كتاب سيبويه ، واشتهر باللغة والأدب فكان أعلم بالشعر من المازني والرياشي . توفي ببغداد سنة ٢٣٨ هـ .

٣ - المازني

هو أبو عثمان بكر بن محمد مولى بني سَدُوس ، ولد بالبصرة وتربى في بني مازن بن شيبان فنسب إليهم ، وأخذ عن أبي عبيدة وأبي زيد والأنخفش وغيرهم ، مع مشاركة رفيقه الجرمي ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وما لبث أن صار علم البصرة الخفاق ، وقال الناس لم يكن بعد سيبويه أعلم من المازني بالنحو ، ساعده على نبوغه قوة بيانه وأدبه ، فكان له الفلج في الحجاج ، وقد تغلب على الأنخفش مع تلقيه عنه ، استقدمه من البصرة أمير المؤمنين : هرون الواثق إليه في « سامراً » مقر الخلافة آنذاك لما أنشد مخارق قول الحارث بن خالد المخزومي :

أَظْلِمَ إِنْ مَصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظَلَمُ^(١)

بنصب رجل . ورأى علماء الكوفة حوله رفعه مع تمسك مخارق بإنشاده رواية عن المازني ، فلما قدم المازني أوجب النصب مدلالاً عليه في حديث طويل ، فأصاب نجاحاً عظيماً عند الواصل ، ثم حمّله الواصل على اختبار العلماء فوقفوا من المازني على علم جم ، ورغبه الواصل في البقاء فاعتذر وعاد أدراجه إلى البصرة مرعياً الجانب من الواصل ثم من أخيه المتوكل بعده . والمازني على طول باعه أبي التصنيف في النحو إذ كان يقول الكلمة المتقدمة في كتاب سيبويه : « من أراد أن يصنف كتاباً واسعاً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي » . نعم ألف كتاباً في علل النحو وكتاب التصريف ، وله كتب أخرى في غير النحو .

توفي رحمه الله بالبصرة سنة ٢٤٩ هـ على الأشهر .

٤ - أبو حاتم السجستاني

هو سهل بن محمد نشأ بالبصرة وأخذ عن أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة ، وقرأ كتاب سيبويه مرتين على الأنخفش ، ثم نبه شأنه فانتفع

(١) البيت المذكور من شواهد النحاة في المصدر الميمى ، وحادثته مع ما نجم عنها من الخطوة عند الخليفة مفصلة في الأغاني : أخبار الحارث ، وفي المفتى الباب الخامس آخر الجهة الأولى ، وفي الوفيات ، وكذلك معجم الأدباء وإنباه الرواة مع تفصيل الأسئلة التي وجهها المازني ، ونقل كل ذلك في شرح درة الغواص عند الوهم ٦٠ .

الناس بدراسته إلا أنه لم يكن حاذقاً بالنحو ، له مصنفات مختلفة منها
إعراب القرآن ، وكتاب الإدغام . توفي سنة ٢٥٠ هـ .

٥ - الرياشي

هو أبو الفضل العباس بن الفرّج مولى محمد بن سليمان الهاشمي ،
ولقب بالرياشي لأن أباه كان عبداً لرجل من جذام اسمه رياش ،
فانتقل اللقب من أبيه بعد الشهرة إليه . نشأ بالبصرة ، وأخذ النحو عن
المازني ، وسمع منه كتاب سيبويه ، واللغة عن الأصمعي ، ثم صار من
كبار النحاة واللغويين ، له تصانيف ليس منها كتاب نحو ، قتل وهو
يصلّي الصبح قائماً في الفتنة المشثومة (موقعة الزنج) بالبصرة المضروب بها
المثل المشهور ، كان دخولهم فيها وقت صلاة الجمعة في شوال سنة ٢٥٧ هـ .

السابعة

١ - المبرد

هو أبو العباس محمد بن يزيد من بني ثُمالة (بطن من أزد شنوءة) ،
ولد بالبصرة وأخذ عن الجحري والمازني وأبي حاتم وغيرهم إلا أن أغلب تلقيه
عن المازني ، ثم نبه قدره في البصرة ، وانتهت إليه الرياسة حتى قال الناس
ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه ، فأما سبب تلقيبه بالمبرد فقال ياقوت :
« وإنما لقب بالمبرد لأنه لما صنف المازني كتاب الألف واللام سأله
عن دقيقته وعويصه فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازني : قم

فأنت المبرّد (المثبت للحق) فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء ه ، آراءه في النحو مستفيضة في الكتب .

كان غير متقيد برأى المذهبيين : البصرى والكرفى متى بدا له رأى آخر — فمن ذلك على سبيل التمثيل منعه تقديم خبر ليس عليها ، قال ابن جنى بعد مقدمة يعيب فيها اللأئمين على المنفرد برأى جديد : « وذلك كإنكار أبى العباس جواز تقديم خبر ليس عليها ، فأحد ما يحتاج به عليه أن يقال له أجاز هذا مذهب سيبويه وأبى الحسن وأصحابنا كافة ، والكوفيون أيضاً معنا ، فإذا كانت إجازة ذلك مذهباً للكافة من البلدين وجب عليك يا أبا العباس أن تنفر عن خلافه إلخ »^(١) .

ومن آرائه الغريبة تجويزه ظهور كان بعد أما في نحو أما أنت منطلقاً انطلقت . قال الرضى : « وأجاز المبرّد ظهور كان على أن ما زائدة لا عوض ، ولا يستند ذلك إلى سماع » — كما أنه كان كثيراً ما يخطئ بعض الأساليب لسعة أفقه في الاطلاع ، فمن ذلك على سبيل المثال إنكاره وقوع الضمير المتصل بعد لولا ، مثل لولاي ولولاك ولرلاه ونحوها ، فقد ذكر بعد كلام رد به تخريجى سيبويه والأخفش لها ما نصه : « والذي أقوله إن هذا خطأ لا يصلح إلا أن تقول لولا أنت كما قال الله عز وجل : (لولا أنتم لكنّا مؤمنين) »^(٢) وتعقبه لسيبويه مشهور ،

(١) الخصاص باب (في الاحتجاج بقول المخالف) ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) راجع الكامل مع الرغبة ج ٨ ص ٤٩ والكلام مستوفى في الخزانة شاهد ٣٩٥ .

وقد ذكرنا شيئاً منه في الكلام على الكتاب .

استشرفت نفسه بغداد فاتصل بالخلفاء والأمراء ينافس ثعلباً إمام الكوفيين ذا المكانة في بغداد ، ف وقعت بينهما العداوة والبغضاء ، بلغه يوماً أن ثعلباً نال منه فقال في ذلك مغيضاً :

رب من يعنيه حالي . وهو لا يجرى ببالي
قلبه ملآن مني وفؤادي منه خالي

وجرت بينهما مناظرات تكلمنا على واحدة منها سابقاً ظفر فيها ثعلب ، ودام النفور بين الإمامين حتى لقي المبرد ربه فرثاه ثعلب ، ولقد خلف مصنفات في علوم متنوعة برهنت على أدبه الجهم وعلمه الغزير . منها في النحو المقتضب ، وشرح شواهد سيبويه والرد عليه ، وله في تاريخ النحاة طبقات النحويين البصريين وأخبارهم ، وقد نوهنا في كلمة سابقة عن كتابه الكامل ، والتعريف الكافي عنه يتطلب بسطاً لا يسعه المقام ، توفي ببغداد سنة ٢٨٥ هـ .

طبقات الكوفيين

الأولى

١ - الرؤاسي

هو أبو جعفر محمد بن الحسن ، مولى محمد بن كعب القرظي ، لقب بالرؤاسي لكبر رأسه ، نشأ بالكوفة وورد البصرة فأخذ عن أبي عمرو ابن العلاء وغيره من علماء الطبقة الثانية البصرية ؛ ثم قفل إلى الكوفة واشتغل فيها بالنحو مع عمه معاذ وغيره ، فتكونت الطبقة الأولى الكوفية ؛ ثم صنف كتابه « الفيصل » في النحو ، وقد مر في الكلام على الطور الثاني أن الخليل بعث إلى الرؤاسي يطلبه فأرسله إليه ؛ وأن سيبويه نقل في كتابه عنه كما نقل عن البصريين ، فألى الرؤاسي يرجع ببدء النحو في الكوفة دراسة وتأليفاً ، فهو رأس الطبقة الأولى الكوفية ، وكتابه أول مؤلف في النحو بالكوفة ؛ توفي بالكوفة في عهد الرشيد .

٢ - معاذ الهراء

هو أبو مسلم ، لقب بالهراء لبيعه الثياب الهروية ، وهو عم الرؤاسي ومولى القرظي أيضاً ؛ أقام بالكوفة واشتغل مع ابن أخيه في النحو غير أن ولوعه بالأبنية غلب عليه حتى عده المؤرخون واضع الصرف ؛ ولم يوقف له على مصنف ، عمر طويلاً ، وتوفي بالكوفة سنة ١٨٧ هـ .

الثانية

١ - الكسائي

هو أبو الحسن علي بن حمزة مولى بني أسد ، فارسي الأصل ، سئل عن تلقيبه بالكسائي فقال : « لأنني أحرمت في كساء » ، وقيل في السبب غير هذا ، نشأ بالكوفة ، وتعلم النحو على كبر ؛ ذلك لأنه حادث قوماً من الهبّاريين لحنوه فأنف من التخطئة وقام من فوره وطفق يتعلم النحو ؛ فأخذ عن معاذ الهراء ما عنده ، ثم توجه تلقاء البصرة ، فتلقى عن عيسى بن عمر والخليل وغيرهما ، ولما أعجب بالخليل قال له : من أين أخذت علمك هذا ؟ قال من بوادي الحجاز ونجد ومهامة ؛ فجاب هذه البوادي وقضى وطره. ثم انحدر إلى البصرة فألقى الخليل قضى نحبه ، وخلفه يونس فجلس في حلقة ومرت بينهما مسائل اعترف له يونس بها ؛ من ذلك ما قال المبرد : « ويروى أن يونس بن حبيب قال لأبي الحسن الكسائي كيف تنشُد بيت الفرزدق فأنشده :

غداً أَحَلَّتْ لابن أَصْرَم طَعْنَةً حُصَيْنِ عِبِيطَاتِ السِّدَائِفِ وَالْخُمْرُ

فقال الكسائي لما قال غداً أحلت لأبن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف تم الكلام ؛ فحمل الخمر على المعنى أراد وحلت له الخمر ، فقال له ما أحسن ما قلت ! » ^(١) .

(١) راجع الكامل مع الرغبة ج ٤ ص ٥٩ وما بعدها ، وعبيطات جمع عبيط : =

ثم عاد إلى الكوفة ينشر علمه ؛ والكوفة متعطشة إلى نحو مضارع نحو البصرة ، وفي الكسائي نشاط في الدراسة والتصنيف ، فتقوى المذهب الكوفي ، وبدأ يناهض البصري على يد الكسائي الذي دوى ذكره حتى وصل إلى سماع أمير المؤمنين المهدي في بغداد ؛ فاستقدمه لحادثة خاصة ورأى فيه عالماً خريّناً لقيناً ؛ فاستبقاه في بغداد ، وضمه إلى حاشية ابنه الرشيد ، فاحتضنه الرشيد بعد الخلافة ليؤدب ولديه الأمين والمأمون ، ثم صعد به جده وصار من الجلساء المؤانسين ، ومن هنا ساد المذهب الكوفي ، وتكاثر أتباعه ، وعز علماءه ، فعزّ على علماء البصرة شأنهم ، وجاءوا بغداد يناهضونهم ، فكانت المناظرات الماضية ، وكان الكسائي ذا تدّرّ الكوفيين في أغلبها ، له مصنفات كثيرة ، منها في النحو مختصر . وعلى يد الكسائي تكاثرت الفوارق بين المذهبين لاختلاف الاتجاهين ، وسنعتقد مبحثاً خاصاً تفصل ذلك فيه بمشيئة الله تعالى ، وأخباره ذائعة مشهورة ، وبقي الكسائي أثيراً عند الرشيد ، صاحبه مع محمد بن الحسن الشيباني في رحلته إلى فارس حتى كانوا في رَنْبُورِيَه (بلد قرب الري) أحس الكسائي بقرب المنية فتمثل بقول مؤرج السدوسي :

قَدَرُ أَحْلَكَ ذَا النُّجَيْلِ وَقَدْ أَرَى وَأَبَى مَالِكِ ذُو النُّجَيْلِ بَدَارُ

= اللحم الطري ، والسدائف جمع سديف : شحم السنام ، والبيت من شواهد التوضيح في باب الفاعل ، ومن قصيدة في مدح أخواله بني ضبة .

إلا كداركم بذى بقر الحمى هيهات ذو بقر من المزار^(١)
 ثم مات هو ومحمد، فقال الرشيد: اليوم دفنت الفقه والنحو برئبويته
 وذلك سنة ١٨٩ هـ .

الثالثة

١ - الأحمر

هو أبو الحسن علي بن الحسن المعروف بالأحمر ، كان جندياً
 من رجال النوبة على باب الرشيد ، ثم سمت نفسه إلى العلم فكان يترصد
 في الطريق الكسائي عند حضوره للرشيد ويسير في ركابه وبحاشيته جيئة
 وذهاباً يستفيد منه المسألة بعد الأخرى حتى عدّ في أصحاب الكسائي ،
 وناظر سيبويه عند مقدمه بغداد كما سنف، فلما أصيب الكسائي بالوَضَح
 كره الرشيد ملازمته أولاده فأشار عليه باختيار نائب عنه ، فاستخلف
 الأحمر إبقاء على مجده واطمئناناً منه على خضوع الأحمر له ، وعاهد
 الأحمر على أن يلقنه يوماً فيوماً ما يؤدب به أولاد الخليفة، وكان الأحمر يقظاً
 فظناً فأجاد التعلم والتعليم حتى بز أصحاب الكسائي وتبوأ مكانته ونعم

(١) الشطر الثاني من البيت الأول من شواهد النجاة على رد لام أب عند إضافته
 لياء المتكلم ، راجع مجلس ثعلب (الجزء العاشر) وأمالى ابن الشجرى (المجلس التاسع والأربعين)
 والرضى ، راجع خزانة الأدب الشاهد ٣٢٧ .

برُفَهْنِيَّة العيش ، وقد أُملي شواهد نحوية ، واجتمع عليه الناس ، وصنف كتاب التصريف ، ومات بطريق الحج سنة ١٩٤ هـ .

٢ - الفراء

هو أبو زكريا يحيى بن زياد مولى بنى أسد ، لقب بالفراء « لأنه كان يفرى الكلام » ، ولد بالكوفة من أصل فارسي ، وتلقى عن الكسائي وغيره ، وتبحر في علوم متنوعة ، فكان فذاً في معرفة أيام العرب وأخبارها وأشعارها والطب والفلسفة والنجوم ، وتقصى أطراف علم النحو حتى قيل فيه : « الفراء أمير المؤمنين في النحو » وهو الذي قال : « أموت وفي نفسى شيء من حتى لأنها ترفع وتنصب وتخفض » ، طمع في نوال الخلفاء فأنحدر إلى بغداد ، ولج في الاتصال بالمأمون حتى وصله ثمانية بن أشرس ، فحاطه الخليفة برعايته ، ورغب إليه أن يؤدب ابنه ، كما اقترح عليه أن يؤلف كتاباً يجمع أصول النحو ، وهياً له داراً خاصة فيها وسائل النعيم متكاملة ، فأخرج له كتاب « الحدود » بعد سنتين ، ومازال الفراء وجيهاً عند المأمون مغبوط المنزلة بين الأمة يؤلف ويفيض علمه حتى توفي سنة ٢٠٧ هـ .

٣ - اللّحياني

هو أبو الحسن علي بن المبارك من بنى لِحْيَان ، أخذ عن الكسائي وغيره ، وله كتاب النوادر ، توفي سنة ٢٢٠ هـ .

الرابعة

١ - ابن سعدان

هو أبو جعفر الضرير محمد بن سعدان ، نشأ بالكوفة ، وأخذ عن أبي معاوية الضرير وغيره ثم اشتهر بالعربية والقراءات ، صنف كتاباً في النحو ، وتوفي سنة ٢٣١ هـ .

٢ - الطُّوَال

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد نشأ بالكوفة . وسمع من الكسائي وغيره ، وقدم بغداد ، مات سنة ٢٤٣ هـ .

٤ - ابن قادم

هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم أخذ عن الفراء وحذق النحو وتعليقه ، واتصل بالعباسيين فأدب المعتز قبل الخلافة ، وله مؤلفات منها في النحو : الكافي ، والمختصر ، توفي ببغداد سنة ٢٥١ هـ .

الخامسة

١ - ثعلب :

هو أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب مولى بني شيبان ، ولد ببغداد في عصرها الذهبي ، وتلقى عن ابن الأعرابي وابن قادم وسلمة ابن عاصم وغيرهم ، غير أنه كان للنحو من بين علوم اللغة العربية

النصيب الأوفى من عنايته ، واعتماده فيه كان على سلمة بن عاصم ،
وهبه الله حافظة واعية مكنته أن يستظهرهما يقرؤه ، فحفظ كتب الكسائي
والفراء ، واستطاع أن يقرأ بنفسه كتاب سيبويه ، فتزعم رئاسة النحو
للكوفيين إلا أنه كان لا يجذ القياس ، اتصل بالخلفاء والأمراء كأسلافه
الكوفيين ، فأدب ابن المعتز وابن طاهر ، وجمعت بغداد بينه وبين
أبي العباس المبرد زعيم البصريين الذي نافسه شرف الرياسة العلمية والزلفى
عند الخلفاء والأمراء ، فكانت بينهما مناظرات ذكرنا سابقاً واحدة منها
فاز فيها ثعلب ، ولكل منهما شيعته وحزبه ، وسعى بينهما القتاترن ،
وكان المبرد يتطلب لقياً ثعلب كثيراً فيراوغه ويتلکأ عن إجابته . ولثعلب
مجالسة مع الرياشى سلفت أيضاً ، وله نادرة طريفة تتعرف منها نفاسة
علم النحو وأنه أحرى العلوم كلها بالرعاية ، رأيت إرجاءها الآن لتكون
مسك الختام لهذا الكتاب ، له رحمة الله عليه مصنفات شتى ، منها في
النحو : اختلاف النحويين ، والموفقى ، وما ينصرف وما لا ينصرف ، وحد
النحو ، وفي اللغة : الفصيح ، وسرى في ترجمة الزجاج تخطيطه فيه ،
وفي الأدب وغيره مجالس ثعلب ، وكانت وفاته ببغداد من صدمة دابة له
في الطريق لم يسمع وقع حوافرها وراءه لصممه سنة ٢٩١ هـ .

أسباب الاختلاف بين البصريين والكوفيين

إقليم العراق العربي من أسبق الأقاليم مدنية وعمراناً لخصب تربته ووفرة مياهه واعتدال جوه. تعاقب عليه قدماً متحضرو الأمم من البابليين والأشوريين والفرس ، كما انحدر إليه العرب من بكر وربيعة ، وكانت منهم إمارة المناذرة بالحيرة ، ولما أشرقت عليه شمس الإسلام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنشأ فيه المسلمون البصرة سنة ١٥هـ ، ثم الكوفة بعدها بستة أشهر على أصح الروايات ، وسرعان ما ازدهر البلدان وتحولت إليهما حضارة بابل والحيرة ، وهويت إليهما أفئدة من المسلمين ، وزخرا بالعلماء والقواد وتقاسما مدنية العراق ، حتى كان إذا قيل العراق فعناه البصرة والكوفة ، وكانوا يطلقون أحياناً عليهما العراقيين .

ومع أن البلدين يضمهما سياج العراق فقد غرست النزعة السياسية بينهما بذرة الضغن لما هبط الإمام عليّ كرم الله وجهه الكوفة واتخذها مقراً لخلافته ، وقدمت أم المؤمنين عائشة البصرة على رأس جيش فيه طلحة والزبير طلباً لثأر عثمان رضي الله عنه ، فكانت موقعة « الجمل » المعروفة بينهما موقعة بين البلدين ، ولعل السر في مجاوزة الإمام عليّ البصرة مع أنها على حرف البادية وتكبدته مشاق السفر إلى الكوفة مع توغلها في العراق ما عرف عن الكوفة من ميل أهلها إلى الطاعة ديانة دون البصرة

التي اشتهر أهلها بالعصيان والشقاق والعصبية ، ولكثرة اليميين بها المخلصين
للهاشميين المصدورين من القرشيين ، ومن حين هذه الموقعة اختلف
هواهما ، فالبصرة عثمانية ، والكوفة علوية ، وازداد هذا الاختلاف بتعاقب
الأيام ، قال أعشى همدان : عبد الرحمن — لسان الكوفة :

فإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل^(١)

جاءت دولة بني أمية فكان ضلعها مع البصرة التي ظاهرتها وناصرتها ،
والكوفة على تبرم وحنق مستجنيين في قلبها بضغط الأمويين عليها ؛
وفي الدولة قسوة وفي رجالها صرامة ، ثم قامت الدولة العباسية على أنقاضها ،
وكان مبدأ ظهورها في الكوفة ، فإن أبا العباس السفاح أول خلفائها إنما
تمت له البيعة فيها بفضل تشيعها ومظاهرتها للهاشميين ، ولقد حفظ
العباسيون لها تلك الصنيعة ، وعطفوا عليها وكافئوها ، فانقلب الأمر في
البلدين ، وعزت الكوفة بعد ذل ، وأفل نجم البصرة بعد تألق (وتلك الأيام
نداوها بين الناس) .

كل ذلك مما أوسع شقة الخلاف بين البلدين حتى تألب كل على
الآخر وقلب له ظهر المجن ، وفي كتاب « البلدان » لأبي عبد الله أحمد
ابن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه الشيء الكثير مما تراميا به من
الأقوال وتباريا فيه من المفانجات — نسوق هذا لتعرف متى ولد سبب

(١) البيت من قصيدة له . راجع الأغاني : أخبار أعشى همدان ج ٦ ص ٥٥ .

الاختلاف الذى جرهما إلى تطاول بعضها على بعض ، وحبب إليهما إيثار المخالفة فى المسائل العلمية على الموافقة فيها ؟ إذ ما بدأت المنافسة العلمية النحوية بينهما إلا بعد أن عملت عوامل الخلاف عملها ، ووضعت السدود الحصينة التى تحول دون الوفاق بينهما ، وتسلمت الأثرة عليهما .

وكان ذلك كما سبق فى أول الطور الثانى على عهد الخليل والرؤاسى بعد اجتماعهما أولاً فى الأخذ عن الطبقة الثانية البصرية ، بعد تكوين هذا الفن ونشوئه فى البصرة .

المذهب البصرى

لقد كان من حسن الحظ للنحو أن كانت البصرة مولده ومهدده ، لأنها اختصت بما حُرِّمته الكوفة التى ناهضتها بعد ذلك :

أولاً : أن العرب النازحين إليها من القبائل العريقة فى اللغة الفصحى استطابوها فاتخذوها دارهم ، وأكثرهم من قيس وتميم الذين بقوا على عربيتهم .

ثانياً : أنه كان على كَثَب منهم « المرْبِدُ الذى » قد اتخذوه العرب سوقاً فى الجهة الغربية منها مما يلى البادية بينه وبينها نحو ثلاثة أميال ؛ يقضون فيه شئونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه ، وقد صارت هذه السوق فى الإسلام صورة معدلة لعكاظ الجاهلية ؛ فكانت فيه النوادى الأدبية والمجامع الثقافية ، تألفت فيه حلقات الإنشاد والمفاخرة والمنافرة

والمعاشمة ومجالس العلم والأدب ، فكان الشعراء يؤمونه ومعهم روايتهم :
وكانت لفحوهم حلقات خاصة فيه قال الأصفهاني : « وكان لراعي الإبل
والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها » (١).

كما كان العلماء والأدباء والأشراف ينزلون فيه للمذاكرة والرواية
والوقوف على ملح الأخبار ، واللغويون يأخذون عن أهله ويدونون
ما يسمعون ، والنحويون يسمعون فيه ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبتهم ،
وكثيراً ما نجد التنويه عنه في تراجم النحاة واللغويين .

ثالثاً : موقعها الجغرافي فإنها على طرف البادية مما يلي العراق وأدنى المدن
إلى العرب الأقحاح الذين لم تلوث لغتهم بعامية الأمصار ، فعلى مقربة منها
بوادي نجد غرباً والبحرين جنوباً ، والأعراب تفد إليهم منهنما ومن داخل
الجزيرة العربية بكثرة . كل أولئك يسر لعلماء البصرة حينما قاموا بتدوين
القواعد أن يجدوا طلبتهم وينالوا رغبتهم ، ففي هذه الثلاثة مدد من اللسان
العربي الفصيح لا ينفد ، وهم في بصرتهم مقيمون لا يتجشمون بعدائد
أسفاراً ولا يجوبون قفاراً ، إذ لم تشتد الحاجة أولاً للرحلة في مدى الطبقتين
الأوليين من طبقاتهم ، لأنهم لما يبلغوا الغاية في تجريد القياس وتعليل
النحو وتفريعه ، ولم تضطرب الروايات في هذا الحين ، ومادة اللغة
قوية .

ولا ريب أن نشوء النحو بالبصرة إنما كان تلبية لداعي المحافظة على

(١) راجع الأغاني أخبار جرير ج ٨ ص ٢٩ طبع الدار .

صيانة اللغة العربية مما نزل بها منذراً بالخطر المدلهم الذي لو ترك وشأنه لدرجت كما درج غيرها من اللغات . كما كان واجباً على من دخل في الإسلام من غير أبناء العرب أن يتعلمه ويتعرف لغة القوم الذين صار منهم حتى يتم الاندماج بينهما وتستحكم أواصر الوحدة فيهما (إنما المؤمنون إخوة) .

والفضل في ذلك راجع إلى أبي الأسود الذي توطنها مع تشيعه للعلويين ومناوأة البصريين للعلويين وشيعتهم ، إلا أن سلطان هذا العلم استرعاهم فأقبلوا إليه يزفون ، وتحلقوا حوله ، وتدارسوا مسائله حباً في المعرفة لذات المعرفة ، ورغبة في العلم لذاته غير طامعين في مخم أو حريصين على شيء من حطام الدنيا ، وأغلبهم من الموالى الذين سعد بهم هذا العلم منذ بزغ فجره ، لأنهم من أمم مرت على مزاولة العلوم والفنون بحسب لغاتها ، فشادوا عضد أبي الأسود في التدوين وكانوا له خير معين .

كان لتعاون تلك البيئة التي تموج بمختلف العرب الذين يمثلون أغلب القبائل المعترف بينهم بسلامة سلائقها ، كما كانت تعج بالرواة والحفظة والنقدة ، وهذا الداعي العلمي الخالص — الأثر الطيب في سلوك البصريين في قواعدهم ، فحرفهم الأساليب العربية متوافرة تجود لهم بشواهد القواعد بدون مجهود يلحقهم ، ولا منافس لهم يستعجلهم ويقطع عليهم سلسلة الاستقراء حتى يثقوا بما يدونون متشدين مطمئنين إلا شيئاً واحداً ، ذلك هو منادى العلم المحض ، فكان لزاماً لذلك أنه لم تدون قواعدهم إلا

مدعومة على عناصر ثلاثة :

١ - سلامة من أخذوا عنه من العرب المقطوع بعراقهم في العروبة وصونهم فطرهم من تسرب الوهن إليها من رطانة الحضارة حتى لم يأخذوا إلا عن سكان البوادي ، بل كانوا يتحرزون عنها إذا لمحو عليهم ضعفاً اعتراهم ، فكانوا يختبرونهم أحياناً قبل التقبل لما يروون عنهم ، قال ابن جني : « ومن ذلك ما يحكى أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبي خيرة لما سأله فقال : كيف تقول استأصل الله عرقاتهم ؟ ففتح أبو خيرة التاء ، فقال له أبو عمرو هيأت ، أبا خيرة لان جيلدك » (١).

٢ - والثقة برواية ما سمعوه عنهم من طريق الحفظه والأثبات الذين بذلوا النفس والنفيس في نقل المرويات عن قائلها معزوة إليهم .

٣ - والكثرة الفياضة من هذا المسموع التي تخول لهم القطع بنظائره وتسلمهم إلى الاطمئنان عليه في نوط القواعد به ، وإلا عدوه مروياً يحفظ ولا يقاس عليه إلا إذا لم يرد من نوعه ما يخالفه ، فلا بأس من عده مبنئاً للتقعيد عليه ، ومن هنا ارتضى العلماء رأى سيبويه في إلحاق فعولة بفعيلة في النسب في حذف حرف المد وقلب الحركة فتحة اعتماداً على سماعه في النسب إلى شنوءة شنشياً وعدم سماع ما يخالفه نسباً من هذه الزنة - ولذا قال ابن جماعة في حاشيته على الجاربردى : « فهو جميع

(١) الخصال ج ١ ص ٤١٣ ، وأبو عمرو هو أبو عمرو بن العلاء ، وأبو خيرة هو نهشل بن يزيد ، راجع هذه الحكاية في ترجمة أبي عمرو في نزهة الألباء .

المسموع منها فصار أصلاً يقاس عليه .

تلك حالة السابقين منهم ، وهم بذلك خطوا الخطوة التي ترسمها خلفهم
بعدهم عندما حانت المنافسة بين البلدين ، وأخذت الكوفة تنحاز
لنفسها وتبني لها طريقاً آخر ، بل زاد عندئذ البصريون نشاطاً ومثابرة على
السير في مهاجمتهم ، إذ قد بدأ وقت ذاك اختبال الألسن ، ودخل إلى
الطبائع الفساد . ونخلص شيء من ذلك إلى الأجيال الناشئة في الحضر ،
فاختلف المصران بعضهما عن بعض . وتمكنت مئهما العصبية ،
وأخذ كل يطعن على الآخر .

كل ذلك حمل كثيراً من البصريين على التطولف في الجزيرة العربية ،
ولم يقنعهم ما بين ظهرائهم . فارتحل من رجال الطبقة الثالثة الخليل
ويونس وغيرهما ، ومن الرابعة أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي وأخذوا
عن القبائل ، وإذ توافر على الأصمعي مياه إلى غير النحو والصرف
من علوم اللغة العربية .

فأخذوا عن القبائل البعيدة من أطراف الجزيرة والبلقية في سرتها
من جنات الأعراب وأهل الطبائع المتوقفة ، وتحاموا سكان الأطراف
الحضريين المخالطين لغير العرب ، وربما كان أرقى كتاب استقرأ القبائل
من الصنفين كتاب الألفاظ والحروف للفارابي ، وقد نقل كلامه بنصه
السيوطي في المزهري (النوع التاسع ، الفصل الثاني في معرفة الفصح من
العرب) .

فأجهد هؤلاء العلماء أنفسهم وشرقوا وغربوا وتحملوا ذلك الشهور والأعوام ، وما بالوا ما نالهم من نصب أو مخمصة تفانياً في التثبت بأنفسهم من سلامة ما يروون عن العرب ، فشافهوه في أوديتهم ، وسمعوا منهم في أخبيتهم ومراعيهم وأسواقهم ومجتمعاتهم ، وقدموا للعلم خدمة جلّى ويداً لا تنسى . فعن هؤلاء أخذت علوم العربية وفي أيامهم دونت ، وجُل ما في أيدي الناس منها إنما كان بفضلهم . سأل الكسائي الخليل : من أين أخذت علمك ؟ فقال : من بوادي نجد والحجاز وتهامة ، ويقول الأصمعي : « سمعت صبية بحمي ضرية يتراجزون فوقفت وصدوني عن حاجتي وأقبلت أكتب ما أسمع ، فأقبل شيخ فقال أتكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدنا ؟ » (١) .

وما زالت الرحلة إلى الجزيرة العربية سنة متبعة عند العلماء إلى أواسط القرن الرابع ، ثم فسدت سلائق العرب فيها ، فاكتفى العلماء بآثار أسلافهم التي حوتها الكتب ، وإنما كان العلماء بعد ذلك يسألون بعض الأعراب المتوسمين بشيء من جفاء البادية ممن لم تنسخ فيهم الفطرة نسخاً ليستريحوا إلى ذلك لا ليأخذوا به ، وهذا بالنسبة إلى البادية . أما الحضرة فضعفت الثقة بشعرائه من منتصف القرن الثاني تقريباً ، يقول الأصمعي : « ختم الشعراء بابن هرمة والحكم الحضري وابن ميادة وطفيل الكناني ومكين العذري » (٢) .

(١) المزهرة « النوع السادس » ضرية بلدة ، والأقزام : القصار والأدنا : السفلة .

(٢) راجع ترجمة ابن هرمة في الشعر والشعراء ، وفي الأغاني .

بأنع البصريون في التحري والتنقيب عن الشواهد السليمة . وأبوا
 في ذلك ما شهد لهم به الدهر . فتبتاعوا عن كل شاهد مسحول ولمنع .
 وآية ذلك أول كتاب لهم ، وهو كتاب سيبويه ، وقد اعترفت له
 شهادة العلماء فيه من شيوخه وأتباعه والذين بعده . فكانت أقيستهم
 وقواعدهم قريبة للصحة لبعثها بسلامتها . فلا غرابة بعدئذ
 أن جعلوها الحكم بينهم عما يرد من الكلام غير مكثرين بما جاء مخالفاً
 لها مما لا ظهير له ولا مثيل في كثرة الاستعمال والتداول — فهم بعدئذ
 أمامه إما أن يؤولوه تأويلاً يتفق وقواعدهم ، وإما أن يستنكروه لكثرة
 ما اندس من الرواة وذوى الأهواء في اللغة . وإما أن يتلمسوا الصرورة
 إذا كان في نظم — فإن اعتاص كل ذلك عليهم فإنهم يضطرون إلى
 جعله جرئاً شاذاً يوضع في صف المحفوظات التي لا يقاس عليها .
 وفي كتب النحو ما يقفك على كل هذا . ولنضرب لك بعض أمثلة
 مما ورد مخالفاً لأقيستهم فتخلصوا منها بمثل ذلك — قضت أقيستهم :
 ١ — ألا يعمل الوصف إلا معتمداً على نفي ، أو استفهام ، أو
 موصوف ولو معنى لفظاً أو تقديرأ . فبرد عليهم قول الطائي :

خبير بنو لهب فلا تلك ملغياً مقالة لهبي إذا الطير مرت
 فيؤولونه بأن الوصف خبر مقدم والمطابقة على حد : (والملائكة
 بعد ذلك ظهير) .

٢ - وجوب تذكير الفعل مع جمع المذكر السالم وتأنيثه مع جمع المأنث السالم ، فيرد عليهم فيهما : (آمنت به بنو إسرائيل) وقول عبدة ابن الطبيب :

شكيت بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إلى ثم تصدعوا (١)
فيتخلصون بأن الجمعين لم يسلم فيهما نظم الواحد فكانا كجمعي
التكسير .

٣ - عدم نيابة الظرف أو الجار والمجرور أو المصدر عن الفاعل مع وجود المفعول به فيرد عليهم : (ليُجزى قوماً بما كانوا يكسبون)
وقول جرير :

ولو ولدت قفيرةً جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا (٢)
فيقولون : النائب في الآية ضمير الغفران ، والبيت ضرورة ،
وغير هذا .

٤ - وجوب تنكير التمييز ، فيعترض عليهم بقول رشيد الشكري :
رأيتك لما أن عرفت وجوهنا صددت وطبت النفس يا قيس عن عمرو
فلا يجدون إلا الضرورة .

(١) البيت من قصيدة في المفضليات .
(٢) قفيرة أم جد الفرزدق ، والبيت من شواهد الرضى - راجع الخزانة شاعد ٥١ .

٥ - عدم جواز تأكيد النكرة ، فيرد عليهم قول عبد الله بن مسلم الهذلي :

لكنه شاقه أن قيل ذا رجب يا ليت عدة حول كله رجبا^(١)
فيقولون : الرواية عدة حولي ، أو للضرورة .

٦ - عدم إظهار أن بعد كي فيعرض عليهم بقول الشاعر :
أردتَ لكما أن تطير بقربتي فتتركها شئنا ببیداء بلقع^(٢)
فيقولون : لا يعرف قائلة . أو لضرورة الشعر ، أو غير ذلك .

٧ - عدم عمل أن محذوفة في غير مواطنها المعروفة ، فيرد عليهم :
خذ اللص قبل يأخذك . وتسمع بالمعیدی خير من أن تراه : وأمثال
هذا فيقولون : إن ذلك شاذ يحفظ ولا يجارى في الاستعمال .

كل ذلك إنما سرى لهم من التعويل على قواعدهم . بل لقد بلغ بهم
الاعتزاز بها إلى الاعتراض على العربي المطبق على الاستشهاد بقوله كما
رأيت فيما تقدم من اعتراض ابن أبي إسحق على الفرزدق - وأغرب
من ذلك تعقب تلميذه عيسى بن عمر قول النابغة :

(١) البيت من قصيدة في معجم البلدان « أحزاب » ، وفي رغبة الآمل على الكامل
ج ٧ ص ٢١٤ وما بعدها ، وفي مجالس ثعلب الجزء التاسع ص ٤٧٤ .
(٢) البيت من شواهد شرح المفصل والرضى - راجع الخزانة شاهد ٦٥٣ .

فبت كَأَنى ساورتنى ضئيلة من الرُّقش فى أنيابها السم نافع^(١)
 إذ قال : أساء النابغة إنما هو نافعاً — وقد خطأ أبو عمرو ذا الرمة
 فى قوله :

حراجيجُ ما تنفكُ إلا مُناخة على الخسف أو نرمى بها بلدًا قفرا^(٢)
 لأن أفعال الاستمرار بمعنى الإيجاب ، فلا يصح الاستثناء فى خبرها .
 ضجر الشعراء من النحاة ، ولهذا قال عمار الكلبي لما عيب عليه بيت
 من شعره :

ماذا لقيتُ من المستعربين ومن قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا^(٣)
 ومرجع هذه النزعة إلى عيسى بن عمر وشيخه ابن أبى إسحاق من
 متقدمى البصريين ، دون غيرهما من معاصريهما ، فإن يونس وشيخه
 أبا عمرو كانا يتحرزان عن تخطئة العربى ، ويعتمدان قوله وإن

(١) البيت من شواهد سيبويه ج ١ ص ٢٦١ ، والمغنى (الباب الخامس الجهة السادسة النوع الثانى) ، والبيت من قصيدة مشروحة فى خزانة الأدب شاهد ١٥٥ .
 (٢) ذكر التخطئة الزمخشري فى المفصل ، والرضى على الكافية — راجع الخزانة شاهد ٧٣٦ ، والمغنى مبحث «إلا» والبيت من شواهد سيبويه على رفع «نرمى» ج ١ ص ٤٢٨ ، وهو من قصيدة يقال لها أحجية العرب .

(٣) مطلع قصيدة فى الخصائص باب (فى أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض إلخ) والإمتاع والمؤانسة (الليلة الخامسة والعشرون) . وإنباء الرواة ترجمة الأخفش ، وفى معجم الأدباء ترجمة ابن جنى مع ذكر البيت المعيب .

خالف القياس ، وقد غلبت النزعة الأولى الثانية على البصريين بعد
سيبويه وصارت لهم متهاجاً ، وانتقلت الثانية إلى الكوفيين ، ثم اتخذوها
إحدى دعائم القواعد كما ترى .

المذهب الكوفي

لقد عرفت أن الكوفيين تأخروا عن البصريين في هذا العلم حقبة
طويلة ، وذلك لانصرافهم أولاً عن التلقى عنهم ربّاً بأنفسهم عن الأخذ
منهم ، وما لبثوا أن شغلهم الشعر ورواياته والأدب وطرائفه ، فاستأثروا
بهذا وتنفلوا به على البصريين مدة طويلة لم يشاركوا فيها البصريين النظر
إلى علم النحو .

تنبه الكوفيون بعدئذ ، وصحوا من سباتهم ، وأرادوا مساهمة
البصريين فيه بعد أن عرفوه منهم ، وشق عليهم أن تناع شخصيتهم في
البصريين إن لم يكن لهم نحو خاص ، وبينهما ما بينهما من دواغل وإحن ،
دعاهم ذلك إلى تنظيم نحوهم على نمط خاص لا ينتحون فيه اتجاه البصريين
ولديهم في معتقدهم من الوسائل ما يبيء لهم نيل مأمولهم ، فاستمعوا من
الأعراب الثاوين بالكوفة ، وقد كانوا أقل عدداً وأضعف فصاحة ممن
كانوا بالبصرة ، وإن كان منهم لقيف من بنى أسد وغيرهم إلا أن أغلبهم
اليمنون ، وأهل اليمن في عين أهل التمييز ممن لا يستند إليهم ، لخلاطهم
الحبشة والهند والتجار الذين يفدون إليهم من مختلف الأمصار ، ولم تقم

سوق « الكناسه » بالكوفة التي كانوا يرتفقون منها حاجتهم مقام « المربد » بالبصرة ، مهبط الشعراء والخطباء من العرب المياسير والأعراب العُقف المنتجعين للأرزاق .

هذا مع قصصهم عن جزيرة العرب ينبوع معين هدا العلم ، وحيلولة صحراء السماوة بينهم وبينها ، فلم تكن لهم فيها إلا رحلات قليلة لبعث الشقة وثقل المؤونة ، كرحلة الكسائي المعروفة ، وهو زعيم طبقتهم الثانية التي تحاذى الرابعة البصرية . أما طبقتهم الأولى فلم تكن لها رحلات ، على حين أن الطبقة الثالثة البصرية التي تقابلها أبلت في الرحلات بلاء حسناً عاد على اللغة العربية بالأثر الذي لا يبلى .

على أنه لم يقف ذلك دون رواج الشعر فيما بينهم ، والشعر على كل حال ذو النصيب الأوفى في تدوين القواعد بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، لتماسكه ومصابرته لأحداث الزمان . بل قد فاقوا البصريين في علمه بفضل الأوراق المظمورة من عهد النعمان بن المنذر . نقل ابن جني عن حماد الراوية الكوفي ، « قال : أمر النعمان فتمسخت له أشعار العرب في الطنوج (الكراريس) ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي قيل له إن تحت القصر كنزاً فاحتفراه ، فأخرج تلك الأشعار . فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »^(١) .

(١) الخصائص باب (فيما يرد عن العرب مخالفاً لما عليه الجمهور) ، ومن خبر المختار أنه وثب بالكوفة سنة ٦٦ هـ في عهد عبد الله بن الزبير طلباً لنثار البيت العلوي ، فوجه إليه أخاه مصعباً فقتله سنة ٦٧ هـ ، وهو من رؤوس الفتن في الإسلام .

ولقد كانوا قبل العثور على هذه الأوراق مسوقين إلى الشعر عن
 رغبة ملحة وغريزة فيهم متأصلة منذ حل العرب الكوفة . يؤيد ذلك
 أن علياً كرم الله وجهه لما رجع بهم من قتال الخوارج ، على أن يستعدوا
 لقتال أهل الشام ، ثم تخاذلوا عنه ، لم ير أبلغ في ذمهم من صفة التشاغل
 بالشعر ، فقال في خطبته حين خطبهم : « إذا تركتكم عدتم إلى
 مجالسكم حلقاً عزين تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار . تربست أيديكم ،
 وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها
 وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل » .

إن العثور على الأوراق السالفة الذكر صادف هوى من نفوسهم
 فازدادوا بها إقبالا على الشعر ، وزخر بحره عندهم وقذف فيه بالملح والطرف
 إلا أن النحل والافتعال طغيا عليه ، حتى التبس الأمر على الناس ،
 وأسند القول إلى غير قائله ، قال أبو الطيب : « الشعر بالكوفة أكثر
 وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ،
 وذلك بين في دواوينهم » ^(١) .

حقاً لقد كان ذلك إذ كان من روايتهم حماد المذكور الذي جر
 عليهم التلبيس في المرويات والازدياد عليها من مختلفاته ، وقد كان
 ضليعاً في الشعر وآداب العرب إلا أنه رقيق الأمانة ، قال فيه المفضل الكوفي :
 « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ،

(١) مراتب النحويين ص ١١٩ ، ونقل في المزهرة النوع الرابع والأربعين .

فقليل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل عنه ذلك في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » (١) .

بل إن خلفاً الأحمر البصرى زاد ذلك ضغثاً على إبتالة ، فقد كان كذلك مضرب المثل في محاكاته من ينسب إليهم الشعر ، روى عنه الكوفيون كثيراً من الشعر ، « وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، لأنه قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد ، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا له أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى ذلك في دواوينهم إلى اليوم » (٢) .

ومع أنه بصرى لم يعرف عنه أنه لبس على البصريين وروى لهم شعراً منحولاً ، وربما كان منشأ ذلك العصبية البلدية التي تملئ على المتأثر بها ارتكاب ما لا يجمل في المسائل العلمية ، وقيل إنه فعل ذلك

(١) هذه الكلمة في الأغاني ، ترجمة حماد ، وفي معجم الأدباء في كل من ترجمة حماد وترجمة المفضل ، وفي خزانة الأدب شاهد ٧٧٤ .

(٢) المزهر النوع الرابع والأربعين .

انتقاماً لنفسه ، إذ ذهب إلى الكوفيين أولاً للتلقى عنهم فبخلوا عليه بشعرهم . قال أبو زيد : « حدثني خلف الأحمر قال : أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا عليّ به . فكنت أعطيهم المنحول وأخذ عنهم الصحيح ، ثم مرضت فقلت لهم : ويلكم أنا تائب إلى الله ، هذا الشعر لي ، فلم يقبلوا مني ، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب »^(١) .

إن المصادفة التي جمعت بين هذين الوضّاعين لكفيلة بتورث الكوفيين توهيناً لمذهبهم ، فليس في الرواة جميعاً على كثرتهم ومحاولة بعضهم الصنع من يداني حماداً وخلفاً ، فهما طبقة في التاريخ كله يعرف ذلك من له إلمام بالأدب .

أبصر ذلك البصريون فصادفوا عن شواهد الكوفيين واطّرحوها ظهرياً . ولم يسمع عنهم إلا ما وقع من أبي زيد البصري الذي نقل عن المفضل الضبي الكوفي . لأنه غير متأثر بالعصبية البلدية ، وقر عنده صدقه . قال السيرافي : « ولا نعلم أحداً من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد ، فإنه روى عن المفضل الضبي . قال أبو زيد في أول كتاب النوادر : أنشدني المفضل لضمرة ابن ضمرة النهشلي ، جاهلي :

بكرت تلومك بعد وهن في الندى بسلّ عليك ملامتي وعتابي

(١) هذه الكلمة في وفيات الأعيان (ترجمة أبي زيد) .

الأبيات . . وعامة كتاب النوادر لأبي زيد عن المفضل ^(١) ،
 في حين أن الكوفيين يتلقون بالقبول رواياتهم ويعتمدون على شواهدهم .
 على أنه ما كاد الكسائي - وهو ناشر المذهب الكوفي وصاحب
 الفضل فيه - يبين ببغداد حتى استمع إلى الأعراب الذين فيها وحولها ،
 وهم أوشاب من مختلف القبائل غير العريقة في العروبة ، ومنهم أعراب
 الخليجات الذين قدموا ببغداد وضربوا خيامهم في قطربتل (قرية من
 متنزعات ببغداد اشتهرت باللهو والحر) ، فاعتد بكلامهم واستشهد به ،
 وهم من زعانف العرب الذين اختبل لسانهم : فازداد مذهبه ضعفاً على
 ضعف . قال أبو زيد : « قدم علينا الكسائي البصرة فأتى عيسى
 والحليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم سار إلى ببغداد فلقى أعراب
 الخليجات فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان
 أخذه بالبصرة كله » ^(٢) .

ولولا هم ما فاز الكسائي وانخدل سبويه في المناظرة البغيضة .
 فإن الكسائي إنما اعتمد على لغتهم ، واحتج بكلامهم . وكانوا له
 مظاهرين ولذلك قال اليزيدي :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول

(١) أخبار النحويين البصريين ، ترجمة أبي زيد .
 (٢) راجع أخبار النحويين البصريين ، ترجمة أبي زيد ، والتصحيح والتحريف ،
 ماوم فيه الكسائي ، ومعجم الأدباء ، ترجمة الكسائي .

فجاء أقوام يقيسونه على لُغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما به يصاب الحق لا يأتلى
إن الكسائي. وأصحابه يرقون في النحو إلى أسفل^(١)

وقد اقتصى الكوفيون طريق الكسائي ، فعولوا على شعر الأعراب
بعد أن امتزجوا وتأشبهوا بالمتحضرين ولأن جفاؤهم ، ومن أجل هذا
كان البصريون يغمزون الكوفيين ، فيقول الرياشي البصري : « نحن
نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة من
أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز »^(٢) .

من ذلك كله ترى أنه لم تهياً لهم بيئة تصلح أن تكون منبعاً لنير هذا
الفن كبيئة البصريين بمن فيها وفي أرباضها وما دنا منها من العرب
الخلص ، يضاف إلى هذا ما استفزهم للعمل حثيثاً في إبراز فن لهم
يضارع الفن البصري غيره منهم وحنقاً على البصريين ، فأصاخوا إلى
كل مسموع لهم وقاسوا عليه ، فعثرت بهم عجلة الرأي ، ولم يدققوا
تدقيق البصريين بل تدرجوا مطاوعة لمناديتهم إلى الاكتفاء بالشاهد
الواحد ولو خالف الأصل المعروف المتفق عليه بين الفريقين . قال

(١) راجع شعر اليزيدي في ترجمته في أخبار النحويين البصريين ، ومعجم الأدباء ،
وفي التصحيف والتحريف (ما وهم فيه الكسائي) .

(٢) حرشة جمع حارش صائد الضب . الكواميخ جمع كامخ نوع من الأدم ،
والشواريز جمع شيراز اللبن الشخين ، راجع ترجمة الرياشي .

الأندلسي : « الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه بخلاف البصريين » .

وقد يتساهلون مع هذا في التثبت من معرفة القائل ، وربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر ولا يعلم قائله كدليلهم على جواز دخول اللام في خبر لكن بقول المجهول :

. ولكنني من حبها لعميد (١)

وأول من سن لهم طريقة التسامح إلى أبعد مدى شيخهم الكسائي « وذلك أن الكسائي كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه حتى أفسد النحو » (٢) .

وسترى عند حكمة تخصص كل من المذهبين إشادة الكسائي بالقياس ، وكثر ما انحدر الكوفيون فناطوا القاعدة بالقياس بدون ورود لمطلق شاهد ، فمن ذلك :

أمثلة للقياس الكوفي

١ — تجويزهم مجيء العدد للتكرار على وزني فُعَال ومتفَعَل ممنوعاً من الصرف للوصفية والعدل من خمسة إلى تسعة مع أن المسموع عن

(١) باب إن وأخواتها من شواهد الزمخشري في المفصل ، والرضي في شرح الكافية .
راجع الخزانة شاهد ٨٦٥ ، والمغني مبحث (لكن) .
(٢) معجم الأدباء ، ترجمة الكسائي .

العرب في ذلك من واحد إلى أربعة . لكنهم قاسوا في الباقي عليها قال
الرضي : « والمبرد والكوفيون يقيسون عليها إلى تسعة نحو خمس وخميس
وسداس ومسدس ، والسماع مفقود »^(١) .

٢ - تجويزهم تشنية أجمع وجمعاء وتوابعهما قياساً على جمعها ،
قال الرضي : « وقد أجاز الكوفيون والأنخفش لمثنى المذكر أجمعان
أكتعان أبصعان أبتعان ، ولمثنى المؤنث جمعان كتعاوان بصعاوان
بتعاوان ، وهو غير مسموع »^(٢) .

٣ - تجويزهم الجزم بكيف مطلقاً قال الرضي : « والكوفيون
يجوزون جزم الشرط والجزاء بكيف وكيفما قياساً ، ولا يجوز البصريون
إلا شذوذاً »^(٣) .

٤ - تجويزهم النصب بأن مضمرة في غير المسائل المعهودة قياساً
قال الرضي : « وقد تنصب مضمرة شذوذاً . والكوفيون يجوزون النصب
في مثله قياساً »^(٤) .

٥ - ومثل ما تقدم تجويزهم عطف المفرد بلكن بعد الإيجاب
نظير بل بعده ، قال الرضي : « أجاز الكوفيون مجيء لكن العاطفة للمفرد

(١) شرح الكافية ، غير المنصرف .

(٢) شرح الكافية . التأكد .

(٣) شرح الكافية ، باب الظروف « كيف » .

(٤) شرح الكافية ، آخر نواصب المضارع .

بعد المرجب أيضاً ، نحو حائى زيد لكن عمرو ، حملاً على بل ،
وليس لهم به شاهد» (١) .

٦ - ومثل ذلك تجويز إضافة (كذا) إلى مفرد أو جمع قياساً على
العدد الصريح ؛ قال ابن هشام : « خلافاً للكوفيين أجازوا في غير
تكرار ولا عطف أن يقال كذا ثوب كذا أثواب قياساً على العدد الصريح » (٢) .

إن الكوفيين بعمائمهم هذا قد فتحوا باباً واسع الفوهة على أنفسهم ،
فهم إذ أقاموا لكل مسموع وزناً ، والمسموع في اختلافه لا يقف عند
نهاية ، واعتمدوا بعد هذا على القياس النظري عند انعدام الشاهد انعداماً
كافياً . قد اضطروا إزاء هذا أن وضعوا قواعد كثيرة خالفوا فيها البصريين ،
بل قاموا بوضعها جرياً على سنتهم للشئء الواضح متى ورد على صور متغايرة
قواعد بقدر صورته . فكثرت عندهم التجويز للصور المتخالفة . كما قل
عندهم ما كثر عند البصريين من التأويل والشذوذ والاضطرار والاستنكار .
وعلى سبيل الإيضاح نوجه نظرك إلى ما ذكرنا من الشواهد السبعة التي
عقبنا بها اعتراضاً على المذهب البصرى ، وقد رأيت كيف تخلص منها
البصرى ، أما الكوفى فقد اعتمدها وضم ما يستفاد منها إلى قواعد مذهبه ،
وجعلها دعائم أقيسه أخرى تضاف إلى أقيسته : ولا جناح في تعدد الأقيسة
وإن اعترت نوعاً خاصاً في المعنى ، فما ذلك عنده إلا ذريعة من ذرائع

(١) شرح الكافية ، حروف عطف النسق .

(٢) المغنى الباب الأول (كذا) .

التنويح في التعابير ، وبقدرها تكون الأقيسة ، وفي ذلك من السرف والإرهاق لطالب النحو ما فيه — لكننا بعد ذا لا نقصد رمي هذا المذهب بالضعف في كل قواعده وإلا كان تجنباً عليه . فقد ظهر عند الموازنة بين المذهبين فيما اختلفا فيه تفضيله في بعض مسائل ذات بال ، والحق أحق أن يتبع ، ولترى ذلك مجلواً نسوق إليك أربع قواعد لهم على سبيل الإرشاد إلى صحة ما نقول :

١ — عدم لزوم إبراز الضمير مع الوصف الجارى خبراً على غير ما هو له حالاً أو أصلاً مع أمن اللبس ، والشواهد على ذلك كثيرة قال الأعشى :

وإن امرأ أسرى إليك ودونه من الأرض مومة وببداء سملق
لمحقوقة أن تستجيبى لصوته وأن تعلمي أن المعان موفق^(١)

وقد حاول البصريون إجابات كلها لا تقوم على قدم . منها أن المصدر المنسبك من أن والفعل نائب فاعل لمحقوقة ، وتأنيسها حينئذ جائز لأن نائب الفاعل الاستجابة فلا ضمير في الوصف ، وغير ذلك ، ولهذا قال ابن مالك في كافيته .

(١) استشهد بهما الرضى على الكافية لمذهب الكوفيين ، راجع الخزانة شاهد ٣٨٧ ، وهما من قصيدة في مدح المخلوق الكلابي شرح بعضها في الخزانة الشاهد المذكور وشاهد ٢٠٤ و ٥٢١ ، وكلها في رغبة الآمل على الكامل ج ١ ص ٤٠ وما بعدها ..

وإن تلا غير الذى تعلقا به فأبرز الضمير مطلقا
فى المذهب الكوفى شرط ذاك أن لا يؤمن اللبس ورأيهم حسن

٢ - صحة الفصل بين المتضايقين فى السعة بمنصوب المضاف مفعولا به
أو ظرفاً أو بالقسم ، ولا شك فى ورود ما يصحح هذه القاعدة ، فقد
وردت الشواهد فى النثر للثلاثة ، ولنكتف بشاهد على الفصل بالمفعول به ،
قرأ ابن عامر أحد السبعة قوله تعالى : (وكذلك زين لكثير من المشركين
قتل أولادهم شركائهم) وقد ردها الزمخشري الذى وافق البصريين ،
قال الصبان (ولا عبرة برده مع ثبوتها بالتواتر) فالحق مع الكوفيين ،
ولذا يقول ابن مالك :

فصل مضاف شبه فعل ما نصب مفعولا أو ظرفاً أجز ولم يعب
فصل يمين

٣ - عمل اسم المصدر عمل فعله ، وشواهد أكثر من أن تحصى ،
قال صلى الله عليه وسلم : « من قبلة الرجل امرأته الوضوء » ، وقال
القطامى :

أكفراً بعد رد الموت عنى وبعد عطائك المائة الرتاعا^(١)

(١) البيت من شواهد الرضى - راجع الخزانة شاهد ٥٩٩ وهو من قصيدة طويلة
فى مدح زفر الكلابى .

ليس أمام البصريين إلا الاستنكار لرواية الحديث ، والضرورة للنظم ، والتمسح بهذين مجابة إلى التبعات والتضييق . ولقد أجاب ابن مالك إذ قال :

..... ولا سم مصدر عمل

٤ - جواز العطف على ضمير المخفوض بدون عود الخافض في السعة .
 فراء حمزة وغيره قوله تعالى : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) .
 بجر الأرحام - لقد ضاق الخناق على البصريين ، والرضى بعد التردد لما عساه أن يدافع به البصريون لم ير بُدّاً من أن يقول : « والظاهر أن حمزة جوز ذلك بناء على مذهب الكوفيين ، لأنه كوفي . ولا نسلم تواتر القراءات السبع » ^(١) .

وفي هذا الدفاع شطط ، ومن ذلك جنح ابن مالك إلى رأى الكوفيين فقال :

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفّض لازماً قد جعلاً
 وليس عندى لازماً إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مشبهاً
 حتى في تعبيره بخافض بدل جار كما هو معروف ، ولولا خوف الإطالة لوافيناك بشواهد كثيرة تفضي إلى الاطمئنان لهذه القواعد كوضح

(١) شرحه على الكافية ، عطف النسق .

النهار ، ومعها دفاع البصريين الذي لم يضرها ، والواقع أن البصريين كانت محاولاتهم في نقضها غير مجدية وبمجردة عن النصفية ، فقد تعسفوا غاية التعسف بما لا ترضاه العدالة ، ولا يستقيم في المنطق « وما كل مرة تسلم الجرة » .

من هذا البيان يتضح لك معرفة طريقة كل من المذهبين الخاصة به ، وبقي أننا نجيّب على ما قد يدور بخلد الناظر من السؤال عن الحكمة في تخصيص كل باتجاهه ؛ ولم لم يعكس الأمر ؟ فنقول :

حكمة تخصيص كل من المذهبين باتجاهه

إن ذلك يعتمد في الحقيقة أولاً وبالذات على اختلاف نزعتيها الطبيعية ، فهي التي توجه كلا منهما على حسب ما تقتضيه وتوجيهه ، ونزعتيها متغايرة لتغاير الموقع الطبيعي للبلدين .

ذلك أن البصرة قد أنشئت على طرف البادية في صقع عاش في الحرية البدوية الآمادة الطويلة ، فلم يمتد إليه نفوذ أجنبي يُسَلِّن من شكيمته ، والعرب النازلون فيها لم يتعرّضوا ما يبطل صلابة عقليتهم العربية ، وقد تجلّى ذلك في كل ما يتصل بهم من علوم وغيرها ، أما الكوفة فقد أنشئت على مَدَنِيٍّ من « الحيرة » قاعدة المناذرة قديماً في صقع كان تحت إشراف الأكاسرة خانعاً لإمرتهم ، دبت إليه الروح الفارسية في علومها وأنظمتها من حرية التفكير والعنوّ لسلطان العقل والدأب على التوسع في

الابتكار وانفساح الميدان للآراء ، وتسربت هذه الروح فيمن توطئها من العرب وأقام فيها ، فكانت نزعة الكوفة في عمومها تخالف نزعة البصرة في عمومها أيضاً ، ولا جرم أن هذا الاختلاف إنما كان بفعل الطبيعة البلدية التي لا يرد قضائوها في النفوس والعقول والعلوم والدربة وما إلى ذلك ، فكان حتماً مقضياً أن يسلك البصري في أصول مذهبه مسلك الشدة والمحافظة على المأثور ، وأن ينهج الكوفي في أصول مذهبه طريق السهولة والرواية ، ومن ثمة اختلف مبنى المذهبين في قواعدهما على ما تقدم تفصيلاً ، والتزام البصري هذا التشديد أمل منه أن يسود اللغة نظامٌ مطرد بقوانين محدودة مستقاة من الأساليب العربية الصحيحة المتضافر على أمثالها — إذ ما من ريب أن اللغة العربية لغات قبائل شتى تباينت في بعض ألفاظها ولهجاتها وتميزت في شيء من تراكيبها ، ذلك أن العربي غير مقيد بضوابط وضعية لا يتخطى حماها ، بل يرسل الكلام على حسب مشيئته في أي غرض كان غير خاضع لنظام يسيطر عليه . وقد ينزع في غير قوسه ، لتأثره بعامل أجنبي يعرض له فيجانب جادة الطريق في بعض الأحيان ، وقد مر في المذهب البصري تعقب ابن أبي إسحاق للفرزدق ، وعيسى بن عمر للنابغة ، وأبو عمرو لذي الرمة : وعيهم لعمار الكلبي مع شعره ، قال أبو علي الفارسي في تعليل أغلاط العرب : « إنما دخل هذا النحو كلامهم ، لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها ، وإنما تهجم

بهم طبائعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن
القصص^(١) .

رأى ذلك البصرى وقد رغب رغبة صادقة فى وضع قواعد عامة
لأنواع الإعراب فى جزئيات الكلام عند الاستعمال يجب أن تطبق
ويسار على منهاجها بدقة وحزم ويتحاشى بها عن الأساليب المبهرجة ، فلم
يجد بداً من أن يقف عند الشاهد المذعن بصحته المتكاثرة نظائره ضارباً
صفحة عما عداه من المرويات الضعيفة ، أو الشاذة أو المنحولة ، مما
يؤدى اعتمادها إلى الفوضى والاضطرابات وعدم الوقوف عند غاية ،
وذلك كله من البصرى نزوع إلى شئشئته الأولى . أما الكوفى فقد حمله
على مسلكه احترامه كل ماورد مسموعاً من العرب وكفى ، والتيسير للناس
أن يستعملوا استعمالهم على مقتضى ما أثر عنهم ، فلا ضير على القائل
متى حاكى أى استعمال كان ، وما القواعد إلا وليدة اللغة ، فهى
ذات السلطان عليها دون العكس — هذا مع الترخيص بالقياس على
مقتضى رأى إذا فقد الشاهد ، وما كان ذلك من الكوفى إلا تأثراً
بنزعتهم الطبيعية أيضاً .

من ذلك ترى أن كلاً من المذهبين قد اتخذ له سبيلاً خاصة عرف بها
حتى صار لكل طابع يخالف طابع الآخر ، فكان نتيجة ضرورية
لهذا أمران :

(١) المزهراول النوع الحسين ، معرفة أغلاط العرب .

الأول : أن ما كثر من الأمور الأربعة التي تختلفت عن القياس عند البصري بحسب المقتضيات من التأويل والشذوذ والاضطرار والاستنكار قد قلت عند الكوفي .

الثاني : أن الأقيسة التي اعتمد عليها البصري في تدوين مذهبه على العكس من ذلك ، فهي قليلة عنده بالنسبة إلى الأقيسة التي تكون منها المذهب الكوفي ، ومن ثمة قيل إن مذهب البصريين مذهب السماع ، ومذهب الكوفيين مذهب القياس ، ولذا يقول الكسائي :

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل أمر ينتفع^(١)

وفي المسألة الزنبورية الماضية في المناظرة ما يشهد بذلك ، فسيبويه يتمسك بالرفع ويأبى النصب ، لأنه الإعراب المستفيض في التراكيب الواردة على سننه ، ويجيز الكسائي النصب للقياس عنده .

تلك هي الحالة العامة في المذهبين بالنظر إلى جمهوريهما ، ولا ينافي ذلك أن بعض البصريين قد يميل إلى المذهب الكوفي في بعض المسائل لما انقلح في ذهنه ، وقد عرفت في ترجمة الأخفش أنه أكثر البصريين موافقة للكوفيين ، وأن منشأ ذلك راجع إلى توطئه بغداد في جوار الكسائي الذي احتفى به وأكرم مثواه طيلة حياته الأخيرة ، كما أن بعض الكوفيين قد يرى المذهب البصري في بعضها أيضاً لمثل ذلك ،

(١) البيت مطلع قصيدة في المعجم ، والإنباه ترجمة الكسائي .

وربما خرج على الرأيين بعض من الفريقين وابتكر مذهباً له خاصاً ، بل قد يتشعب الخلاف بين رجال الفريق وحده . على أنه لم يقف الخلاف بين الفريقين عند المسائل العلمية بل سرت عدواه إلى التسمية في المصطلحات العلمية الكثيرة جداً . والحقيقة أن ذلك ليس من مصلحة العلم في شيء ، وربما جر على المتعلم الإرهاب والنصب ، فإنه إذا اطلع على كتب البصريين وعرف قواعد باب باسمه مثلاً ، ثم قرأ كتب الكوفيين وأراد الباب نفسه فلا ريب أنه محتاج إلى اسمه عندهم حتى يهتدى إليه ، وفي ذلك مضیعة للوقت ، وهاك بعض أمثلة من هذا :

يقول البصري النعت والكوفي الصفة — والبصري البدل والكوفي الترجمة — والبصري الظرف والكوفي الصفة أو المحل — والبصري حروف البحر والكوفي الإضافة — والبصري البحر والكوفي الخفض — والبصري المصروف وغير المصروف والكوفي المجرى وغير المجرى — والبصري واو المعية والكوفي واو الصرف — والبصري ضمير الشأن والكوفي ضمير المجهول — وهكذا .

والمُربى على هذا في العجب اختلافهم في التعليل — نطق العربي بسكران ممنوعاً من التنوين ، فيقول البصري للشبه بألفي التأنيث والكوفي لزيادة الألف والنون — وفي معنى الكلمة نطق العربي (باسم الفعل) فيتفرق البصريون والكوفيون في مدلوله وموقعه على أقوال شتى .

لقد شغف القوم بالخلاف وثوران المراء بينهم فيما جل من العلم

وما دق ، ولذا يقول فيهم على سبيل التندر يزيد بن الحكم الثقفي :

إذا اجتمعوا على ألف وواو وياء ثار بينهم جدال^(١)

ولم يك عجباً وغريباً أن يتبرم أبو غسان دماذ ، صاحب أبي عبيدة ، لما سمع رأى البصريين في نصب المضارع بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء والواو وأو بدون اعتبار هذه الأحرف ناصية كما يقول الكوفيون ، فيكتب إلى شيخ البصرة أبي عثمان المازني قصيدة مطلعها :

تفكرت في النحو حتى مللت وأتعبت نفسي له والبدن

ثم يستعرض فيها رأى البصريين السابق ويختتمها بقوله :

فقد كدت يا بكر من طول ما أفكر في أمر (أن) أن أجن^(٢)

ولو أن الخلاف النحوي أغلق بابه بعد البصري والكوفي على ما به في مناحيه المختلفة المضطربة لهان الخطب ، ولكنه تشعبت مسالكه

(١) أي إذا اجتمعوا للبحث عن أحرف العلة ثار النزاع . والبيت من شواهد النحاة على إعراب أسماء الحروف الهجائية إذا ركبت كما في البيت ، راجع شرح المفصل ج ٦ ص ٢٩ والرضي راجع الخزانة شاهد ٩ وروى الحريري في درة الغواص عن الأصمعي : أنشدني عيسى بن عمر بيتاً هجاً به النحويين راجع الوهم ١٧٥ .

(٢) القصيدة في عيون الأخبار كتاب العلم والبيان (الإعراب واللعن) ج ٢ ، والنوادر للقال ص ١٨٦ ، والمقد الفريد الياقوتة في العلم والأدب (نوادير من النحو) وأخبار النحويين البصريين ترجمة المازني ، والإنباء ترجمة دماذ .

بعدهما ، فكان المذهب البغدادي والأندلسي وغيرهما من المذاهب الشخصية الخاصة الملققة بما أجهد النحوى وأنصبه ، على أنه في خلال هذه المذاهب الرئيسية خرج الكثير من علمائها عليها فلم يقف عند إجماع ، وسبق في ترجمة الأنخفش والمبرد ما تعرفت منه بخروجهما على المذهبين البصري والكوفي ، وما عاب العلماء اتخاذ أحدهم مذهباً مستحدثاً متى كان مستنده قوياً ، فإن المذاهب مبنية على ظنون قوية فقط ، قال ابن جني : « وإنما لم يكن فيه قطع لأن للإنسان أن يرتجل من المذاهب ما يدعو إليه القياس ، ما لم يُلَوِّ بنص أو ينتهك حرمة شرع إلخ »^(١).

واقعد مئى هذا الفن من بين الفنون قديماً وحديثاً بكثرة الأقوال وتضارب الآراء ، ويشفع لذلك أن أساسه الأهم من استعمالات العرب لم يسلك اتجاهها متوحداً معيناً ، فالقبائل التي اعتمد بها ، وأخذت عنها الشواهد ، مختلفة في كثير من الأساليب ، يضم إلى ذلك اضطراب المرويات نفسها وورودها بألوان متغايرة قد تتباعد معانيها في بعض الأحيان ، فينتقل البيت من مدح إلى ذم وبالعكس وهكذا ، وربما عُتمى الأمر واشتبه الحال ، وهنا المرتع للتصحيف والتحريف ، والأمثلة في كل ذلك متعارفة مشهورة ، وتقدم لك بعض منها في شواهد سيبويه ، وسيرد عليك كثير منها في الكلام على المغنى وشرح الأشموني وحاشية

(١) الخصائص باب (في الاحتجاج بقول المخالف) ج ١ ، ص ١٩٦ .

الصبيان ، بما تعرف منه انتشار التصحيف والتعريف في كتب النحاة ،
 ووراء هذين الأمرين الفوضى المنتشرة في نسبة الشواهد لقائلها ، فقد
 ينسب الشاهد لاثنين فأكثر ، وقد يقع التوزيع للبيت ، فبعضه لقائل
 وبعضه لقائل آخر ، لقد زاد الأمر على حدّه ، وطفح الكيل أمام
 النحويين ، فلا غرابة أن يختلف النحاة حينئذ في أحكامهم لاختلاف
 التقادير بينهم في الشواهد فتكاثر الأقوال حتى تقابلت وتناقضت ،
 وحق لكل أن يقول مايقول ، لأنه قد قيل ، ومن هنا يدرك صدق
 القائل :

«عجبت لنحوى يخطئ» .

الواقع الذي لا يمارى فيه اثنان أن علم النحو واسع المضطرب كثير
 القواعد متشعب التطبيق على الجزئيات الكلامية التي لا تحد بغاية ، وليس
 مقصودنا الآن هذا ، إنما زج بنا إليه الاستطراد ، وسنذكر كلمة
 خاصة في ذلك بمشيئة الله تعالى ، وإنما الذي نعني به بيان الأسباب
 التي أوجت إلى التخالف بين الفريقين فحسب ، ونمط التخالف بينهما ،
 وما نجم عن هذا التخالف من المسائل على أن يكون البحث محصوراً
 في المسائل العلمية لا فيما يتصل بالتسمية للأبراب ؛ ولا فيما يرتبط
 بالتوحيد لما وقع الخلاف فيه ، ولا فيما يعود إلى المدلول لبعض الأنواع ،
 فإن ذلك يقتضينا شيئاً كثيراً .

فإذا كان البصرى قد تحفظ في أقيسته وتشدد ، والكوفي قد تحلل

من القيود التي تقيّد بها البصري واحتفى بكل مسموع له على كثرة روايته للشعر عنه ، وكلفه بالشاذ منه ورواج المنحول عنده ، واكتفائه بالشاهد الواحد أيّاً كان شأنه ، مع التعويل على القياس النظري — أدركت سعة الفجوة بين الفريقين في مسلكيهما .

نتائج المخالفة بين المذهبين

لقد ترتب على ما سلف أن اختلف البلدان في فروع كثيرة جداً يخطئها العدو ويُعيي الحاصر استقراؤها ، وذهب كل منهما ينصر مذهبه بأدلة نقلية وعقلية على وفق منهجه ، واحتدم الخلاف بينهما في ذلك طويلاً؛ وقد آلف في بعض هذه المسائل أسفار خاصة ، وأغلب الظن أن أول من كتب في ذلك ثعلب ، ألف كتابه « اختلاف النحويين » ، ثم ترادفت المؤلفات فصنف ابن كيسان كتابه « المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون » ، ثم دوّن بعده أبو جعفر النحاس المصري مؤلفه « المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين » ، ثم ألف بعده ابن درستويه كتابه « الرد على ثعلب في اختلاف النحويين » ، وهذه الكتب لم نطلع عليها حتى نقدر ما فيها عن خبرة — وجاء بعد هؤلاء كمال الدين الأنباري ، وجرد قلمه لتقصي طائفة كبيرة من هذه المسائل ، فدبج كتابه « الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين » ، وأجاد فيه أيما إجادة ، فقد ذكر فيه ثمانى

عشرة ومائة مسألة ؛ وفيها بعض مسائل صرفية ، وزيد في بعض النسخ عليها ثلاث . وأيد كل مسألة بأدلة الفريقين : قياسية وسماعية ، مع البسط والتفصيل على نحو ما بين فقهاء الشافعية والأحناف ، ووقف منها موقف الفيصل العادل غير معتسف في حكمه ولا متعصب في قضائه ، فيؤيد البصري مرة ، ويرجح الكوفي أخرى — كما يقول في مفتتح الكتاب — إلا أن المتتبع للكتاب من ألفه إلى يائه يرى آخر أن الفوز الباهر للبصري ، فإنه إنما رجح الكوفي في سبع مسائل منها فقط ، ولا أطيل عليك بما بسطه من أدلة الفريقين فيها ورده على البصري ، فالكتاب بين الأيدي ، وأكتفى بذكرها مجردة معتمداً في الإرشاد إليها على أرقام المسائل باعتبار ترتيب الكتاب لتيسير معرفتها . فهاكها — قال الكوفيون :

١٠ — « لولا » ترفع الاسم بعدها نحو لولا زيد لأكرمتهك ، والبصريون بالابتداء .

١٨ — لا يجوز تقديم خبر ليس عليها ، والبصريون يجوز .

٢٦ — اللام الأولى في لعل أصلية ، والبصريون زائدة .

٧٠ — يجوز للضرورة ترك صرف المنصرف ، والبصريون لا يجوز .

٩٧ — الياء والكاف في لولاي ولولاك في موضع رفع ، والبصريون خفض .

١٠١ — الاسم المبهم نحو هذا أعرف من العلم ، والبصريون العلم أعرف .

١٠٦ - جواز الوقف بالنقل على المنسوب المعروف باللام ، والبصريون لا .
ولا يستطيع من له درجة علمية أن يتغاضى عن هذا الحكم القاسى
من الأنبارى ، فغير خليق به أن ينصب نفسه حاكماً بين المذهبين فى
مسائل تنيف على المائة ، وقد أخذ على نفسه أول الكتاب ميثاق النصفة ،
ثم تكون نهاية القضاء أن يؤيد الكوفى فى سبع منها فقط . ولولا أن المقام
لا يتسع لاستدركنا عليه مسائل أخرى من مسائله التى رجح فيها البصرى
مستنديين إلى أدلة الخذاق من النحاة . ولعلك لم تنس المسائل الأربع
السابقة التى ذكرت آخر الكلام على المذهب الكوفى فقد رجحت كفتهم
فيها . وليس غرضنا أن نعدل المذهب الكوفى بالمذهب البصرى وإنما
الغرض درء الخيف وإعطاء كل ذى حق حقه .

ولنرجع إلى موضوعنا ، فقد ألف بعد الأنبارى أبو البقاء العكبرى
كتابه « التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » . ولم
نعثر على هذا الكتاب ، إلا أن المعروف عن العكبرى أنه كوفى النزعة
كما يتضح جلياً من مؤلفاته ، وما لا مرية فيه أنه قد اطلع على
كتاب الإنصاف ، وشاهد هذا أنه فى شرحه لديوان أبى الطيب المتنبى
قد ينقل عبارة الإنصاف بنصها عند ذكر الخلاف بين الفريقين ،
أو يلخصها تلخيصاً لا يذهب معه تعرف الأصل المأخوذ منه ،
ولا ذكر لك شيئاً من هذا على سبيل التمثيل ، فأضع أمامك ست
مسائل من الإنصاف مرقومة بأرقام الكتاب وبجذائها أبيات ستة للمتنبى

نقل العكبرى في شرحها عبارة الإنصاف بحروفها أو ملخصها ، غير أنه لم ينسبها للأنباري — وما هي تا على ترتيب الإنصاف :

١٤ — « نعم وبئس » اسمان أم فعلان ، وشرح العكبرى لقول المتنبي :

بئس الليالي سهرتُ من طربي شوقاً إلى من يبيت يرقدها

٢٦ — « لعل » لامها الأولى أصلية أم زائدة ، وشرحه لقوله :

لعل بنيهم لبنيك جنـد فأول قُرَح الخيل المِهَار

٤٥ — « المنادى المتمد المعرف » مبنى أم معرب ؛ وشرحه لقوله :

أيا أسداً في جسمه روح ضيغم وكم أسداً أرواحهن كلاب !

٥٣ — « اسم لا النافية للجنس » معرب أم مبنى ؛ وشرحه لقوله :

لا نخلق أسمحُ منك إلا عارف بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

٧٨ — « كى » يجوز أن تكون حرف جر ؛ وشرحه لقوله :

جوعان يأكل من زادى ويملكنى لكى يقال عظيم القدر مقصود

٨٣ — « حتى » تنصب الفعل بنفسها أم لا ، وشرحه لقوله :

أقر جلدى بها على فلا أقدر حتى الممات أجحدها

فبالضرورة لا بد أنه قد رجح كثيراً من آراء الكوفيين انتصاراً

لمذهبه في كتابه « التبيين » وحاج الأنباري فيها ، وهكذا حال المسائل

العلمية تتأرجح موازينها بين العلماء بحسب التقادير المختلفة تبعاً لاختلاف النظر. ، ثم ألفت بعد العكبرى ابن إياز البغدادي كتابه «الإسعاف في مسائل الخلاف» . واستدرك مسائل زائداً ، ولم نعتز على هذا الكتاب أيضاً — ورحم الله السيد علي فقد لخص في الجزء الثاني من كتابه «الأنشباة والنظائر» الفن الثاني «التدريب» ما في كتابه «الإنصاف والتبيين» بما بايع اثنتين ومائة ، وأضاف إليها من زيادات الإسعاف سألين — مع الإيجاز والإفادة ، لأنه عني بجمعها غير مكررة . عارية من الأدلة والتمثيل — ولقد أحسبت أن أنقل كلامه بحروفه ابتغاء لإدراك مقدار كبير من هذه المسائل ، وهماو ذا :

سرد مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين

على حسب ما ذكره الكمال أبو البركات الأنباري في «كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف» وأبو البقاء العكبري في «كتاب التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين» — «الأول» الاسم مشتق من السمو عند البصريين ، وقال الكوفيون من الوسم ؛ «٢» الأسماء الستة معربة من مكان واحد ، وقال الكوفيون من مكانين ؛ «٣» الفعل مشتق من المصدر ، وقالوا المصدر مشتق من الفعل ؛ «٤» الألف والواو والياء في التثنية والجمع حروف إعراب ، وقالوا إنها إعراب ؛ «٥» الاسم الذي فيه تاء التانيث كطلحة لا يجمع بالواو والنون ، وقالوا يجوز ؛

« ٦ » فعل الأمر مبنى ، وقالوا معرب : « ٧ » المبتدأ مرتفع بالابتداء والخبر
بالمبتدأ ، وقالوا المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ ؛ « ٨ » الظرف
لا يرفع الاسم إذا تقدم عليه ، وقالوا يرفعه : « ٩ » الخبر إذا كان
اسماً محضاً لا يتضمن ضميراً ، وقالوا يتضمن : « ١٠ » إذا جرى اسم
الفاعل على غير من هو له وجب إبراز ضميره ، وقالوا لا يجب : « ١١ »
يجوز تقديم الخبر على المبتدأ ، وقالوا لا يجوز : « ١٢ » الاسم بعد لولا
يرتفع بالابتداء ، وقالوا بها أو بفعل محذوف ، قولان لهم ؛
« ١٣ » إذا لم يعتمد الظرف وحرف الجر على شيء قبله لم يعمل في
الاسم الذي بعده ، وقالوا يعمل ؛ « ١٤ » العامل في المفعول الفعل
وحده ، وقالوا الفعل والفاعل معاً ، أو الفاعل فقط ، أو المعنى
أقوال لهم ؛ « ١٥ » المنصوب في باب الاشتغال بفعل مقدر ، وقالوا
بالظاهر ؛ « ١٦ » الأولى في باب التنازع إعمال الثاني ، وقالوا الأول ؛
« ١٧ » لا يقام مقام الفاعل الظرف والمجرور مع وجود المفعول الصريح ،
وقالوا يقام ؛ « ١٨ » نعم وبئس فعلان ماضيان ، وقالوا اسمان ؛
« ١٩ » أفعل في التعجب فعل ماض ، وقالوا اسم ؛ « ٢٠ » لا يبنى
فعل التعجب من الألوان ، وقالوا يبنى من السواد والبياض فقط ؛
« ٢١ » المنصوب في باب كان خبرها وفي باب ظن مفعول ثان ، وقالوا
حالان ؛ « ٢٢ » لا يجوز تقديم خبر مازال ونحوها عليها ، وقالوا يجوز ؛
« ٢٣ » يجوز تقديم خبر ليس عليها ، وقالوا لا يجوز ؛ « ٢٤ » خبر

ما الحجازية ينتصب بها ، وقالوا بحذف حرف الجر ؛ « ٢٥ » لا يجوز
طعامك ما زيد آكلا ، وقالوا يجوز ؛ « ٢٦ » يجوز ما طعامك آكل
زيد ، وقالوا لا يجوز ؛ « ٢٧ » خبر إن وأخواتها مرفوع بها ، وقالوا
لا تعمل في الخبر ؛ « ٢٨ » إذا عطفت على اسم إن قبل الخبر لم
يجز فيه إلا النصب ، وقالوا يجوز الرفع ؛ « ٢٩ » إذا خففت إن جاز أن
تعمل النصب ، وقالوا لا تعمل ؛ « ٣٠ » لا يجوز دخول لام
التركيد على خبر لكن ، وقالوا يجوز ؛ « ٣١ » اللام الأولى في لعل زائدة
وقالوا أصلية ؛ « ٣٢ » لا النافية للجنس إذا دخلت على المفرد بنى معها ،
وقالوا معرب ؛ « ٣٣ » لا يجوز تقديم معمول ألفاظ الإعراب عليها
نحو دونك وعليك ، وقالوا يجوز ؛ « ٣٤ » إذا وقع الظرف خبر مبتدأ
ينصب بفعل أو وصف مقدر ، وقالوا بالخلاف ؛ « ٣٥ » المفعول معه
ينتصب بالفعل قبله بوساطة الواو ، وقالوا بالخلاف ؛ « ٣٦ » لا يقع
الماضي حالا إلا مع قد ظاهرة أو مقدرة ، وقالوا يجوز من غير تقدير ؛
« ٣٧ » يجوز تقديم الحال على عاماتها الفعل ونحوه سواء كان صاحبها
ظاهراً أو مضمراً ، وقالوا لا يجوز إذا كان ظاهراً ؛ « ٣٨ » إذا كان
الظرف خبر المبتدأ وكررت بعد اسم الفاعل جاز فيه الرفع والنصب
نحو زيد في الدار قائماً فيها وقائماً فيها ، وقالوا لا يجوز إلا النصب ،
« ٣٩ » لا يجوز تقديم التمييز على عامله مطلقاً ، وقالوا يجوز إذا كان
متصرفاً ؛ « ٤٠ » المستثنى منصوب بالفعل السابق بوساطة إلا ، وقالوا
نشأة النحو

على التشبيه بالمفعول ؛ « ٤١ » لا تكون إلا بمعنى الواو ، وقالوا تكون ،
« ٤٢ » لا يجوز تقديم الاستثناء في أول الكلام ، وقالوا يجوز ؛ « ٤٣ »
كان في الاستثناء حرف جر . وقالوا فعل ماض ؛ « ٤٤ » إذا أضيفت
غير إلى متمكن لم يجز بناؤها ، وقالوا يجوز ؛ « ٤٥ » لا يقع سوى
وسواء إلا ظرفاً ، وقالوا يقعان ظرفاً وغير ظرف ، « ٤٦ » كم في العدد
بسيطة ، وقالوا مركبة ؛ « ٤٧ » إذا فصل بين كم الخبرية وبين تمييزها
بظرف لم يجز جزه ، وقالوا يجوز ؛ « ٤٨ » لا يجوز إضافة النيف إلى
العشرة ، وقالوا يجوز ؛ « ٤٩ » يقال قبضت الخمسة عشرة درهما ولا
يقال الخمسة العشرة الدرهم ، وقالوا يجوز ؛ « ٥٠ » يجوز هذا ثالث
عشر ثلاثة عشر ، وقالوا لا يجوز ؛ « ٥١ » المنادى المفرد المعرفة مبنى على
الضم . وقالوا معرب بغير تنوين ، « ٥٢ » لا يجوز بناء ما فيه أل في الاختيار ،
وقالوا يجوز ؛ « ٥٣ » الميم المشددة في اللهم عوض من يا في أول الاسم ،
وقالوا أصله يا الله ؛ أمنا بخير فحذف ووصلت الميم المشددة بالاسم ؛ « ٥٤ »
لا يجوز ترخيم المضاف ، وقالوا يجوز ؛ « ٥٥ » لا يجوز ترخيم الثلاثي بحال ،
وقالوا يجوز مطلقاً ، أو إذا كان ثانيه متحركاً قرلان ؛ « ٥٦ » لا يحذف
في الترخيم من الرباعي إلا آخره ، وقالوا يحذف ثالثه أيضاً « ٥٧ »
لا يجوز ندبة النكرة ولا الموصول ، وقالوا يجوز ؛ « ٥٨ » لا تاحق علامة
الندبة الصفة ، وقالوا يجوز ؛ « ٥٩ » لا تكون من لا ابتداء الغاية في
الزمان ، وقالوا تكون ؛ « ٦٠ » رب حرف ، وقالوا اسم ، « ٦١ » البحر

يعد واو رب ربّ المقدرة ، وقالوا بالواو ؛ « ٦٢ » منذ بسيطة
وقالوا مركبة ؛ « ٦٣ » المرفوع بعد مُند ومنذ مبتدأ ، وقالوا بفعل محذوف ؛
« ٦٤ » لا يجوز حذف حرف القسم وإبقاء عمله من غير عوض إلا في
اسم الله خاصة ، وقالوا يجوز في كل اسم ؛ « ٦٥ » اللام في قولك لتزيد
أفضل من عمر لام الابتداء ، وقالوا لام القسم محذوفًا ؛ « ٦٦ »
أَيْمُنُ الله في القسم مفرد ، وقالوا جمع يمين ؛ « ٦٧ » لا يجوز الفصل
بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، وقالوا يجوز ؛ « ٦٨ » لا يجوز
إضافة الشيء إلى نفسه مطلقاً ، وقالوا يجوز إذا اختلف اللفظان ؛
« ٦٩ » كلا وكلتا مفردان لفظاً مثنيان معنى ، وقالوا مثنيان لفظاً ومعنى ؛
« ٧٠ » لا يجوز توكيد النكرة توكيداً معنوياً ، وقالوا يجوز إذا كانت
محدودة ؛ « ٧١ » لا يجوز زيادة واو العطف ، وقالوا يجوز ؛ « ٧٢ »
لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار ، وقالوا يجوز بدونه ؛
« ٧٣ » لا يجوز العطف على الضمير المتصل المرفوع ، وقالوا يجوز ؛ « ٧٤ »
لا تقع أو بمعنى الواو ولا بمعنى بل ، وقالوا يجوز ؛ « ٧٥ » لا يجوز
العطف بلكن بعد الإيجاب ، وقالوا يجوز ؛ « ٧٦ » يجوز صرف أفضل
منك في الشعر ، وقالوا لا يجوز ؛ « ٧٧ » لا يجوز ترك صرف المنصرف
في الضرورة ، وقالوا يجوز ؛ « ٧٨ » الآن اسم في الأصل ، وقالوا
أصله فعل ماض ؛ « ٧٩ » يرتفع المضارع لوقوعه موقع اسم الفاعل ،
وقالوا بحروف المضارعة ؛ « ٨٠ » لا تأكل السمك وتشرب اللبن

منصوب بأن مضمرة ، وقالوا على الصرف ؛ « ٨١ » الفعل المضارع بعد الفاء في جواب الأشياء السبعة منصوب بإضمار أن ، وقالوا على الخلاف ، « ٨٢ » إذا حذفت أن الناصبة فالاختيار ألا يبقى عماها ، وقالوا يبقى ؛ « ٨٣ » كي تكون ناصبة وجارة ، وقالوا لا تكون حرف جر ؛ « ٨٤ » لام كي ولام الجحود ينصب الفعل بعدهما بأن مضمرة ، وقالوا باللام نفسها ؛ « ٨٥ » لا يجمع بين اللام وكي وأن ، وقالوا يجوز ؛ « ٨٦ » النصب بعد حتى بأن مضمرة ، وقالوا بحتى ؛ « ٨٧ » إذا وقع الاسم بين إن وفعل الشرط كان مرفوعاً بفعل محذوف يفسره المذكور ، وقالوا بالعائد من الفعل إليه ؛ « ٨٨ » لا يجوز تقديم معمرل جواب الشرط ولا فعل الشرط على حرف الشرط ، وقالوا يجوز ؛ « ٨٩ » إن لا تكون بمعنى إذ ، وقالوا تكون ؛ « ٩٠ » إذا وقعت إن الخفيفة بعد ما النافية كانت زائدة ، وقالوا نافية ؛ « ٩١ » إذا وقعت اللام بعد إن الخفيفة كانت إن مخففة من الثقيلة واللام للتأكيد ، وقالوا إن بمعنى ما واللام بمعنى إلا ؛ « ٩٢ » لا يجازى بكيف ، وقالوا يجازى بها ؛ « ٩٣ » السين أصل ، وقالوا أصلها سوف حذف منها الواو والفاء ؛ « ٩٤ » إذا دخلت تاء الخطاب على تاء الفعل جاز حذف الثانية ، وقالوا الأولى ؛ « ٩٥ » لا يؤكد فعل الاثنين وفعل جماعة المؤنث بالنون الخفيفة ، وقالوا يجوز ؛ « ٩٦ » ذا والذي وهو وهى بكماها الاسم ، وقالوا الذال والهاء فقط ؛ « ٩٧ » الضمير في لولاي ولراك ولولاه في

موضع جر ، وقالوا في موضع رفع ؛ « ٩٨ » الضمير في نحو إياي وإياك وإياه إيا ، وقالوا الياء والكاف والهاء ؛ « ٩٩ » يقال فإذا هو هي وقالوا فإذا هو إياها ؛ « تمام المائة » أعرف المعارف المضمرة ، وقالوا المبهم ؛ « ١٠١ » ذا وأولاء ونحوهما لا يكون موصولا ، وقالوا يكون ؛ « ١٠٢ » همزة بين بين غير ساكنة ، وقالوا ساكنة .

وقد فات الأنباري مسائل خلافية بين الفريقين استدرجها عليه ابن إياز في مؤلف ، منها الإعراب أصل في الأسماء فرع في الأفعال عند البصريين ، وقال الكوفيون أصل فيهما ، ومنها لا يجوز حذف نون التثنية لغير الإضافة وجوزه الكوفيون .

موازنة بين المذهبين

لا إخالك بعد أن تستحضر ما عرضناه عليك إلا مرجحاً كفة مذهب البصريين . ولسنا في حاجة إلى البسط بعد ما فات ، غير- أنا هنا نلم التشعيب الفائت ، ليركز في الذهن ويبقى في الذاكرة ، فنقول إن مذهب البصريين إنما رجع لأنه نشأ على ملاحظة أمور ثلاثة لا يراها الكوفيون :

١- أنهم يؤثرون السماع على القياس فلا يصيرون إليه إلا إذا أعوزتهم الحاجة ، وحملهم على هذا سهولة اتصالهم بجمهرة العرب ،

ولكثرتهم حولهم قد تعصبوا في رواياتهم فلا يحملونها إلا عن موثق بفطرته .
أما الكوفيون فعلى عكسهم فضلوا القياس على السماع في كثير من
مسائلهم لتناهيهم عن خلص العرب ، ولذا تساهلوا في رواياتهم فتلحقوها
عن أعزاب لا يرى البصريون سلامتهم .

٢ - أنهم احتاطوا في أقيستهم فلم يدونوها إلا بعد توافر أسباب
الاطمئنان عليها بخلاف الكوفيين الذين تفككوا من قيودهم ، ولذا
يقول السيوطي : « اتفقوا على أن البصريين أصح قياساً ، لأنهم لا يلتفتون
إلى كل مسموع ولا يقيسون على الشاذ » (١) .

٣ - أنهم لا يعولون على القياس النظري عند انعدام الشاهد إلا فيما
ندر جداً . أما الكوفيون فطالما جنحوا إليه ، وسلفت لك أمثلة من هذا
النوع .

فهذه الأمور الثلاثة التي تولد عنها الاختلاف بين الفريقين في
المسائل الجمة تضافرت في النهوض بمذهب البصريين على الكوفيين ،
إذ لا ريب أن السماع في اللغة ركن أول ، لأنها ليست فلسفة يتحكم
فيها ميزان العقل والدراية . والتشدد في القياس الذي يؤذن بصحة نظائره
حتم لازم . وإلغاء القياس النظري في اللغة مستقيم مع الواقع ؛
هذا حال المذهبين في مجملهما وإن ظفر مذهب الكوفيين في بعض
المسائل .

(١) الاقتراح ص ١٠٠ .

وقد ذكرنا لك أربعاً منها في الكلام على المذهب الكوفي ، وسبعاً منقولة عن الأنباري في نتائج المخالفة بين الفريقين .

وما مثل الفريقين عند التقريب إلا كمثل الطبيب والمتطبب ، فالبصريون كالطبيب الذي عانى المهنة حديثاً وحذقها مدركاً فأحكمها وأفاد المجتمع عن طول مدة ودقة خبرة ، والكوفيون كالمتطبب الذي قد اكتمل ونظر الطبيب وما يسديه فوجد عليه ثم تعرف منه وقارعه ، فإن الكوفيين ما منهم إلا من أخذ عن البصريين أرباب هذا الشأن ، في حين لم يتلق أحد من البصريين عن واحد منهم ، قال السيوطي : « وكذلك أهل الكوفة كاهم يأخذون عن البصريين ، وأهل البصرة يمتنعون من الأخذ عنهم ، لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة »^(١) .

إن احتضان العباسيين للكوفيين — خصوصاً بعد اتصال الكسائي وأصحابه — هو الذي رفع من شأنهم عند أنفسهم واستخفهم إلى مناصبة البصريين ، لحبهم إياهم وإيثارهم على البصريين لما قدموا من مؤازرتهم في تكوين دولتهم ، إذ كانوا شيعتهم من جهة ، ولقربهم عن البصريين من جهة أخرى ؛ فأذنوهم منهم قبل البصريين ، وأسبغوا عليهم نعمهم ، وأجزلوا لهم منحهم ، وأدخلوهم قصورهم ، واتخذوا منهم السمار والمؤدبين والمعلمين ، فالفضل الضبي وشرقي بن القطامي الكلبي مؤدبا المهدي ، والكسائي معلم الرشيد ثم مؤدب ولديه الأمين والمأمون ،

(١) المزهرة النوع الرابع والأربعين ج ٢ ص ٢٥٦ .

والفراء رائد أولاد المأمون ، وابن السكيت شيخ أولاد المتوكل ، وابن قادم معلم المعتز بالله ؛ وثعلب أستاذ عبدالله بن المعتز وابن طاهر ، وبذلك قبضوا على أعنة الحركة العلمية في بغداد ، وساد مذهبهم فيها ، وانتشر قبل المذهب البصري ، حتى انقاد إليه كثير من العلماء حرصاً على التقرب من الدولة ؛ وتغلغلت الناس في الأخذ بدعائمه فنفقت سوق الروايات الشاذة والموضوعة ، حتى عمى على الناس الطريق اللاحب ، يقول أبو الطيب : « فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً وغلب أهل الكوفة على بغداد ، وخدموا الماوك فقربوهم ، فأرغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات ، وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم »^(١) .

لقد استحوذ الكوفيون على بغداد وحالوا دون اتصال البصريين بها ، في حين حاول البصريون الولوج إليها تلهفاً على مقاسمة الكوفيين حظوتهم فلم يفلحوا ، وفي حادثة سيبويه الماضية التي كان فيها القضاء عليه ما يشهد بتآمرهم عليهم ومناصرة العباسيين وبطانتهم لهم .

على أنه مع هذا العنت الشديد والضغط المقيت قد نفذ إلى بغداد قليل منهم كـ « اليزيدي » ، إلا أن اتصاله يرجع إلى حسن وقته الذي سهل له الدخول في غمار العلماء الكوفيين ببغداد ، فإنه قدم إليها قبل استفحال العداء العلمي بين البلدين ، وقد ظهر فضله عند يزيد بن

(١) مراتب النحويين ص ١٤٧ ، ونقل في المزهري المبحث الماضي .

منصور خال المهدي ، فاستبقاه عندما استعرت نار المحاصمة ، وطار به إلى قصور الخلفاء ، فجعله الرشيد من مؤدبي المأمون ، ومع هذا كان متطامناً أمام الكسائي أولاً .

أما « الأخفش » الأوسط الذي قضى الشطر الأخير من حياته في بغداد ، فلسنا نحسبه فيمن نعد إذ ما ارتحل إليها إلا ليأخذ بحق سيئويه أستاذنا من الكسائي وجهاً لوجه ، لا رغبة في منزلة ولا في دنيا يصيبها ، لكن الكسائي قد تغلب عليه بدهائه وقيده بإحسانه ، فأقام عنده يؤدب أولاده حتى لقي ربه ، ولقد كان لإقامته الطيبة مع الكسائي تأثيرها في نفسه حتى وافق الكوفيين في مسائل عدة ذات بال واحتذى حذوهم في العناية بالقياس ، وقد مر في ترجمته بسط المقال في ذلك .

هذا وكما نفذ اليزيدي إليها كذلك نفذ إليها « المبرد » بفضل لباقة البادية للخلفاء والأمراء فتال مكانته عندهما ، وتبقى ناعم البال فيها ، وشارك ثعلباً تعليم ابن المعتز ، ولا سيما أن المنازعة فيها قد هدأت وكادت تضع أوزارها ، وما أشبه كلا الرجلين — اليزيدي والمبرد — بالآخر في الوسائل التي أتاحت لهما طيب الحياة ببغداد وإن اختلف زمنهما . الحق أن السياسة هي التي عاضدت الكوفيين وأوجدت منهم رجالات كونوا مذهباً ناضل المذهب البصري ، ولولاها لما ثبتوا أمام البصريين في مساجلاتهم ، ولما قهروهم في مواطن كثيرة ظلماً وعدواناً . والدنيا منذ الخليقة مملوكة بالأغراض والشهوات .

والبصريون — وإن لم يُنْصَفُوا في حياتهم — كوفثوا بعد مماتهم بتفضيل العلماء لمذهبهم ، وبقاء أغلب مؤلفاتهم تشيد بذكرهم . أما الكوفيون فلم ينالوا الأمرين ، فالعلماء يرون مذهبهم في وضعه اللائق به ، ومؤلفاتهم قد أسدل التاريخ ستاره على كثير منها ، حتى كأن لم تكن لولا تراجم أصحابها التي تطلعنا على مؤلفاتهم ، ولولا ذكرها عرضاً خلال الكتب في بعض الأحيان لمناسبة ذكر خلاف .

وعلى كل حال كان تلاقى الفريقين في بغداد موجهاً أنظار العلماء فيها إلى عرض المذهبين وانتقادهما .

أثر تلاقى الفريقين ببغداد في تنويع النزعات إلى ثلاث

لقد تبينت مما سلف أن الطور الثالث — طور النضج والكمال — قد تم على يد الفريقين بعد أن توطدت أقدامهما في بغداد بسعيد منتصف القرن الثالث الهجري ، ومر عليهما حين من الزمن وهما يتطاحنان في مناصرة مذهبهما على مرأى من العلماء الذين تنوعت اختياراتهم حينذاك ، فمن مؤيد البصري ومن مؤثر الكوفي ، ومن مازج بين المذهبين ، وإن قل هؤلاء ، إذ كانت حدة الخلاف بين الفريقين مع كثرة عديدهم وعظيم شأنهم في حياة المجتهدين من دواعي تغلب الانحياز إلى أحد الطرفين على اختيار مذهب خليط ، حتى إذا قضى المجتهدون نحبهم في أواخر القرن الثالث الهجري وأسدل الستار عليهم وانكسرت حدة النعرة الحزبية

عرض العلماء المذهبيين على بساط البحث والنقد ، فاستعرضوا دعائم القواعد ، التي تركزت عليها من الرواية والشواهد والأقيسة ليتعرفوا مقدار هذه القواعد من الصحة والضعف حتى يبتنى حكمهم في الاختيار على أساس غير مُسَهَّر ، وهم ما يزال فيهم فئة تلتفت عن البصري ، وأخرى عن الكوفي ، على حين أخذت عن الفريقين فئة ثالثة .

على أنهم بعد هذا في أنفسهم بين محافظ على ترسم خطى سلفه فغلبت عليه النزعة الطائفية ، وبين منصف تحلل من قيود الحزبية ونظر إلى العلم نظرة خالصة لا يشوبها عاطفة ، فآثر ما رجح عنده وتمذهب به ، فلم يكن غريباً على من لُقِّبته عن بصري أن يجنح بعد إلى إثارة المذهب الكوفي أو المكون منهما والعكس بالعكس ، كما لم يكن بدعاً على من تتلمذ لهما أن يؤازر أحدهما .

نجم عن ذلك كله أنهم اختلفوا طرائق قديداً ، فكان منهم من غابت عليه النزعة البصرية ، ومنهم من غلبت عليه الكوفية ، ومنهم من جمع بين النزعتين .

وقد قسم ابن النديم في الفهرست « المقالة الثانية » إلى فنون ثلاثة : الفن الأول في البصريين ، والثاني في الكوفيين ، والثالث في الخالطين بين المذهبيين ، واستعرض في الأولين علماءها سلفهم وخلفهم المشايخين لهم إلى عصره .

ويقتضينا ترتيبنا في كتابنا أن نذكر كلاً من المشايخين المتأخرين

للفريقين المعاصرين للجامعين بين النزعتين في هذا العهد ، فإن المجتهدين السابقين من المصريين مضى الحديث عنهما حين كان كل في مصره إبان تكوين النحو ونموه ونضجه ، فالحديث الآن عن النحاة الذين رُفرت عليهم بغداد بظلمها الظليل .

وطبعت أن البلاد الإسلامية التي كانت مستشرفة لهذا العلم قد تأثرت بهذه النزعات ، لأن بغداد كعبة الجميع ، وقد نرح إليها من مصر في ذلك العهد عدد كبير ، سنذكر المشهورين منهم بعد الطوائف ثلاث العراقية ، فإليهم يرجع الفضل في دخول النحو وكتبه ودراسته البلاد المصرية .

ونحن الآن بصدد الطوائف العراقية الثلاثة ، غير أنا نكتفي بترجمة المشهورين فقط ، مع إحالة الراغب في الاطلاع على الكل على كتاب الفهرست ، لأنه مؤرخ هذا العهد على ما نبهنا سابقاً . فهناك أشهر الطوائف الثلاثة :

فمن غلبت النزعة البصرية

١ - الزجاج

هو أبوا إسحاق إبراهيم بن السري ، ولقب بالزجاج لأنه كان يخرط الزجاج ، نشأ ببغداد وتلقى عن ثعلب ثم عن المبرد في مقابل أجر معين دائم ، ورفع المبرد من شأنه حتى أدب القاسم بن عبيد الله

الذى أخذ بناصره بعد توليه الوزارة للمعتضد ، ثم ساعدته الأقدار ونادم الخليفة المعتضد .

دخل يوماً دار ثعلب ووجد معه أبا موسى الحامض ، واستطرد الحديث إلى ذمهما المبرد ثم سيبويه ويونس ، فاغتاظ الزجاج وخطأ ثعلباً في نصف كتابه « الفصيح » لما عرض ثعلب لتخطئة سيبويه في الكتاب ، إذ تعقبه باعتراضات عشرة في حين أن كتاب الفصيح كله عشرون ورقة . وقد ذكرت هذه الاعتراضات في معجم الأدباء ، ترجمة الزجاج ، كما ذكرت أيضاً في الأشباه والنظائر الفن السابع في الجزء الرابع ، والمزهر النوع التاسع معرفة الفصيح .

وما من ريب في أن العصبية المذهبية هي التي حملت الزجاج على تجبيه ثعلب وشينه كتابه حتى قيل إن ثعلباً كاد ينكر نسبته بعد إليه ، كما أنها حملت في مقبل الأيام ابن خالويه ، وهو كرفي النزعة ، على تخطئة الزجاج في اعتراضاته على ما سترى في ترجمته إن شاء الله . له مؤلفات منها مختصر النحو ، وما ينصرف وما لا ينصرف ، وشرح أبيات سيبويه ، وكتاب فعلت وأفعلت ؛ توفي ببغداد سنة ٣١٠ هـ .

٢ - ابن السراج

هو أبو بكر محمد بن السرى ، نشأ ببغداد وسمع من المبرد ، وكان أحدث تلاميذه ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ، ثم انصرف إلى علم الموسيقى لكن لم ينشب أن يرجع إلى الكتاب والبحث في المسائل النحوية ،

وبرز في العربية ، وخلف المبرد في بغداد ، وله من التصانيف النحوية «كتاب الأصول» قال ياقوت : «وهو أحسنها وأكبرها ، وإليه المرجع عند اضطراب النقل واختلافه ، جمع فيه أصول العربية ، وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب» ، وكتاب جمل الأصول وشرح كتاب سيبويه ، والموجز ، توفي سنة ٣١٦ هـ .

٣ - الزجاجي

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق من نهاوند . قدم بغداد وسمع من ابن السراج والأخفش ، ولزم الزجاج فنسب إليه ، وسكن دمشق وانتفع الناس بعلمه . وله مؤلفات في النحو منها : «الجمل» ، لهذا الكتاب حظوة عند المغاربة تداني كتاب سيبويه عند المشارقة ، فتصدى الكثير لشرحه وشرح شواهد ، والكافي ، وفي النحو والأدب واللغة وغيرها «الأمالي» الصغرى والوسطى والكبرى ، توفي بدمشق سنة ٣٣٧ هـ .

٤ - مبرماتان

هو أبو بكر محمد بن علي العسكري ، سمع من المبرد وأكثر من الأخذ عن الزجاج ، وبعد صيته في النحو إلا أنه كان غير وقور ضئيلاً بالتعليم إلا مع الجزء المرضي له ، من مؤلفاته النحوية : شرح شواهد سيبويه ، وشرح كتاب سيبويه ولم يتم ، وشرح كتاب الأخفش ، والتلقين ، توفي سنة ٣٤٥ هـ .

٥ - ابن درستويه

هو أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي ، نشأ بنفسا (من بلاد فارس) ، وأقام ببغداد ، وتلقى عن ابن قتيبة والمبرد وثعلب وغيرهم ، ثم لازم المذهب البصري مع التعصب الشديد له ، وتصانيفه في غاية الجودة ، منها في النحو : الإرشاد ، وأسرار النحو ، والرد على ثعلب في اختلاف النحويين ، وأخبار النحويين ، وتوفي ببغداد سنة ٣٤٧ هجرية (١) .

ومن غلبت عليه النزعة الكوفية

١ - أبو موسى الحامض

هو سليمان بن محمد ، ولقب بالحامض لشراسته . لازم ثعلباً زهاء أربعين حولاً ثم خلفه بعد موته ، وكان موهوب البيان ، شديد العصبية الكوفية ، له في النحو مختصر ، وتوفي ببغداد سنة ٣٠٥ هـ .

٢ - ابن الأنباري

هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، أقام مع أبيه في بغداد ، وأخذ عنه وعن ثعلب وغيرهما ، ثم أربى على الكل لما أوتي من حافظة نادرة ، فقد كان يملئ مصنفاته المبسوط من حفظه مع صدق الرواية ،

(١) ترجمته في سائر المصادر ، وفي درستويه ضبط آخر راجعها في وفيات الأعيان ، وفي القاموس ثالث .

ومنها في النحو : الكافي ، والواضح ، والموضح ، توفي ببغداد سنة ٣٢٧ هـ .

ومن جمع بين النزعتين

١ - ابن قتيبة

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ولد بالكوفة ، ونسب إلى الدينور (من بلاد فارس) لتوليته القضاء بها ، أقام ببغداد ، وسمع من الزيادي والسجستاني وابن راهويه وغيرهم ، وصنف مؤلفات تشهد له بعلو كعبه ، منها في النحو : جامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير ، وشهرته تغنى عن التعريف به ، توفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ .

٢ - ابن كيسان

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان ، أخذ عن أبي العباس : المبرد وثلعب ، وغيرهما ، ثم ذاع اسمه ، فكان درسه غاصاً بالأمراء والأشراف والدهماء ، والكل لديه سواسية . وله مصنفات في مختلف علوم العربية منها في النحو : المذهب ، والمختار في علل النحو ، والمسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون ، والفاعِل والمفعول به ، توفي ببغداد سنة ٢٩٩ هـ .

٣ - الأنخفش الصغير

هو أبو الحسن علي بن سليمان ، وقد مضى الأنخفش الأكبر شيخ سيبويه والأوسط تلميذه .

أخذ الأنخفش الصغير عن أبوي العباس : المبرد و ثعلب ، وعن اليزيدي وأبي العيناء ، ولم يبلغ حد الكمال في النحو ، فكان يتبرم من السؤال فيه . وله وقائع مع ابن الرومي انتهت بالصدقة . و رَدَّ مصر ثم عاد إلى حلب ضيفاً على ابن مقلة ، ثم قفل إلى بغداد ، وله مصنفات منها : كتاب التثنية والجمع ، وأخباره معروفة ، توفي ببغداد سنة ٣١٥ هـ .

٤ - ابن شقيق

هو أبو بكر أحمد بن الحسين البغدادي ، له كتاب مختصر في النحو ، توفي سنة ٣١٧ هـ .

٥ - ابن الحياط

هو أبو بكر محمد بن أحمد ، أصله من سمرقند ، قدم بغداد بعد وفاة المبرد ، وضعف ثعلب عن الإفادة لصممه الشديد . فاستمع من أتباعهما ، وجرت بينه وبين الزجاج ببغداد مناظرة ، وكان دمث الخلق ، وله من الكتب : النحو الكبير ، والموجز ، والمقنع ، مات بالبصرة سنة ٣٢٠ هـ .

نشأة النحو

٦ - نِفْطَوَيْه١

هو أبو عبد الله إبراهيم بن محمد المهبلي من « واسط » ، أخذ عن المبرد وثعلب وغيرهما ، ثم انتفع الناس بدراسته ، وكانت بينه وبين ابن دريد مهاجاة ؛ وله تصانيف حسان ؛ منها في النحو : المقنع ، توفي ببغداد سنة ٣٢٣ هـ .

نحاة مصر الآخذون عن العراقيين

يحار الناظر في تعرف الأسباب التي أقعدت مصر عن النهوض بهذا العلم بدون مشاطرة العراق في إبان تكوينه ونشوئه . حتى أوشك أن ينضج ويكمل ، مع توثق الصلات بينها وبين العراق في ذلك العهد ، ومع وفود العرب الخالص إليها مع الفاتحين ، كالعرب الذين نزحوا إلى العراق ، وكانوا مثابة لنحاته في تدوين النحو ، والسير به قدماً إلى أن تم على أيديهم ؛ ومع وجود العلماء الذين يعتمد عليهم ، وفيهم غناء أى غناء بين ظهريهم من أمثال عبد الرحمن بن هرمز الذي استوطن قديماً الإسكندرية ، حتى قضى نحبه سنة ١١٧ هـ .

وقد مضى في الكلام على واضع النحو أن بعض العلماء عده الواضع له . وأعجب من هذا تواني الشام عن المشاركة في هذا العلم تلك الأيام السالفة ، فإن للشام — بعد هذه الدواعي المساوية فيها مصر — امتيازها منها بالقرب من العراق من جهة ، واقتراب بادية الشام منها من جهة أخرى ،

فكان سهلاً على علماء الشام اتصّالهم بها عن كتب منهم بدون اغتراب وعناء .

أما بلاد الأندلس فيبعد الشقة بينها وبين العراق حال دون اقتفائها العراق حيناً من الدهر ، ولا سيما إذا أضيف إلى ذلك تقطع الأسباب بين المشرق والمغرب في فترات اتفق فيها أن كانت النهضة في العراق سائرة إلى الأمام في سبيل الاستكمال لهذا العلم ، فما اشتغلت الأندلس بهذا العلم إلا بعد نضجه وكماله في العراق .

نعم ، لا غرابة في سبق العراق القطرين وغيرهما في مزاولة هذا العلم ، فقد توافر في العراق أسباب متضافرة تجعله خليقاً أن يكون مهداً ، وقد بينها في أوائل الكتاب في الكلام على وضعه زماناً ومكاناً ، وعلى مشاهير البصريين والكوفيين . إنما الذي نبحت عنه وننشده الآن تعرف الأسباب التي أخرت الشام ومصر ، فلم تتأثر دمشق وحلب ولا القاهرة عاجلاً بالبصرة والكوفة وبغداد .

والذي يلوح لنا — والله أعلم بالحقيقة — أن العراق كان دائماً الاتصال بالبلاد الحجازية المقدسة ، والرحلات بينهما متبادلة ، فسمع أهل العراق من الصحابة ومن التابعين أحكام الدين ، فامتد نظرهم إلى ذلك الأمر الجليل وأمر اللغة والمحافظة على سلامتها حتى يكمل لهم الشأن من جميع نواحيه . وفي العراق حضارة علمية تليدة سهلت عليهم السير في تنظيم هذا العلم واستكمال بنائه ، أما القطران

فكانا في أشد الحاجة إلى تعلم الدين وعلومه فغلب على العرب النازلين
فيهما داعى الدين والناس من ورأهم ، فساهم القطران في العلوم
الشرعية ، ونبغ فيهما أئمة في القراءات والحديث والفقه كانوا يعاصرون
أئمة العراق فيها .

وقصارى القول أن القطرين لم يتجها لهذا العلم إلا بعد نشوئه ونموه
وبوادر استكماله في العراق ، فهبا يذهبان إليه أرسالا للتلقى عن علمائه
في أخريات الأيام كما ترى .

نعم ، قد وفد على القطرين نفر من المشاركة كالأخفش الصغير ، على
أن مصر كانت أسبق من الشام وأكثر وفادة ، ولهذا فإننا نقصر
الكلام على علماء مصر في تلك الحقبة ، وقد تحدث عنهم الزبيدي
في « الطبقات » بعنوان خاص بهم بعد البصريين والكوفيين ، كما
أفردهم السيوطي في كتابه « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة »
بمبحث في أواخر الجزء الأول ، وقد ذكرت أخبارهم في كتب التراجم
موزعة فيها على طباق نظامها .

ولا يغيب عن الذهن أن علماء هذا العصر هم أصحاب الفضل
في دخول النحو مصر دراسة وتصنيفاً ، وقد حملوا معهم إلى مصر بعض
مؤلفات المشاركة كما سترى . أما نزعتهم المذهبية فمرجعها إلى شخصية
شيونخهم ، وستعرف في تراجمهم شيونخهم ، فلسنا بحاجة إلى أن نعين

نزعة كلِّ كما سبق في المشاركة ، وهاك أسماء المشهورين منهم مرتبين بحسب سني وفياتهم .

١ - ولاد

هو الوليد بن محمد التميمي أصله من البصرة ، ونشأ بمصر ، ثم رحل إلى البصرة يطلب العلم ، فتلقى عن المهلب تلميذ الخليل وعن غيره ، فروى كتب اللغة والنحو وحذقهما ، ثم قفل إلى مصر ومعه كتب النحو واللغة التي رواها بأسانيدها ، فهو أول من أدخل كتب النحو واللغة مصر ، وقد بورك له في بنيه وحفدته ، توفي بمصر سنة ٢٦٣ هـ .

٢ - أبو علي الدينوري

هو أحمد بن جعفر الدينوري ، ختن ثعلب ، وأصله من الدينور ، قدم البصرة وأخذ عن المازني كتاب سيبويه ، ثم دخل بغداد فقرأه على المبرد أيضاً مع تحمله الملام من ثعلب ، ثم وفد إلى مصر متوطناً ، وله مؤلفات في النحو ؛ منها المذهب ، توفي بمصر سنة ٢٨٩ هـ .

٣ - ابن ولاد

هو أبو الحسين محمد بن الوليد التميمي السابق ، أخذ بمصر عن الدينوري وغيره ، ثم يم بمصر فلقى المبرد وثعلباً ، وجاد بالمال

في سبيل نقل كتاب سيبويه من المبرد وقراءته عليه ، وبعد التزوّد
رجع أدراجه إلى مصر ، فهو أول من أدخل كتاب سيبويه البلاد المصرية ،
توفي بمصر سنة ٢٩٨ هـ .

٤ - ابن ولاد

هو أبو العباس أحمد بن محمد التميمي السابق ، فهو نحوي
ابن نحوي ابن نحوي ، شدا على أبيه وغيره شيئاً من العربية ؛ ثم صوب
نظره إلى بغداد ، فسمع من الزجاج وغيره مع معاصره أبي جعفر النحاس
المصري ، إلا أن الزجاج كان يؤثره على النحاس حتى كان بعد مغادرتهم
بغداد يختصه بالسؤال ويشيد بعلمه ، ولذا فإنهما أقاما في مصر
على نفور دائم بينهما ، وما زاد توتر العلاقة جمع بعض ملوك مصر
بينهما في مناظرة تلتها مناظرات احتدم بينهما فيها الشجار ، وبسطها
السيرطي في الأشباه والنظائر (الفن السابع فن المناظرات إلخ) في الجزء
الثالث ، وله كتاب الانتصار لسيبويه ، وكتاب المقصور والممدود ،
توفي بمصر سنة ٣٣٢ هـ .

٥ - النحاس

هو أبو جعفر أحمد بن محمد المصري ، تلقى مبادئ اللغة العربية في
مصر ، ثم ارتحل إلى العراق ، فتلقى عن الأنخفش الصغير والزجاج
ونفطويه وابن الأنباري وغيرهم ، ثم آب إلى مصر ، وقد سبق الحديث

عما حدث بينه وبين ابن ولّاد ، كان قرىّ الذاكرة جيد التصنيف
في متنوع العلوم ، من مؤلفاته في النحو : كتاب « المقنع في اختلاف
البصريين والكوفيين » ، والتفاحة ، والكافي ، وغيرها . مر به المنذر بن
سعيّد البلوطي الأندلسي وهو يملئ من قصيدة مجنون ليلى :

خليليَّ هل بالشام عين حزينه تُبكيَّ على نجد لعلّي أعينها
قد أسلمها الباكون لإحمامة مطوقة باتت وبات قرينها^(١)

فقال له : ماذا — أعزك الله — باتا يصنعان ؟ فقال : وكيف تقول
أنت يا أندلسي ؟ فقال : بانت وبان قرينها ، فسكت وحقد عليه ،
فمنعه استنساخ كتاب العين . وكان على علمه وسعة ثقافته وشغف
الناس بالأخذ عنه شحيح النفس رث الهيئة ، جلس يوماً على درج
المقياس على شاطئ النيل في أيام الفيضان يقطع بيتاً من الشعر ، فظنه
بعض العامة ساحر النيل ، فرفسه برجله ، فلم يوقف له على
خبر ، وذلك سنة ٣٣٧ هـ .

(١) ملاحظة الأندلسي على النحاس مذكورة في معجم الأدباء في كل من ترجمة
النحاس وترجمة المنذر ، وفي نصح الطيب القسم الأول الباب الخامس ترجمة المنذر . وفي
طبقات الزبيدي ترجمة النحاس .

نشوء المذهب البغدادى على أيدي الجامعين بين النزعتين

قد مر بك أن فترة من الزمن بعد تلاقى الفريقين في بغداد اختلفت فيها اتجاهات العلماء إلى ثلاثة أنحاء ، وقد تمايزت طوائفهم الثلاث تبعاً لاختلاف نزعاتهم ، وكانت الطائفة الخالطة بين النزعتين البصرية والكوفية تزاوّل المذهبين ، وتنظر فيهما نظرة غير مشوبة بالعصبية ، فهي لا بد واجدة رجحان هذا المذهب في مسائل وذلك المذهب في مسائل أخرى ، وكان عمل هذه الطائفة منبهاً بعض معاصريهم إلى استقرار ما صح من القوانين النحوية بدون التحيز إلى فريق دون آخر ؛ فجرّ ذلك إلى الخلط بين المذهبين . يستخلص مذهب منهما مرضى عنه عندهم .

ولقد اتسعت هذه الحركة ونمت فعايلها الكثيرون ، حتى احتل مكاناً بين المذهبين مذهب آخر جديد مؤلف من المذهبين بفروق قليلة ، اشتهر ذلك المذهب بالبغدادى ، إذ كانت أرض بغداد هي التي أقلته وسماؤها هي التي أظلمته ، ظهرت بواكيره في آخريات القرن الثالث الهجرى على مرأى من المتنازعين من الفريقين في الدور الأخير من أدوار سجالهم ، فجعل العلماء يأخذون من هذا المذهب

مسألة ومن ذاك أخرى مثلاً ، وهكذا دواليك تبعاً لما ترجح كفتها عند النظر . وما أهل القرن الرابع الهجرى حتى كثرت قواعد هذا المذهب الجديد وأيده النظار له ، واشتهرت طائفة به ، فقاسم المذهبين عملاً ومزاولة ، وشقّ له سبيلاً معهما ، وامتدت به الأيام قليلاً ، فحدث للنحو به عهد جديد ، قضى أن يعدّ طوراً آخر من أطواره .

الرابع طور الترجيح (بغدادى)

سلف أن هذا الطور كان التمهيد إليه على أيدي الحالطين النزعتين وأن أساسه المفاضلة بين المذهبين : البصرى والكوفى وإيثار المختار منهما . وأمعنوا في هذا الاختيار ، فاصطفوا مسائل ذات بال مزيجاً من المذهبين ، على أنهم قد أسلمهم هذا الاستقراء البالغ خلال تلك الأيام إلى العثور على قواعد أخرى من تلقاء أنفسهم لا تمت بصلة إلى المذهبين تولدت لهم من اجتهادهم قياساً وسماعاً ، ذلك لأن سلائق العرب ما انفكت سليمة في البوادي إلى أواسط القرن الرابع الهجرى كما تقدم ، ومشافهة العلماء لهم حينئذ متيسرة ، إما بالرحلة إليهم في البادية وهي دانية منهم ، أو بالسماع منهم في الحضر ، إذ كان

لفيف منهم ينتجعه استجداء للعطاء والتماساً للرزق ، فكان ذلك المذهب في عمومه ملفقاً من المذهبين مع بعض قواعد استنبطوها ، وعلى هذا فمائله إما كوفية أو بصرية أو مبتكرة ، بيد أنه لا يعزب عن الذهن أن مسائل المذهب الكوفي المختارة في أول تكوين المذهب الجديد كانت أكثر من البصرية ، لأن الكوفيين غلبوا على أمرهم ، فكان النفوذ في بغداد لهم ، ولم يلبث هذا الشأن أن تغير بعد حين ، فبعد موت العصبية وانقراض المتأثرين بها رجعوا إلى تقدير المذهب البصري والتنديد بالكوفي والخط من حجمه ، فابن الشجري يقول في أماليه (المجلس السادس) عند القضاء في المناظرة السابقة بين الكسائي والأصمعي ، وقد عرفت ما فيها ما لفظه : « ولنحاة الكوفيين في أكثر كلامهم تهاويل فارغة من الحقيقة » . فهذا حكم يعطينا صورة صادقة عن عزوف المتأخرين عن المذهب الكوفي . وقد سلفت الإشارة إلى شيء من هذا عند الموازنة بين المذهبين .

من القواعد التي ركن فيها البغادة إلى المذهب الكوفي

١ - إعمال اسم المصدر عمل فعله كما تقدم .

٢ - مجيء « بَلَّغْهُ » للاستثناء^(١) .

(١) المغنى الباب الأول (بله) ، وجمع الجوامع باب الاستثناء .

٣ - إعطاء المستثنى المتقدم على المستثنى منه حكم المستثنى منه على سبيل القياس ، فيصير المستثنى منه المؤخر بدل كل لأنه عام أريد به خاص^(١) .

٤ - جوار نداء المعروف بأل في الاختيار دون التوصل إليه بأى أو اسم إشارة^(٢) .

٥ - عدم تنوين المنقوص الممنوع من الصرف مع الفتح حال الجر^(٣) .

٦ - مراعاة لفظ الجمع في العدد فيجرد من التاء في نحو ثلاث حمامات^(٤) .

ومن القواعد التى عولوا فيها على المذهب البصرى

١ - عمل المصدر المنون عمل فعله قال تعالى : (أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيماً)

ومن القواعد المستلزمة وراء المستحسن من المذهبيين

١ - جواز تعريف الحال مطلقاً بخلافاً للبصريين الموجبين التنكير مطلقاً ، والكوفيون إن لم يشعر بالشرط نحو عبدُ الله المحسن أفضل منه المسىء .

(١) همع الهوامع باب الاستثناء .

(٢) باب المنادى ، الرضى على الكافية ، وابن الناظم على الألفية .

(٣) شرح ابن يعيش : ما لا ينصرف .

(٤) شرح الأشموني : أول باب العدد .

٢ - جواز عدم الفصل بين أن المخففة والفعل المتصرف قال الرضى :
« وحكى المبرد عن البغدادية علمت أن تخرج بالرفع بلا عوض
إلخ »^(١) .

٣ - جواز بناء اسم لامع ارتباط الظرف والجار به ، قال الرضى :
« وحكى أبو على عن البغداديين أنهم يميزون كون الظرف والجار في نحو
لا آمر بالمعروف ولا عاصم اليوم من أمر الله من صلة المنفى المبني
إلخ »^(٢) .

٤ - جواز إتباع محل المعطوف عليه مع عدم أصالته . قال ابن
هشام بعد ذكره الشرط الأول لصحة العطف عليه « الثاني أن يكون
الموضع بحق الأصالة ، فلا يجوز هذا ضارب زيدا وأخيه ، لأن الوصف
المستوفى لشروط العمل الأصل إعماله لا إضافته لالتحاقه بالفعل ،
وأجازه البغداديون إلخ »^(٣) .

٥ - تقدير عامل النصب في ويحه وأختيها من مادتها قال
خالد : « وذهب بعض البغداديين إلى أن ويحه وويله وويسه منصوبة
بأفعال من لفظها »^(٤) .

(١) شرح الكافية : نواصب المضارع أن .

(٢) شرح الكافية : اسم لا النافية للجنس .

(٣) المغنى الباب الرابع ، العطف على المحل .

(٤) التصريح : المفعول المطلق .

هذا هو نمط المذهب البغدادي الذي زاوله كثيرون ذكرنا بعضاً منهم فيمن جمع بين النزعتين ، ولقد مالوا أخيراً في مؤلفاتهم إلى جعل المذهب البصري أساساً ، وتلك السنة سرت فيمن بعدهم ، وما تزال إلى أيامنا هذه في أكثر الكتب النحوية

ظل المذهب البغدادي مدة مديدة ، إذ كانت بغداد بلد الخلافة ومحج العلماء طراً من أقاصي بلاد الإسلام ، وإن كانت بغداد مضطربة الأحوال في هذا الحين باستبداد الأتراك بعد جرأتهم على الفتك بالخليفة جعفر المتوكل سنة ٢٤٧ هـ . إلا أن ذلك الاضطراب قد نضر قلوب أهل العلم الذين كان معظمهم من العرب والفرس ، فأخذوا يتفرقون في البلاد شرقاً وغرباً زرافات ووحدانا ، والخلافة تزداد ضعفاً على ضعف حتى انتثر نظمها بتغلب « بني بويه » على أمرها ، وذلك على يد معز الدولة أبي الحسين أحمد بن أبي شجاع بويه ، فقد دخل بغداد من جهة الأهواز في عهد الخليفة « المستكفي بالله » ، وقبض على أزمة الدولة سنة ٣٣٤ هـ مع بقاء الخلافة صورية في بغداد . وقد تخاصمت الدول الإسلامية الجديدة من هذا الوقت في باقي الأقطار ، وبذلك اختصت البويهية الفارسية بالعراق وفارس وخراسان إلى أن تغلب عليها السلاجقة التركية سنة ٤٤٧ هـ ، في عهد الخليفة القائم بأمر الله ، إذ ملك بغداد والعراق طُغُرْلُبُك (محمد بن ميكائيل بن سلجوق) أول مارك السلجوقيين ، كما اختصت السامانية الفارسية بما

وراء النهر ، والغزنوية التركية بأفغانستان والهند ، والحمدانية العربية بحلب وما بين النهرين ، والإخشيدية التركية فالفاطمية العربية بمصر وبلاد المغرب ، والأموية العربية بالأندلس ، وغير هؤلاء بأقاليم آخر .

وتبع هذه التقاسيم توزع العلماء في مختلف هذه الأقطار ، فتنقل هذا العلم في المدائن الإسلامية ، وتدرج الانتقال من بغداد شرقاً إلى العراق العجمي فخراسان فما وراء النهر ، وغرباً إلى الشام ومصر فالمغرب والأندلس ، وقامت علماء هذه الدول الحديثة يشتغلون به كل في قطره على طبق ما توحى إليهم الحياة الجديدة ، فأخذ المذهب البغدادي يتلاشى رويداً رويداً .

انفراط عقد المذهب البغدادي

بعد استيلاء بني بويه على بغداد

لقد ظهر هذا المذهب كما عرفت على أيدي الخالطين النزعتين ، أواخر القرن الثالث ، وبلغ أشده منذ أوائل الرابع ، واستحكم شأنه تلك المدة التي التأم فيها الفريقان ببغداد إلى أن تضعض شأن الخلافة العباسية بغلبة البويهيين عليها ، فحينذاك تمزق الشمل وتفرق العلماء ، وما المذهب البغدادي إلا مذهب العلماء في بغداد ، فكلما انتثر جمعهم انفراط عقده ، ومن هنا يعرف أن انفراط المذهب البغدادي

كان -- على سبيل التقريب -- بعد منتصف القرن الرابع الهجرى ،
وبعبارة أخرى بعد انصرام النصف الأول تقريباً من عمر الدولة العباسية ،
نعم ، إن روح المذهب البغدادي بقي فيها ذمماً في العراق العربي وما يليه
شرقاً ، ويقرب منه غرباً إلى حين ، لتقارب هذه البلاد وتماثل نزعات ذوى
الشأن فيها ، ويرى العلماء على حسب الاصطلاح المتواطأ عليه بينهم أن انفراط
عقد المذهب البغدادي يعدّ حدثاً فاصلاً بين المتقدمين والمتأخرين .

انتهاء المتقدمين وابتداء المتأخرين

لا ريب أن انتشار عقد المذهب البغدادي الناشئ عن انحلال عروة
الدولة الإسلامية على يد البويهيين لم يصحبه تحديد الزمن الحقيقى
فى الفصل بين المتقدمين والمتأخرين ، فما برح المتقدمون قبل الانتشار
من العلماء أحياء على اختلاف فى تفاوت أزمنتهم بعد قصر وطولاً ،
وجدير بهؤلاء أن يحفظ لهم ما اكتسبوه قبله ، وأن يعدّوا فى مصاف
المتقدمين ، وأما من نشأ من العلماء قُبَيْلَهُ وامتدت أيامه ، وعاصر
من جاء بعده ، فيسرى عليه وضعه ويعدّ فى جماعة المتأخرين .
فمناط العنوانين فى الحقيقة راجع إلى طول المعاصرة للجيل المتقدم أو
التأخر . ومن ثمة عدّ العلماء ابن درستويه وابن الأنبارى ونفطويه

وأندادهم من ساقّة المتقدمين ، كما عدّوا أبا سعيد السيرافي وأبا علي الفارسي وابن خالويه وأتراهم مقدمة المتأخرين ، يؤيد هذا ما قاله الرضي استطراداً في باب اسم المفعول لمناسبة الكلام على شروط عمله : « وليس في كلام المتقدمين ما يدل على اشتراط الحال أو الاستقبال في اسم المفعول ، لكن المتأخرين كأبي علي ومن بعده صرحوا باشتراط ذلك فيه كما في اسم الفاعل » .

وهذا الذي يتفق والواقع في الفصل بين المتقدمين والمتأخرين . فالتأخرون عندهم يبدعون من العلماء الذين قاموا بنهضة هذا الفن بعد انقراط المذهب البغدادى ، واشتغالهم بعلم النحو في الممالك الإسلامية الحديثة لا تجمعهم زعامة في قطر دون آخر ، طوعاً للوضع الجديد من تعدد الممالك واستقلال كل بشئونها لضعف نفوذ الخلافة العباسية إلا أن هدف العلماء على اختلاف مواطنهم واحد ، فاستقروا في أوطانهم يتشاطرون الرفع من شأن هذا العلم ويتبارون في الاستزادة منه .

وبعّثهم هذا النشاط المتواصل إلى تقصى المسائل التي حدث فيها الاختلاف بين البصريين والكوفيين ، وتدوينها للموازنة بين المذهبين ، وتصويب المصيب وتخطئة المخطئ بدون هوى أو ميل ، والتاريخ لا يقول الحق إلا حين يطمئن لقوله بعد مواراة أرباب الشأن في الثرى ، ولهذا ظهرت في هذه الحقبة بكثرة مؤلفات خاصة استعرضت ما اختلف فيه المذهبان ووازنت بينهما .

أما المؤلفات السابقة على هذه الحقبة فكانت تشوبها العصبية المذهبية، وقد عرضنا لسرد هذه المصنفات عامة فيما تقدم عند الكلام على « نتائج المخالفة بين المذهبين » للمناسبة هناك .

والمتصود هنا أن علماء هذه الحقبة أفرغوا جهدهم في إعلاء منارة هذا العلم ، ونوعوا في مصنفاتهم ابتغاء الإحاطة بكل ما يتصل به ، وافتنروا في تلوين عرض هذا الفن بصور مختلفة ، وأدوا رسالتهم خير تأدية ، وما فتئوا جادّين في خدمة هذا العلم حتى آذنت شمس الدولة العباسية بالمغيب سنة ٦٥٦ هـ ، فسقط كثير من هذه الممالك الإسلامية وراءها ، وطويت صفحاتها حيناً من الدهر ، فوهنت فيها اللغة العربية نفسها ، ونخفت صوت هذا الفن .

وبذلك انحصر الكلام في مطلبين :

- الأول : في حالة هذا العلم ورجاله في عهد الدول الإسلامية الحديثة المتعاصرة من عهد بني بويه إلى سقرط بغداد .
والثاني : من سقرط بغداد إلى أيامنا الحاضرة .

المطلب الأول

علم النحو وعلماءه

في عهد الدول الإسلامية المتعاصرة

إن تعدد هذه الدول الحديثة إن كان قد فتّ في عضد الدولة الإسلامية فإن تنافس ملوكها على اختلاف أصولهم من فارسي وتركى وعربى قد حملهم على مناصرة علماءهم استكمالاً لاستقلالهم الجديد . وقد تبع ذلك أن العلماء أنفسهم تأثروا بهذه الروح ، فتغيرت تقاليدهم النسبية ، إذ كانوا قبلئذ ينتسبون غالباً إما إلى أصولهم كالدؤلى والمازنى والجرى والزيادى واللحيانى ، أو صناعاتهم كالهراء والزجاج والنحاس ، أو ما يتصل بهم على وجهٍ ما كالكسائى والزجاجى ، فصاروا ينتسبون بعدئذ بكثرة إلى الأقطار المقيمين بها أو المدن التى نشأوا فيها ، ففيل السيرافى والفارسى والرومانى والبغدادى والتبريزى والزنجشبرى والأنبارى والعكبرى والسهيلى والإشبيلية والبطليوسى والشنتمرى والمصرى والحلبى والدمشقى ، وما إلى ذلك مما ستراه كثيراً إن شاء الله تعالى .

على أنه مما يلاحظ أن هذا النوع من النسب لقي ارتياحاً من نفوس العلماء ، فاتخذوه لقباً وارتضوه ، وبقي على مرّ الزمن شعار العلماء حتى عصرنا الحاضر .

فاتسعت الحركة العلمية بعد حصرها في دائرة ضيقة ، ونشطت بعد خمود خيم عليها حيناً ، وقد اجتهد علماء كل مملكة في داخلها لقلة التواصل بين الممالك من كثرة الفتن والاضطرابات ، فكثرت آراء العلماء الفردية ، وتراكت سحب الخلافات ، وتنوعت التعليقات النحوية ، وتضخمت المؤلفات ، إلا أنه لم يعرض مذهب جديد خاص بجمهرة في قطر ، غير أنه لما أقبلت الأندلس عليه في عصرها الزاهر ، واستكانت أقطار المشرق لما انتابها ، استحدثت الأندلس مذهباً رابعاً سنذكر عنه لمحة في موطنه .

وعلى الحملة كان هذا العصر ذهبياً لهذا العلم ، ففيه صنفت الموسوعات ، واكتشف المكنون من أصدافه ، وتعددت ألوان صوره المختلفة في عرضه لاختلاف مشارب الأقطار في مناحيهم الفكرية مع إصابة الجميع الهدف المقصود ، بل كان هذا العصر كما يمليه الواقع ذهبياً لعلوم اللغة العربية كافة بالرغم من أنه عصر ضعف وانحلال في رابطة الدولة الإسلامية ، فإنه قلما عكف بعض علمائه على النحو وما يتصل به ، وبعضهم على الأدب وما يرتبط به ، وبعضهم على اللغة وما يتبعها ، شأن السابقين قبلهم في تخصصهم ، بل اتسعت آفاق مباحثهم ، وبذلوا عنايتهم في متنوع فروع العربية ، فأحاطوا بها مع اختلاف نسبي في العناية ببعضها دون بعض ، ولذا فإن كثيراً منهم ربما عدّه مؤرخو الفنون مرة في اللغويين ، وثانية في النحويين ، وثالثة

في الأدباء ، ورابعة في الأصوليين ؛ فالسیرانی والفارسی وابن جني والتبریزی والزبيدي والبطلیوسی لغویون نحویون صرفيون أدباء ، وكذا كثير منهم ممن لست في حاجة إلى التعريف عنه الآن ، فستعرف ذلك في ترجمته ، بل إن بعضهم تجاوز أفق العلوم العربية إلى علوم الشريعة ، فالزنجشیری لغوی نحوی صرفی بلاغی أديب مفسر متكلم ، وابن الخاجب أصولی نحوی صرفی فقيه ، وقد امتدت تلك الظاهرة الجديدة إلى من بعدهم من العلماء ، ومع هذا فإن الذي سوغ لنا ذكر من نذكر في النحويين شهرتهم الذائعة في النحو دراسة وتأليفاً .

نعم كانت هذه الأقطار مختلفة المشارب في نهجها العلمي ، تماثل وتتقارب وتتباعد بمقدار الاتصال والانفصال في مواقعها ، فلذا كانت العراق وما يليها شرقاً من فارس وخراسان وما يتصل بها غرباً من الشام تتشابه في مسلكها ، والأندلس والمغرب يتدانيان في مأخذهما ، والشام ومصر يتلاقيان في موردهما . وقد بدا لنا تقسيم الحديث عن هذا العلم ورجاله في هذا المطلب على هذا الاعتبار إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول

علم النحو في العراق وما يليه شرقاً
وما يقرب منه غرباً وعلماءه

إن الغالبين على هذه البلاد - وإن كانوا ممن لا يمتنون إلى أصول عربية - كانوا على علوم اللغة العربية أحذب من الخلفاء قبلهم ، فساختوا ببذر الأموال في رفع منارها ومكافأة المبرزين في علومها ، بل قد حجب إلى كثير من أولى الشأن فيهم مشاركة العلماء في هذا الشرف الأدبي ، فنالوا فيه مرتبة محمودة ، ولم يفت جلهم الحرص على أن تتوج مؤلفات علمائهم بأسمائهم ، فمن ذلك كتابا الإيضاح والتكملة لأبي علي الفارسي ، إذ صدرهما بالإهداء لعهد الدولة البويهية ، ولهما حكاية طريفة سندكرها في ترجمته ، وما ذلك إلا لأنهم يرونه مما يزيد في أبهتهم ، ويكبرهم في عيون شعربهم .

ولم يك عصر الدولة السلجوقية بعد الدولة البويهية بالعراق أقل نصراً للنحو وعلوم اللغة ، فللمدرسة النظامية التي أنشأها في بغداد نظام الملك (أبو علي الحسن بن إسحق بن العباس وزير السلطان ألب أرسلان وولده السلطان ملكشاه ، وقتل رحمة الله عليه سنة ٤٨٥ هـ) (١)

(١) تراجم الوزراء والسلاطين مستوفاة في وفيات الأعيان .

الأثر الحسن في توجيه العلماء إلى التعليم ، فنبغ بفضلها عدد وفير من العلماء ، وهي أول مدرسة بنيت ببغداد خاصة بالتدريس ، فكان قبلها في المساجد الجامعة ، وجعلت فيها الرواتب للمدرسين وللطلبة ، وأجريت عليهم الجرايات ، وسترى في تراجم العلماء أن منهم الأساتذة فيها ، وأن منهم من تلقى بها ثم رقى إلى الدراسة فيها . ولم تقصر عنها شأواً المدرسة النظامية في نيسابور ، فكان لازماً لهذا وذاك أن كثر الإنتاج للمؤلفات النحوية ، وأربى عدد المشتغلين بالنحو على من كانوا قبلهم في هذه البلاد ، غير أنهم ما برحوا يقتفون طرائق أسلافهم ، فكانوا مرآة صادقة لهم انطبعت فيها اتجاهاتهم لأخذهم عنهم ، فظلت النزعات الثلاث : البصرية والكوفية والبغدادية ، وهكذا تنقلت هذه النزعات من الأساتذة لمن يتلقون منهم حيناً من الدهر ، إذ أنهم تحللوا في أخريات أيامهم من الوقوف في هذا المحيط الثلاثي ، فاستباح المتأخرون بعدهم أن يرتضى منهم ما يشاء من المذاهب الثلاثة ، أو أن يبتدع رأياً جديداً بدا له . ولسنا بحاجة إلى ذكر أمثلة نبين فيها مختلف آرائهم في جزئية ، فإن أقوال العلماء الذين نحن بصددهم منشورة مشهورة في كتب النحو ، ولقد استمر نشاط هؤلاء المشاركة إلى أن دهمتهم حوادث التتر فصرفتهم عن العناية بهذا العلم . وهالك مشاهيرهم مرتبين بحسب وفياتهم مع ذكر بعض مؤلفاتهم :

١ - السيرافي

هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله ، نشأ بسيراف (من بلاد فارس على الخليج الفارسي) ، وارتحل إلى عُمان في سبيل العلم ، ثم عاد إلى سيراف ، ثم اتجه إلى عسكر مُكْرَم ، ثم توطن ببغداد وولى القضاء فيها . تلقى عن ابن السراج ومبرمان وابن دريد وغيرهم . دخل على ابن دريد مرة وهو يقول أول من أقوى في الشعر آدم في قوله :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرّ قبيحُ
تغير كل ذي لون وطعم وقلّ بشاشة الوجه المليح

فقال له يمكن إنشاده على وجه لا إقواء فيه ، وذلك بنصب بشاشة على التمييز ، ورفع المليح بقلّ ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وفرعه حتى أقعده بجانبه . نبه شأن السيرافي وبخاصة في النحو إلا أنه كان بصري النزعة ، وكان بينه وبين أبي الفرج الأصبهاني ما بين المتعاصرين ، وألف الكتب القيمة ، فشرح كتاب سيبويه بما لم يسبق إليه ، حتى حسده أتراه . وله كتاب أخبار النحويين البصريين ، وهذا الكتاب من المراجع التي اعتمدنا عليها ، توفي ببغداد سنة ٣٦٨ هـ (١) .

(١) ترجمته في المعاجم ، والحادثة مذكورة أيضاً في أمالي ابن الشجري - المجلس الخامس والأربعين .

٢ - ابن خالويه

هو أبو عبد الله الحسين بن محمد ، نشأ بهمدان ، ووفد إلى بغداد ، وأخذ عن ابن الأنباري وابن دريد وغيرهما ؛ وقرأ على السيرافي ، ثم توطن حلب ، وعطف عليه سيف الدولة ، وله مع المتنبي مناظرات . وكان كوفي النزعة ، قصير الباع في النحو ، طويله في اللغة ، يشهد بذلك ما ساقه في انتصاره لثعلب عند رده الاعتراضات العشرة التي فند بها الزجاج نصف كتابه « الفصيح » كما سبق التنويه عن ذلك في ترجمة الزجاج . وقد ذكر السيوطي ردود ابن خالويه مبسوطاً بعد ذكر اعتراضات الزجاج في الأشباه والنظائر (الفن السابع) في الجزء الرابع . وغير خاف أن للنزعة الكوفية في نفس ابن خالويه أثرها في الدفاع عن ثعلب . ومن مؤلفات ابن خالويه في العربية « ليس » . توفي بحلب سنة ٣٧٠ هـ .

٣ - الفارسي

هو أبو علي الحسن بن أحمد ؛ نشأ بفارس (من بلاد فارس) ، ثم ورد بغداد فأخذ النحو عن الزجاج ومبرمان وابن السراج وابن الحياط وغيرهم ، ثم طار صيته في الأقطار الإسلامية ، ورفع من شأن المذهب البصري ، فاتصل بملاوكها ، ونال الزلفى عند سيف الدولة الحمداني بحلب مدة أوغرت صدر ابن خالويه الذي كان عالم بني حمدان ،

ولهذا لما ألف كتابه «الإغفال» وذكر فيه ما أغفله شيخه الزجاج ،
تعقبه ابن خالوية عائباً ما ارتآه الفارسي ، فلم يسع الفارسي انتصاراً
لنفسه إلا أن يصنف كتاباً آخر يفند فيه تعقبات ابن خالوية سماه
«نقص الهاذور» ثم عاد إلى فارس ، ولقي من عضد الدولة البويهى
(فَنَّاخُسْرُو) بن ركن الدولة (حسن) بن بويه فرق الأمل ،
فقد كان عضد الدولة يفخر أنه غلامه ، ولما ألف له كتاب
«الإيضاح» استصغره ، فأردفه مغيظاً بكتاب «التكملة» فقال :
«غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو» ، وقد اتبع أبو على
في الإيضاح السابقين قبله في شراهدة ، فلم يعتمد على شعر المحدثين في
أحكامه ؛ بيد أنه استشهد في باب «كان» بيت لأبي تمام وهو قوله :
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولاً^(١)
وهذه الملاحظة عدت عليه ، لكن قالوا الحامل عليها أن عضد
الدولة كان كثير الإنشاد لهذا البيت ، فاعتماد الفارسي عليه مجازاة له
في تقديره لحكمة البيت ؛ هذا ، وكما كان ابن خالويه واجداً على الفارسي
كذلك السيرافي كان حاقداً عليه ، وتلك سنة المعاصرة بين أهل الفضل ،
ومن مصنفات الفارسي أيضاً التذكرة ، والمسائل الحلبية ، والبغدادية ،
والشيرازية وغيرها ، توفي بعد حياة حافلة بالدراسة والتأليف ببغداد
سنة ٣٧٧ عن نيف وتسعين سنة .

(١) البيت من قصيدة في مدح نوح بن عمر الكسكى من كندة .

٤ - الرّماني

هو أبو الحسن علي بن عيسى نشأ بالerman (بمدينة واسط) ،
ثم وفد إلى بغداد ، فأخذ عن الزجاج وابن دريد وابن السراج وغيرهم ،
ونبغ في العربية مؤيداً المذهب البصري مع ميل إلى الفلسفة لأنه معتزلي ،
وظهر ذلك في دراسته وتأليفه حتى قال الفارسي : « إن كان النحو
ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وإن كان النحو ما نقوله فليس به
منه شيء » . ومن مؤلفاته في النحو شرح كتاب سيبويه ، وشرح
مقتضب المبرد ، وشرح أصول ابن السراج ، توفي في بغداد سنة ٣٨٤ هـ .

٥ - ابن جني

هو أبو الفتح عثمان ، وأبوه جني (معرب كِنِّي) ، مملوك رومي
لسليمان بن فهد الأزدي . ولد أبو الفتح بالموصل ممتعاً بإحدى عينيه ،
وتلقى عن علماء الموصل ، ولم ينشب أن تصدر بها للدراسة يافعاً ،
فر الفارسي عليه وسأله والناس حوله فلم يُعحر جواباً ، فقال له :
« تزبيت وأنت حيضرم » ، فلأزمه بعدئذ ، ثم خلفه بعد وفاته في بغداد ،
وملاً اسمه الأسباع ، وحذق علوم اللغة العربية ، وارتحل إلى حلب كثيراً ،
وتناظر مع المتنبي فيها ، ثم توثقت بينهما أواصر المحبة . ومؤلفاته تهر
الأفكار ، فإنها مع كثرتها غاية في الإتقان ، منها في النحو الحصاص ،
وسر الصناعة ، والمحتسب ، واللمع . توفي ببغداد سنة ٣٩٢ هـ .

٦ - الرّبيعي

هو أبو الحسن علي بن عيسى المشهور بالرّبيعي (نسبة إلى ربيعة). قال ابن خلكان : « ولا أدري أهو ربيعة بن نزار أم غيره ». أخذ عن السيرافي ببغداد ، ثم ارتحل إلى شيراز فلزم الفارسي عشرين عاماً ؛ ثم آب إلى بغداد ، وتصدر للإفادة ؛ غير أن شدوذه الخلق نفر الناس منه ، فقد تبذل في المجون إلى غير حد ؛ ودأب على قتل الكلاب ومطاردتها . ومن تصانيفه النحوية شرح الإيضاح ، وشرح مختصر الجرمي ، توفي ببغداد سنة ٤٢٠ هـ .

٧ - ابن برهان

هو أبو القاسم عبد الواحد بن علي العكبري ، كان أول أمره منجماً ؛ ثم نظر في النحو واشتهر فيه إلى أن استقدمه إلى بغداد وزيرها عميد الدين فنال حظاً وفيراً ، غير أنه كان سيئ البزّة ، ومع هذا كان الأمراء والسوقة يجالونه لدينه وورعه ، توفي ببغداد سنة ٤٥٦ هـ .

٨ - التّبريزي

هو أبو زكريا يحيى بن علي بن الخطيب الشيباني من تبريز (من أكبر مدن أذربيجان) ، هاجر في سبيل العلم ، فسمع من ابن برهان وعبد القاهر الجرجاني وغيرهما ، زار البلاد المصرية ولبث فيها أياماً تلقى عنه فيها ابن بابشاذ ، ثم أقام ببغداد ودرس الأدب بالمدرسة

النظامية ؛ وطبقت شهرته الأرجاء ، فقصدته الحاق يفيدون من عرفانه ،
ومصنفاته العديدة برهان صدق على تفوقه في علوم اللغة العربية ؛ منها
في النحو مقدمة ، وشرح اللمع لابن جنى . تجاوز الله عن سيئاته فإنه
أدمن شرب الخمر ولبس الحرير وذهب العمامة ؛ توفي فجأة ببغداد
سنة ٥٠٢ هـ .

٩ - ملك النحاة

هو أبو نزار الحسن بن صافي ، أبوه مولى الحسين الأرموي التاجر ؛
الحسن ببغداد فأخذ النحو عن الفصيحى وغيره ، ثم سافر إلى واسط
ربل وخراسان وكرمان وغزنة ، وقصد الشام فلبث في دمشق مدة
ويلة وخرج منها ، ثم عاد إليها ورغد عيشه فيها برعاية نور الدين
محمود بن زنكى ، كان معتزاً بنفسه فاستخف بمن قبله ؛ لقب نفسه
ملك النحاة ، وكان يسخط على من لا يخاطبه بذلك ، ومن مصنفاته
النحوية الحاوى ، والعمدة ، والمسائل العشر المتعبات إلى الحشر ، وقد
تحدثى بها علماء العصر ، وهى مذكرة بنصها في سفر السعادة للسخاوى ،
ونقلها السيوطى عنه في الأشباه والنظائر « الفن السابع » ، وممن أجاب عنها
ابن برى المصرى وستأتى ترجمته . توفي الملك بدمشق سنة ٥٣٨ هـ .

١٠ - الزمخشري

هو أبو القاسم محمود بن عمر جار الله . ولد بزمخشري (بلد بخوارزم) ،

وتلقى عن النيسابورى وغيره ، ثم أربى على من تقدمه ، وغدا الإمام المعلم فى كثير من الفنون ، فشددت إليه الرحال . وكان معتزلى العقيدة ، ومؤلفاته بأيدينا تغنينا عن الإشادة بمعارفه ، منها فى النحو ، النونج ، والأمالى ، والمفرد والمؤلف ، والمفصل — وعن العلماء بالمفصل شرحاً وتعليقاً ، فمن أشهر شروحه شرح ابن يعيش ، وشرح الأندلسى . ولما وصل إلى بغداد قاصداً الحج احتفى به ابن الشجرى وتبادلا تحية يجمل بالأدباء تعرفها فى ترجمتهما ، وبعد أن جاور حرم مكة مدة تفل إلى وطنه ، فمات به سنة ٥٣٨ هـ .

١١ — ابن الشجرى

هو أبو السعادات هبة الله بن على الشريف البغدادى ، قال ياقوت : « نسب إلى بيت الشجرى من قبيل أوه » ، أخذ عن ابن طباطبا والتبريزى وغيرهما ، ثم تفرد بالزعامة فى بغداد ، فقد توافر فيه من كرم النجار ، وغزارة العلم ، وحسن الحظ ما هياها لها . ومن تصانيف ابن الشجرى « الأمالى » وهو سفر ممتع مشتمل على فنون من الآداب أملاه فى أربعة وثمانين مجلساً ، وقد التمس سماعه منه ابن الحشاش الآتى ذكره ، ولما لم يجبه إلى سماعه أحفظه ، حتى إذا وقف عليه خطأه فى كثير مما فيه ، فأحرق ابن الشجرى ونهض للرد عليه فى كل ردوده ، وألف من ذلك كتاباً سماه « الانتصار » وهو على صغر حجمه مفيد

جداً . ومن مؤلفاته النحوية شرح اللمع لابن جنى ، وما اتفق لفظه
واختلف معناه . توفي ابن الشجرى بالكرخ من بغداد سنة ٥٤٢ هـ .

١٢ - ابن الحشاش

هو أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادي ، أخذ النحو عن الجواليقي
والفصيحى وابن الشجرى وغيرهم ، حتى عدّ من أعلم أهل وقته فيه ،
مع الخطوة الكبرى فى سائر الفنون ، فذاع اسمه وكان حسن الخط والخط
فانتفع الناس به ، إلا أنه كان بخيلاً ، متبدلاً فى ملبسه ، قليل
المبالاة بالمحافظة على ناموس العلم . لم يتزوج ولم يتيسر .. وله مصنفات
فى النحو وغيره ، فمن النحوية شرح جمل الزجاجى ، والرد على ابن
بابشاذ ، وغيرهما ، توفي ببغداد سنة ٥٦٧ هـ .

١٣ - ابن الدهان

هو أبو محمد ناصح الدين سعيد بن المبارك البغدادي ، أخذ
عن مشايخ العصر ، ثم عد فى أعلام بغداد ، فكان يقال فى عصره
النحويون ببغداد أربعة : الجواليقي ، وابن الشجرى ، وابن الحشاش ، وابن
الدهان . وله مصنفات نحوية منها شرح الإيضاح والتكملة لأبى على ، والفصول
الكبرى ، والفصول الصغرى ، والدروس وغيرها . خرج من بغداد قاصداً
دمشق فاعترضه فى الطريق بالموصل وزيرها جمال الدين الأصفهاني وقيدته
بإحسانه فأقام فى كتفه إلى أن مات بها سنة ٥٦٩ هـ ، وله خمس وسبعون سنة .

١٤ - الأنبارى

هو أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد الأنبارى ،
سمع من أبيه فى الأنبار ، ثم نرح إلى بغداد وتعلم بالمدرسة النظامية ،
فأخذ عن الجوالقى ، ولازم ابن الشجرى ، ثم تبجر فى علوم اللغة
العربية ، وتيمن الناس به ، فتخرج سلى يده الكثير ، وكان محمود
السيرة ، وخلف مصنفات متنوعة نالت رواجاً ، ولنقتصر هنا على
ما طبقت شهرته العالم العربى ، فمنها أسرار العربية ، والإنصاف فى
مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ، وقد ساف التعريف عن
هذا الكتاب عند الكلام على نتائج الخلاف بين المذهبين : البصرى
والكوفى بما تبين منه ما احتواه من مسائل الاختلاف وأن صغرو
الأنبارى مع البصريين ، ونزهة الألبا فى طبقات الأدبا ، شرح فيه
تراجم النحاة من الإمام على إلى شيخه ابن الشجرى الذى أطال فى
مديحه ، وكان للتراجم مسلك الختام ، وقد رفع سنده من شيخه فى التلقى
عن فوقه حتى وصله بالإمام على كرم الله وجهه . وهذه الكتب مما لا غنى
لطالب العربية عن الانتفاع بها ، وهى من المراجع التى اعتمدنا عليها
فى هذا الكتاب .

وما تجب ملاحظته أن صاحب الترجمة غير ابن الأنبارى السابق
ترجمته فىمن كانت نزعته كوفية ، توفى الأنبارى ببغداد سنة ٥٧٧ هـ .

١٥ - المَطْرَزِي

هو أبو الفتح ناصر صدر الأفاضل بن أبي المكارم عبد السيد الخوارزمي ، ولد بخوارزم في السنة والبلدة التي مات فيها الزمخشري ، ولذا قيل له بعدُ خليفته ، لأنه كان يدعو إلى الاعتزال .
قرأ على أبيه وغيره فنبح في العربية ، وسار ذكره ، وبعُدَ صيته ، ودرس وصنف ؛ فمن مؤلفاته النحوية المصباح ، والمقدمة المطرزية ، ومن آرائه النحوية أن « سحر » مبنية عند قصد التعيين مع الظرفية ، ورد عليه ابن الناظم في شرحه على قول أبيه :

والعدل والتعريف مانعاً سحر إذا به التعيين قصداً يعتبر

بأوجه ثلاثة نقاها عنه خالد في التصريح ؛ ثم الأشدوني في شرحه .
والمطرزي - كما قال ابن خلكان - : « هذه النسبة إلى من يطرز الثياب ويرقمها ، ولا أعلم هل كان يتعاطى ذلك بنفسه أم كان في آباءه من يتعاطى ذلك ، فنسب له ، والله أعلم » . توفي المطرزي بخوارزم سنة ٦١٠ هـ .

١٦ - الكِنْدِي

هو أبو اليُمن زيد تاج الدين بن الحسن ، ولد ببغداد ، وتآق العلوم عن جلة العصر ، فقرأ النحو على ابن الشجرى وابن الخشاب

وغيرهما ؛ ثم قصد حلب للتجارة منها إلى بلاد الروم مدة طويلة ،
ثم رحل إلى دمشق ، وفيها طاب له المقام في كنف الأمير « فرخشاہ »
ابن أخى السلطان صلاح الدين الأيوبي حتى استوزره ؛ فدرس
وأفاد ، وازدحم الطلاب على الأخذ عنه ، وسمع منه الملك « عيسى »
الأيوبي صاحب دمشق كتاب سيبويه ، وشرحه لابن درستويه ؛
وإيضاح الفارسي . توفي بدمشق في شوال سنة ٦١٣ هـ .

١٧ - العكبري

هو أبو البقاء عبد الله الضرير بن الحسين ، أصله من عكبرا
(بليدة على دجلة فوق بغداد) ، ولد ببغداد ، وتلقى النحو عن ابن
الحشاب وغيره ، ثم حاز قصب السبق في علوم اللغة العربية ، حتى
لم يكن في آخر حياته من معاصريه من يضارعه فيها ، وتصدر لتعليم
الناس ، وغلب عليه اتجاهه إلى النحو ، وقد سبق أنه كوفي المذهب ،
وله مصنفات مفيدة ، منها في النحو شرح الإيضاح لأبي علي ، وشرح
اللمع لابن جنى ، وشرح المفصل للزمخشري ، والتبيين في مسائل
الخلاف بين البصريين والكوفيين ، ومضت كلمة عن هذا الكتاب
عند ذكر مسائل الخلاف بين الفريقين تعرفت منها أن هذا الكتاب
يظن ظناً مسامحاً لليقين أنه أثر المذهب الكوفي في كثير مما فيه ، يشهد
لقوة هذا الظن ما ذكره العكبري نفسه في شرحه لديوان المتنبي عند المناسبة
نشأة النحو

لذكر الخلاف ، فكما عزز الأنباري المذهب البصري عزز العكبري المذهب الكوفي ، توفي رحمه الله ببغداد سنة ٦١٦ هـ .

١٨ - ابن الحجاز

هو أحمد الضرير بن الحسين ، نشأ بإربيل ، وتلقى العلم بالموصل ، واشتهر فدره ، ومن مصنفاته النحوية : النهاية ، وشرح ألفية ابن معطي ، توفي بالموصل سنة ٦٣٧ هـ .

الفصل الثاني

علم النحو في مصر والشام وعلماءه

قد مضى أن القطرين في عصورهما الأولى لم يكونا مهدياً وثيراً للنحو كما كانت بلاد المشرق ، وحانت منهم التفاتات في أخريات الأيام إلى النحو ، فظعنوا إلى العراق وسمعوا من علمائه ، ثم نشره في القطرين ، غير أنهم كانوا يعدّون على الأصابع ، وقد ذكرنا أشهرهم سابقاً . وفي غضون هذه المدة وقُبَيْلَها وبُعَيْدَها ورد بعض علماء العراق الشام كالزجاجي والفارسي وابن خالويه وابن جني ، وبعضهم مصر كالبريزي ، فقد عرفت في ترجمته أنه أقام بمصر فترة من الزمن تلقى عنه فيها ابن بابشاذ ، وبعضهم القطرين ؛ غير أن ورود العلماء إلى القطرين يعدّ كرحلات في بلادهم الإسلامية ، فلا يترتب عليه آثار تجعل القطرين كالعراق مبعث العلم ، نعم كان لتشجيع بني حمدان في الشام وتمجيدهم العروبة وعلماءها ، لأنهم عرب — الداعي القوى في تحبيب العلماء الإقامة في الشام ، فقد سبق أن ابن خالويه توطنها في ذرا سيف الدولة حتى توفي بحلب ، ومن قبله الزجاجي الذي ما برح الشام حتى توفي بدمشق ، ومن بعده ملك النحاة الذي نعم بخفض العيش في دمشق تحت ظلال نور الدين محمود بن زنكي ، كما عرفت في ترجمته .

ظل القطران كذلك حتى قيضت لهما دولة الفاطميين التي كانت أوفر عناية مما قبّلتها ، وبخاصة في الدواوين ، إذ كانت تعتمد إلى تعيين المراقب عليها ممن عرف بالنحو وعاروم اللغة العربية ، فلا تصدر مكاتبتها إلا بعد وقوفه عليها ، وموافقته على ما فيها ، لأن الدولة عربية ، ومن تولى هذا المنصب فيها ابن بابشاذ وابن برّى ، ثم أعقبتها الدولة الأيوبية ، ولم تقصر شأواً عنها في هذا المضمار ، وإن كانت كردية الأصل ، فإنها كانت تجل العلماء وتحبهم ، وقد عرفت في ترجمة الكندي أن الأمير « فروخشاه » أحسن وفادته في دمشق واستوزره وبوأ له مقاماً رغيباً فيها حتى قضى نحبه ، وأن الملك « عيسى » الأيوبي تلقى عنه كتاب سيبويه وشرحه وإيضاح الفارسي ، كما تلقى ضد الدولة عن الفارسي من قبل ، بل إن هذا الملك باغ حبه العربية وإجلاله ذويها » أنه قد شرط لكل من يحفظ المفصل للزخشرى مائة دينار وخلعة ، فحفظه لهذا السبب جماعة » (١) .

لهذا نشأ بالقطرين في هذا العهد بعض علماء النحو الذين أخذوا عن أسلافهم من القطرين ، فكانوا يقفون كن سبقهم من العلماء مذاهب العراقيين ، لأنهم تلقوا نحوهم عنهم قبل إقفار المشرق من هذا العلم وعلمائه ، وقد توارد إليهم في هذا الحين فئة من المغاربة والأندلسيين في عهد الدولتين : الفاطمية والأيوبية . وليس بخاف أن المشتغين

(١) راجع ترجمة الملك عيسى في وفيات الأعيان ، وفي شذرات الذهب .

بالنحو في القطرين لهذا العهد — وإن زادت نسبتهم على سابقهم نسبياً — كانوا قليلي العدد ، ولم تمتد أيامهم ، على أن الشام كانت أركس نصيباً من مصر ، لكثرة الشغب بها من عدوان الصليبيين والتتر حيناً بعد آخر ، حتى آل الأمر إلى المماليك ، وولّى المسلمون وجوههم شطر القطرين بعد أن عصفت العواصف بالخلافة ، فحدثت نهضة جديدة بالتقدير لهذا العلم ، والكلام عليها في المطلب الثاني إن شاء الله .
ودونك أشهر العلماء في القطرين مرتبين على حسب وفياتهم :

أشهر علماء القطرين

١ — الحوفي

هو أبو الحسن علي بن إبراهيم ، وأصله من شبرا النخلة (من حوف بلبّيس) بمحافظة الشرقية . ورد القاهرة فسمع من أبي بكر الأدفوى وبعض علماء المغرب الذين نزحوا إلى القاهرة ، وسرعان ما اشتهر علمه وأدبه ، فتصدر لإقراء العربية ، وصنف في النحو « الموضح » استوفى فيه العلل والأصول . وقد لاحظ عليه ابن هشام في مقدمة كتابه « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » فرط عنايته بإعراب الواضحات كالمبتدأ والخبر والفاعل ونائبه والجار والمجرور والعاطف والمعطوف مما لا حاجة إليه . توفي سنة ٤٣٠ هـ .

٢ - ابن بابشاذ

هو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى ، وأصله من الديلم ، ولد ونشأ بمصر . ثم وفد إلى العراق لتجارة اللؤلؤ ، فجنحت نفسه إلى تلقى العلم عن علمائه ، وفتح عليه ، ثم قفل إلى مصر وتصدر للإفادة في جامع عمرو بن العاص ، وتولى ديوان الإنشاء للفاطميين حتى لا يخرج منه كتاب إلا بعد عرضه عليه . وله مصنفات نحوية ، منها شرح الحمل للزجاجي ، وشرح الأصول لابن السراج ، والتعليق المشهور بتعليق الغرفة . وقد انقطع آخر أيامه لعبادة الله في جامع عمرو ، وعلا سطحه في ليله مقمرة وبعينه بقية من النوم ، فزلت قدمه . ومات سنة ٤٦٩ هـ (١) .

٣ - ابن برى

هو أبو محمد عبد الله بن برى المصرى ، وأصله من المقدس ، ولد ونشأ بمصر ، فأخذ عن الشنبريني النحوى وغيره ، وشاع علمه فانتفع بالتلقى عنه خلق كثير ، ورأس ديوان الرسائل كابن بابشاذ ، وله مصنفات نحوية منها جواب المسائل العشر التي سأل عنها ملك النحاة كما تقدم في ترجمته ، ومع طول باعه في علوم اللغة كان يرسل كلامه

(١) بابشاذ كلمة أعجمية بسكون الباء الثانية أو كسرهما ، وبإعجام الذال أو إهمالها ، معناها الفرخ والسرور .

كيفما اتفق ، وكانت فيه غفلة عجيبة في غير العلم . توفي بمصر في شوال سنة ٥٨٢ هـ ، وله ثلاثة وثمانون عاماً .

٤ - ابن معط

هو أبو الحسين يحيى زين الدين بن عبد المعطى الزواوى ، ولد بالمغرب من قبيلة زواوة ، سمع من الجزولى وابن عساكر ، ثم رحل إلى دمشق واستوطنها ، وفيها انتفع الخلق بعلمه دراسة وتصنيفاً ، ثم أرغبه الملك الكامل الأيوبي في القدوم إلى مصر . فتصدر بالجامع العتيق لدراسة النحو والأدب على أجر جزيل . ومن مصنفاته النحوية « الألفية » التي أشار إليها ابن مالك في مستهل ألفيته ، وشرح الجمل للزجاجي . توفي بالقاهرة ودفن بالقرب من الإمام الشافعي سنة ٦٢٨ هـ .

٥ - ابن يعيش

هو أبو البقاء يعيش موفق الدين بن علي بن يعيش ، نشأ بحلب ، وتلقى النحو عن فتيان الحلبي وغيره ، ثم ارتحل إلى بغداد أملاً في السماع من كمال الدين الأنباري ، لكن شاء القدر ألا يراه ، فقد توفي قبيل وصوله إلى بغداد ، فعرج على الموصل ، ولبث بها مدة ، ثم عاد إلى حلب . ولما عزم على التصدير للإقراء رحل إلى دمشق ، فالتقى بالشيخ تاج الدين الكيندي السالف ترجمته ، ثم سأله عن مسائل كثيرة ، ومنها

إعراب ما ذكره الحريري في المقامة الرحبية العاشرة وهو « حتى إذا لآلأ الأفقَ ذنبُ السَّرحانِ ، وآن انبلاج الفجر ورحان ، فاستبهم الإعراب على الكِندي ثم قال له إنك أردت إعلامي بمكانتك ، وكتب بخطه شهادة بالثناء عليه ، ثم قفل ابن يعيش بعد هذا التطواف إلى بلدة حاب واستقر فيها للإفادة ، فانتفع الناس به حتى دان له رؤساؤها بالتأخذة ، وله شرح على « المفصل » في غاية الجودة ، وشهرته تغني عن التعريف به ولولا ضيق المجال لكتبت كلمة عنه أعرض فيها مزاياه . وقد أفاض في ترجمة ابن يعيش تلميذه ابن خلكان في وفيات الأعيان ، فقد تاقى عنه معظم كتاب « اللمع » لابن جني ، ونعته بالعلم والظرف والكياسة وخفة الروح . توفي رحمه الله بحلب ، ودفن بتربته بالمقام المنسوب إلى سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام سنة ٦٤٣ هـ .

٦ - السخاوي

هو أبو الحسن علي بن علم الدين بن محمد ، ولد في سخا (بمحافظة الغربية) . تلقى العلم عن البوصيري وغيره ، ثم انتقل إلى دمشق وسمع من الكندي وغيره ، وأربى على معاصريه مع الخلال الحميدة ، فازدحم الطلاب عليه في جامع دمشق ، ومن تصانيفه النحويه شرح أحاجي الزمخشري ، وشرحان للمفصل ، وله ألغاز في النحو بديعة ، توفي بدمشق سنة ٦٤٣ هـ .

٧ - ابن الحاجب

هو أبو عمر عثمان جمال الدين بن عمر الكردي الأصل ، المشهور بابن الحاجب ، لأن أباه كان حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي بالقاهرة . ولد ابن الحاجب بإسنا ، ثم تعهده أبوه بالقاهرة ، فحفظ القرآن ولما يفيق ، وتلقى العلوم عن الشاطبي وغيره فتبحر في العربية حدثاً ، ثم انتقل إلى دمشق ، فأكسب الناس عليه في متنوع الفنون إلا أنه غلب عليه النحو ، وتردد مراراً أمام قاضي الشام ابن خلكان بسبب أداء شهادات ، فكان يسأله عن مشاكل في العربية ذكر بعضاً منها في ترجمته في وفيات الأعيان ، ثم عاد إلى القاهرة وتصدر بالمدرسة الفاضلية ، ثم انتقل إلى الإسكندرية .

كان رحمه الله أصنف الناس ذهناً وأقدرهم بياناً مع الإيجاز ؛ اشتهر بالتصانيف المختصرة المنقحة في جملة من العلوم ، ورزقت مصنفاته القبول ، فمنها في النحو « الإيضاح » شرح المفصل للزمخشري ، « والأمالى » الذي هو الغاية في الدقة ، و« الكافية » وشرحها . والكافية على وجازتها حوت مقاصد النحو بأسرها ، فلا غرابة أن يتسابق حذاق النحاة في شرحها . ويضيق المقام عن استيعاب شروحها ، وفي كشف الظنون تفصيلها . ومن شرحها الرضى والجامي ، وسند كرنبذة عن هذين الشرحين ، في ترجمة أصحابهما . توفي رحمه الله بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ .

الفصل الثالث

علم النحو في الأندلس والمغرب وعلماءه

تباعدُ الشقة بين هذه البلاد والعراق مَهْدُ النحو قضى عليها أن تتأخر ربحاً من الزمن عن اقتفائها العراق في مزاولته إلى أن نضج وكمل ، وعناية الولاة على الأندلس من قِبَلِ بنى أمية منذ فتحه سنة ٩٣ هـ منصرفة إلى إخضاع البلاد للخلافة فحسب ، نعم . لما استقل بنو أمية بالأندلس على يد عبد الرحمن الداخل ، صقر قریش ، سنة ١٣٨ هـ ، وتوطد فيها الملك له ولعقبه من بعده ، استقبلت الأندلس عهداً جديداً ، وبدأت الحركة العلمية فيه ، بفضل مناصرة بنى أمية اللغة جرياً على دأب بنى أبيهم في المشرق ، فأرغبوا العلماء في العلم ، وكافئوهم على دراستهم وتصنيفهم ، فاستحث ذلك دول المغرب التي كانت تموج بالاضطرابات آنئذ ، لأنها دول عربية تقدر الكتاب الكريم ، وتحب على اللغة العربية لغة الدين ، ففي المغرب الأقصى دولة الأدارسة العلوية نشأت على يد إدريس بن عبد الله بن حسن في مدينة « ويلي » سنة ١٧٢ هـ وضمت إليها بلاد تلمسان ؛ وفي شمال إفريقية دولة الأغالبة التي أسسها إبراهيم بن الأغلب التميمي المتوفى سنة ١٨٤ هـ .

ثم قامت على أنقاض الدولتين الدولة الفاطمية ، واحتارت المغرب سنة ٢٩٧ هـ ، وامتد نفوذها من المحيط الأطلسي إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ ، فنهضت المغرب تجاري الأندلس . بحكم قرب البحار واتحاد اللغة والدين ، لذلك تجشم أفراد من الأندلس والمغرب الأسفار إلى المشرق ، ورووا عن علمائهم ، واقتبسوا من معارفهم ، إذ لم يكن في مقدورهم الرحلات إلى البوادي ومشاهدة الأعراب فيها كما صنع المشارقة . وقفوا إلى المغرب والأندلس مزودين بعلوم المشارقة زيادة على ما جلبوا معهم من مؤلفاتهم ، إلا أنه كان للمغاربة فضل السبق على الأندلسيين لقرب بلادهم من المشرق وبعد الأندلسيين منه ، وستقف على هذا عند الكلام على تراجم الفريقيين قريباً .

وقد تجاوب مع هذه الرحلات المشرقية في رفع شأن اللغة العربية تقاطر المشارقة وتوافد كثير من علمائهم إلى المغرب والأندلس ، لتوافر المرغبات في النزوح إليهما مادياً وأدبياً . ومن ورد الأندلس أبو علي القمالي الذي رعاه أحسن رعاية « الحكم المستنصر » ولي عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠ هـ . وأحسن مثواه حتى لقي ربه في الأندلس . وتوفي بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ .

فتولد من هذين العاملين حركة في علم النحو في ظل الأمويين والأغالبه والفاطميين ، واطرد نموها ، وازدهرت في آخر عهدهم ، وازداد ازدهارها في عصر ملوك الطوائف الذين قاموا على أنقاض الأمويين

وتقاسموا بلاد الأندلس بينهم من سنة ٥٤٢٨ هـ ، فإنهم كانوا يتبارون في تقدير العلم وأهله حتى كان منهم العلماء والمؤلفون ، وفي خلال تلك الحقبة هبت نسمة من الأندلس على بلاد المغرب انتعشت فيها ، فظهر في الأندلس والمغرب علماء ضارعوا علماء المشرق ، وانتشرت دراسة النحو في سائر المدن ، وكادت الأندلس تحكى صورة العراق في عصره الزاهر ، فكان غير عجب — لما فسدت السليقة بالبادية في أواسط القرن الرابع الهجري ، وانصرف علماء المشرق إلى درس ما حفظوه ودونوه من كلام العرب — أن يصنع كذلك بعد حين المغاربة والأندلسيون في اجتزائهم بما نقلوا من ألسنة وكلام العرب المروى لهم عن علماء المشاركة والقواعد التي تلقنوها منهم ، فلم يرتحلوا بعاءاً إلى المشاركة ، وعكفوا على ما حصلوا عليه ، وصدقوا العزيمة في تسمير ما عندهم .

وتقضى البداهة أن إنعام الفكر في المسائل موح وملهم باستكمال بعض النقص الفاتت ، وهذا ما كان من الأندلسيين بعد استغنائهم عن المشاركة واعتمادهم على أنفسهم ، فإنهم عدلوا عن بعض آراء المشاركة في النحو ، وخالفوهم في منهاج تعليمه وتدوينه ، واستأدركوا عليهم مسائل فاتتهم ، وبذلك استحدثوا مذهباً رابعاً عرف بمذهب المغاربة أو الأندلسيين ، ظهرت مبادئه من أرائل القرن الخامس الهجري ، الذي يعد بحق فجر النهضة النحوية في هذه البلاد ، ولقد كانت نهضة رائدتها المفة المحضة لهذا الفن في تلك البلاد المحرومة منه زمناً طويلاً ، ومن ذلك الحين قرروا كتاب سيبويه .

كتاب سيبويه عندهم

لكتاب سيبويه عندهم منذ فجر النهضة العلمية بينهم المكانة المقدسة . فجدّوا وتحملوا المشاق والأخطار في ارتحالهم من بلادهم إلى المشرق للحصول على صورة منه ، وإنها لمشقة لا تسهل إلا على هؤلاء الذين أحبوا العلم للعلم ، والرغبة الخالصة لا يحزل دونها حاجز ، وإن تعذر اجتيازه . وسيأتى ذكر أعلام منهم استطاعوا نقله من الشرق في فجر النهضة عندهم ، فتكاثر نسخته بعدئذ ، وصارت كتابهم المقدس في العربية ، وإليه تؤول فضيلة النهضة الأندلسية المغربية ، فقد شغف به الأندلسيون والمغاربة من هذا الحين ، وتنافسوا في إظهاره ، إذ كان حفظه عندهم شارة النبوغ في العربية ، فمن حفظه حمدون النحوي القيرواني ، وخلف بن يوسف الشنتريني وغيرهما ، وعنوا بشرحه والتعاليق عليه ، فشرحه منهم أبو بكر الحشني وابن الطراوة وابن خروف وابن الباذش وغيرهم . وما انفكت العناية به تزداد ترى حتى انتهت رياسة النحو إلى ابن الضائع ، فقد شرح كتاب سيبويه ، وأبدى مشكلات فيه عجيبة .

لقد اطرّد تجميع هذه النهضة في تلك البلاد وشيكًا ، ونمت الحركة العلمية ، وكثر العلماء ، وتباروا في تصنيف المؤلفات مع تنويع الإنتاج بين نحوية وغيرها ، فتطلعت إليهم الأنظار في سائر البلاد الإسلامية ،

وملأت قرطبة الأندلس الأسماع ، وخلفت بغداد العراق ولاسيما في النحو الذى حظى منهم بما حرمة غيره من فنون أخرى ، فقد سارت نهضتهم النحوية قدماً حتى القرن السابع الهجرى ، إذ فيه تسنم الذروة العليا من عناياتهم ، قال ابن سعيّد المغربي ونقل كلامه المقرئ قال : « والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة حتى إنهم فى هذا العصر (القرن السابع) فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لايزداد مع هرم الزمان إلا جِدَّةً ، وهم كثير ، والبحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الازدراء »^(١).

وعلى كر الأيام تكاثرت مسائل مذهب المغاربة والأندلسيين الجليلين ، وذاعت قواعده ، وامتدت حياته حتى أخذه عنهم المشاركة بعدما ضعف شأنهم ، إذ قد نرح كثير من المغاربة إلى المشرق إما للحج أو للإقامة ، ودرسوا فى مساجده ومدارسه ومعهم مؤلفاتهم كابن مالك وغيره .

وستعرف فى المطلب الثانى بعد سقوط بغداد وانقطاع المدد من العراق إلى القطرين (مصر والشام) أنه كثر تدفق الأندلسيين والمغاربة إليهما ، فنفعوهما نفحة لا ينساها التاريخ لهم . وهنا يحسن أن نذكر على سبيل الإرشاد بعض ما عرف عن جمهور المغاربة والأندلسيين من

(١) نفح الطيب الباب ، الأول من القسم الأول (القرآن والعلوم الشرعية بالأندلس) .

عناصر مذهبهم مخالفًا للمعروف من المذاهب : البصرية والكوفية
والبغدادية ، فمن ذلك :

أمثلة للمذهب الأندلسي المغربي

١ - منع توكيد العائد المنصوب المحذوف قياسًا . نحو جاء الذى
ضربت نفسه قال الأشموني : « ومنعه ابن السراج وأكثر المغاربة »^(١)
٢ - اعتبار الفعل القلبي معلقًا عن الجملة المسبوبة بالمعلق بعد
المنعول الأول ، قال ابن هشام : « قال جماعة من المغاربة إذا قلت
علمت زيداً لأبوه قائم أو ما أبوه قائم ، فالعامل معاق عن الجملة ، وهو
عامل فى محلها النصب على أنها مفعول ثان ، ونخالف فى ذلك بعضهم
لأن الجملة حكمها فى مثل هذا أن تكون فى موضع نصب . وألا يؤثر
العامل فى لفظها وإن لم يوجد معلق وذلك نحو علمت زيداً أبوه
قائم »^(٢) .

٣ - تجويزهم تأخير حال الفاضل عن اسم التفضيل . قال السيوطى :
« وأجاز بعض المغاربة تأخير الحالين عن أفعل بشرط أن يليه الحال

(١) شرحه على الألفية ، باب الموصول العائد المنصوب .

(٢) المغنى الباب الثانى ، الحمل الى لها محل من الإعراب ، الجملة الثالثة الواقعة
مفعولاً .

الأولى مفصولة عنه من الثانية ، فيقال هذا أطيب بسرّاً منه رطباً ؛
وزيد أشجع أعزلّ من عمرو ذا سلاح . قال أبو حيان : وهذا حسن في
القياس لكنه يحتاج إلى سماع « (١) » .

٤ - اعتبارهم نصب « غير » في الاستثناء كنصب المستثنى بإلا ،
قال ابن هشام : « وانتصاب غير في الاستثناء عند تمام الكلام عند المغاربة
كانتصاب الاسم بعد إلا عندهم » (٢) .

٥ - جواز العطف في تمييز المقدار المكون من الجنسین ، نحو :
عندى رطل سمناً وعسلاً ، قال السيوطي : « وقال بعض المغاربة الأمران
سائغان ، العطف وتركه » (٣) .

٦ - عدم اعتبار العطف لأم المنقطعة مطلقاً ، قال الصبان :
« فابن جنى والمغاربة يقولون ليست بعاطفة أصلاً لا في مفرد ولا جملة » (٤) .

٧ - تصحيحهم عمل أن المخففة المفتوحة في الظاهر أيضاً ، قال
السيوطي : « الثاني أنها تعمل في المضمر وفي الظاهر ، نحو علمت أن
زيداً قائماً ، وقرئ (أن غضب الله عليها) ، وعليه طائفة من المغاربة » (٥) .

٨ - تسويغهم نصب المضارع بعد الفاء في جواب الاستفهام

(١) هم الهوامع باب الحال . (٢) المغنى الباب الأول « غير » .

(٣) هم الهوامع باب التمييز . (٤) حاشيته في عطف النسق .

(٥) هم الهوامع « تخفيف أن » .

المتضمن وقوع الفعل . نحو : لِمَ ضربت زيداً فيجازيك ؟ مخالفين
اشتراط النحاة عدم الوقوع ، قال الأشموني : « ولم يشترط ذلك
المغاربة » (١) .

٩ - قصر حذف أن الداخلة على المضارع على السماع سواء أبقى
منصوباً أم رفع ، قال الأشموني : « وإليه ذهب متأخرو المغاربة »
قيل وهو الصحيح » (٢) .

تلك بعض قواعدهم . أما خلافااتهم الشخصية وتعليلاتهم وطريقتهم
فهى تحت البصر بكتبهم . ولا تنس ما سبق التنبيه عليه فى آخر المطلب
الأول من أن علماء الأندلس والمغرب يشاركون علماء العراق وعلماء
القطرين فى استيفاء المصادر كلها تراجمهم ، ونريد هنا أن نقول إن علماء
الأندلس والمغرب قد ترجمهم أيضاً المقرئ فى « نفح الطيب » ، وهالك
بعض مشهوريتهم مرتبين بحسب ممااتهم :

أشهر علماء الأندلس والمغرب

١ - جودى

هو ابن عثمان النحوى المغربى ؛ نشأ فى مورور (قرب القيروان) ،
ورد العراق ، وأخذ عن الكسائى والفراء والرياشى ، وروى عن الكسائى

(١) شرحه على الألفية إعراب الفعل .

(٢) شرحه على الألفية آخر باب إعراب الفعل . النواصب .

كتابه . واستصحبه معه في عودته إلى وطنه ، غير أنه اتجه بعد إلى قرطبة ، فكان أول من أدخل كتاب الكسائي هذه البلاد ، وألف في النحو وتصدر للإفادة حتى توفي بقرطبة سنة ١٩٨ هـ .

٢ — حمدون

هو النحوى المغربى محمد بن إسماعيل ، نشأ بالقيروان ، وتلقى عن المهري ، ثم بلغ الغاية في النحو والغريب ، وهو أول من عرف بحفظ كتاب سيويه ، وطبع أن الكتاب كان في المغرب ، ولا يعرف على التعيين أول من جلبه ، ولحمدون كتب في النحو ، وتوفي بعد سنة ٢٠٠ هـ .

٣ — الأفشنيق

هو محمد بن موسى الأندلسي ، رحل إلى المشرق ، فأخذ بمصر عن أبي على الدينوري كتاب سيويه وانتسخه ، وبالبصرة عن المازني ، ثم عاد إلى الأندلس ومعه الكتاب ، ويغلب على الظن أنه أول من أدخل الكتاب الأندلس ، توفي بقرطبة سنة ٣٠٧ هـ .

٤ — محمد بن يحيى الرباحي الأندلسي

أصله من جيان ، وانتقل أبوه إلى قلعة رباح (من أعمال طليطلة) . حذق علوم العربية ، واشتهر بالنحو ، ورحل إلى مصر فلقى أبا جعفر النحاس وروى عنه كتاب سيويه ، ثم عاد إلى الأندلس وتلقى عنه الزبيدي ،

وكرمت منزلته عند الحكم المستنصر بالله ، وأشرف على الدواوين ، وبقى أثيراً إلى أن توفي بقرطبة سنة ٣٥٨ هـ .

٥ - الزُّبَيْدِي

هو أبو بكر محمد بن الحسن ، أصله من زُبَيْد (قبيلة يمنية) ، ولد في إشبيلية ، وتأدب على أبيه ثم سمع من أبي على القالي ومحمد بن يحيى الرباحي وغيرهما في قرطبة ، حتى غدا أواحد زمانه في النحو وحفظ اللغة ، فاختره الحكم المستنصر بالله لتأديب ولده ، وولاه قضاء إشبيلية وخطبة الشرطة بها ، وله مؤلفات : الواضح في النحو ، وأبنية الأسماء في الصرف ، واستدراك العين في اللغة ، وطبقات النحويين واللغويين في التراجم .

تعريف بكتابه : طبقات النحويين واللغويين

لهذا الكتاب منهج خاص في التراجم يرشد إلى المقصود بسهولة ، فإنه من جهة فصل بين النحويين واللغويين ، وجعل لكل باباً ، ومن جهة أخرى ذكر البصريين وحدهم ، ثم الكوفيين ، ثم الإفريقيين ، ثم الأندلسيين ، ورتبهم طبقات طبقة تلي أخرى مشيراً إلى مدارسهم وشيوخهم مع جودة الضبط .

نعم ، قد اضطرت في التعبير الإقليمي إلى مخالفته في « الإفريقيين » فاستبدلت بها « المغاربة » لأنها المذكورة في كتب النحو التي بأيدينا .

ومن الاعتراف بالفضل لصاحبه الإشادة بصنيع الزبيدي ، فإنه الذى مهد لنا السبيل فى توزيع علماء النحو خاصة إقليمياً — وهو الهدف الذى ننظره — منذ كان من أبى الأسود إلى شيخ الزبيدي السابق محمد بن يحيى الرباحي . المتوفى سنة ٣٥٨ هـ . لأن ترجمته آخر تراجم الطبقات . فلو تأخر عهد الزبيدي لامتد هذا التفصيل النافع إلى أمله ، ونخفف عنا عناء التفتيش فترة أخرى ، فى المعاجم المعنية بعلماء النحو بدون التنصيص على من عرفوا به واشتهروا دون اللغة ، فإن جلّهم جامعون بين الفنين ، وبعضهم ضم إليهما فنوناً أخرى وبدون التعيين فى أبواب لأقاليمهم ، ولكل إقليم طابعه الخاص فى النحو والنحاة ؛ أما طبقات الزبيدي فإنها أضافت على فائدة الترجمة ثلاث فوائد : شهرة المترجم بالنحو ، ومذهبه فيه ، وموطنه المنسوب إليه . لهذا كانت مطمح أنظار العلماء — ظل الزبيدي موضع التجلّة فى قرطبة حتى توفى سنة ٣٧٩ هـ .

٦ — الأعلام

هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلام (لانشقاق شفته العليا) ، ولد بـشَنَتَمَرِيَّة (مدينة فى غرب الأندلس) ، ورحل إلى قرطبة ، فتلقى عن الإقليلي وغيره ، وشهرته قوة الحافظة ، فبعدت سمعته . فكانت تضرب إليه أكباد الإبل ، وكفّ بصره آخر حياته ، وكانت تغلب عليه النزعة الأدبية كما ترى فى مؤلفاته . فله شرح الجمل

للزجاجي ، وشرح شواهد سيبويه ، وشواهد الجمل ، وديوان زهير ،
والحماسة وغيرها ، توفي بأشبيلية سنة ٤٧٦ هـ .

٧ - ابن السيد البطلانيّوسى

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد ، ولد في بطلانيّوس واستوطن
بلنسية موفور الكرامة لعلمه الجهم ، فترامت سمعته إلى ابن
الحاج صاحب قرطبة الذى استقدمه إليها ، غير أنه أقام عنده قليلا
ونخافه فعاد إلى بلنسية ، ومؤلفاته كثيرة ، له في النحو المسائل المنثورة ،
وإصلاح الخلل الواقع في الجمل ، والخلل في شرح أبيات الجمل ، توفي
ببلنسية سنة ٥٢١ هـ .

٨ - ابن الطراوة

هو أبو الحسين سليمان بن محمد ، ولد بمالقة ، ورحل إلى قرطبة
فسمع من الأعلام كتاب سيبويه ، كما أخذ عن غيره ، ثم تجول كثيراً
في الأندلس ، فانتفع به خلق كثير ، وكان جريئاً في آرائه ، لهذا انفرد
بمسائل جمة خالف فيها النحاة ، ولم يتحاش تغليط سيبويه في الكتاب
في « باب النعت » كما رأيت عند الكلام في ترجمة سيبويه ، ومن مصنفاته
المقدمات على كتاب سيبويه ، والترشيح ، توفي بمالقة سنة ٥٢٨ هـ .

٩ - ابن الباذش

هو أبو الحسن على بن أحمد ، ولد بغرناطة ، وشب على حب

الفضيلة والزُّهد في الدنيا ، وبرع في الشريعة والعربية فأكبره لِدَاتِهِ ،
بذل همته في النحو فشرح أمهات الكتب ؛ إذ شرح كتاب سيبويه ؛
والأصول لابن السراج ، والمقتضب للمبرد ، والإيضاح للفارسي ، والجمل
للزجاجي ، والكافي للنحاس ، توفي بغرناطة سنة ٥٣٨ هـ .

١٠ - اللخمي

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي ، ولد في سبْتَةِ ،
ولما شدا مبادئ اللغة والشريعة ، انكب على التزيد فيهما حتى صنف
مؤلفات ، منها في النحو كتاب الفصول والجمل ، توفي بسبْتَةِ
سنة ٥٧٠ هـ .

١١ - ابن طاهر

هو أبو بكر محمد بن أحمد بن طاهر المشهور بالخِدَاب ، ولد
في إشبيلية ، ورحل إلى مراكش ، فدرس في « فاس » كتاب سيبويه ،
وذاع اسمه ، فأقبل الناس عليه من الجهات النائية ، وله طرر على الكتاب
توفي بفاس سنة ٥٨٠ هـ .

١٢ - السُّهيلي

هو أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله ، ولد بمالقة ،
وسمع من ابن الطراوة وغيره ، وكف بصره في السابعة عشرة ، فعوضه الله

نور البصيرة ، وأحسن الناس فيه عقيدتهم ونفذت سمعته العلمية والدينية إلى بلاد المغرب ، ونمى خبر إملاقه إلى ملكها فاستقدمه ، ومكث بها ثلاثة أعوام مغموراً بالإحسان ؛ وله مصنفات منها : التعريف والإعلام بما في القرآن من الأسماء والأعلام ، والروض الأنف شرح السيرة . حدثت مسائل بينه وبين ابن خروف مذكورة (في الفن السابع) من الأشباه والنظائر ، الجزء الثالث ، توفي رحمه الله بمراكش سنة ٥٨٣ هـ (١) .

١٣ - ابن مضاء

هو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمي القرطبي ، نشأ بقرطبة في بيت حسب محباً للعلم ، فأخذ عن ابن الرماك في إشبيلية كتاب سيبويه تفهماً ، وسمع عليه وعلى غيره من الكتب النحوية واللغوية والأدبية ما لا يحصى ، وامتد نهمه إلى سائر العلوم من الأصول والهندسة وغيرهما ، فكان وحيد عصره وتولى رئاسة القضاء في عهد أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن من دولة الموحدين . وله في النحو كتاب « المشرق في النحو » ، وكتاب « الرد على النحاة » ، وهذا الكتاب هجم فيه على نحاة المشرق ، وفند بعض قواعدهم : في اعتبار العامل ، وفي توجيه العلل ، وفي اعتبار

(١) السهيل منسوب إلى سهيل بلدة قريبة من مالقة فيها أهل وأقاربه ، وسميت بذلك لأن كوكب سهيل لا يرى في بلاد الأندلس إلا من جبل مغل عليها .

القياس ، وفي التعويل على التمارين الفرضية ، ويحتاج بسط ما في الكتاب إلى تفصيل لا يسعه المقام ؛ وكتاب « تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان » ، وخطأه ابن خروف في هذا الكتاب ، وناقضه بكتاب « تنزيه أئمة النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسهو » ، ولما بلغ ابن مضاء اغتاض ، ثم قال : لا نبالي بالأكباش النطاحة وتعارضنا أبناء الحرفان ! توفي ابن مضاء في إشبيلية سنة ٥٩٢ هـ .

١٤ - الجزولي

هو أبو موسى عيسى بن يَسْلَبَخْت من قبيلة (جزولة) من قبائل البربر بمراكش ، نشأ بمراكش ، ولما حج عرج على مصر ، فتلقي النحو عن ابن برقي ، وقرأ عليه كتاب « الجمل » للزجاجي ، وجرى فيها بحث نتج عنه مقال طويل جعله مؤلفاً « المقدمة » ، وقد عني الناس بها ، وفي كشف الظنون : « هي المسماة بالقانون ، أغرب فيها وأتى بالعجائب ، وهي في غاية الإيجاز مع الاشتغال على شيء كثير من النحو لم يسبق إلى مثلها » . ثم عاد إلى المغرب وأخذ الناس عنه حتى توفي بمراكش سنة ٦٠٥ هـ .

١٥ - ابن خروف

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحضرمي الإشبيلي ، ولد في إشبيلية ، وأخذ عن ابن طاهر السابق ترجمته ، ثم برز في العربية ،

ومن مصنفاته النحوية شرح كتاب سيبويه أهداه إلى صاحب المغرب
فمنحه ألف دينار ، وشرح الجمل للزجاجي . ومع طول باع المترجم في
النحو ، وذيوع صيته في التدقيق ، وغزارة مؤلفاته ، كان في خلقه
زعارة ، فلا عجب أن يندفع إلى منازلة السهيلي في المسائل المنوه عنها
في ترجمته ، وأن يعدو على ابن مضاء في مناقضته لكتابه المذكور
آنفاً في ترجمته .

ومما هو حَرَّ بالملاحظة أن ابن خروف النحوى غير ابن خروف
الشاعر المشهور ، وإن اتفقا اسماً وكنية ولقباً وأباً ، فقد اختلفا جداً
ونسباً ووطناً ووفاة ومدفنًا ، فإن ابن خروف الشاعر هو أبو الحسن
على بن محمد بن يوسف القيسي القرطبي ، وهو الذى أرسل قصيدة
للقاضى فى حلب يوسف بهاء الدين المعروف بابن شداد يستجديه
فرو خروف ، وتوفى متردياً فى جب بحلب سنة ٦٠٤ هـ . ولعل
الاشتباه بين النحوى والشاعر هو الذى تسرب منه الخطأ فى نسبة شعر
للنحوى ، ولم يتنبه لهذا أحد ممن ترجم النحوى قبل ابن خلكان وبعده ،
فإنه وحده الذى حقق هذا الفرق فى وفيات الأعيان ترجمة القاضى
يوسف المذكور ، وهذا التحقيق من ابن خلكان جدير بالتقدير
والاعتبار ، توفى ابن خروف النحوى بأشبيلية سنة ٦١٠ هـ .

١٦ — الشلوينى

هو أبو على عمر بن محمد المعروف بالشلوبينى ، ولد بأشبيلية ،

وَأُتْخِذَ عَنِ السَّهْلِيِّ وَالْخَزَوِيِّ وَغَيْرِهِمَا ، ثُمَّ انْتَهَتْ إِلَيْهِ رِيَاسَةُ النُّحَاةِ غَيْرِ
مُدَافِعٍ ، بَلْ تَغَالَى مَعَاصِرُهُ فَقَضَلُوهُ عَلَى أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ ، وَبِهِ انْتَهَتْ
دَوْلَةُ الْأُئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ ، وَكَانَ مَعَ هَذَا فِيهِ غَفْلَةٌ وَحِكَايَاتُهُ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ ،
وَمِنْ مَصْنُفَاتِهِ النُّحَوِيَّةُ : التَّوْطِئَةُ ، وَالتَّعْلِيقُ عَلَى كِتَابِ سَيَبَوِيهِ ، تُوُفِيَ
بِإِسْبِيلِيَّةٍ سَنَةِ ٦٤٥ هـ (١) .

١٧ - ابن هشام الحضراوى

هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْخَزَرَجِيُّ ، مِنْ الْخَزِيرَةِ الْحَضْرَاءِ ،
أَخَذَ عَنْ ابْنِ خُرُوفٍ وَغَيْرِهِ ، وَعَنَى فِي تَصْنِيفِهِ بِكِتَابِ الْإِيضَاحِ ، فَأَلَفَ
الْإِفْصَاحَ بِفَوَائِدِ الْإِيضَاحِ ، وَالْإِقْتِرَاحَ فِي تَلْخِيصِ الْإِيضَاحِ ، وَغَرَّرَ
الْإِصْبَاحَ فِي شَرْحِ أَبْيَاتِ الْإِيضَاحِ ، تُوُفِيَ بَتُونَسَ سَنَةِ ٦٤٦ هـ .

١٨ - ابن الحاج

هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، قَرَأَ عَلَى الشُّلُوبِينِيِّ وَأَمْثَالِهِ ، وَمَهَّرَ
فِي عُلُومِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَصَنَّفَ فِيهَا ، لَهُ فِي النُّحُوِّ إِمْلَاءٌ عَلَى كِتَابِ سَيَبَوِيهِ ،
وَمُخْتَصَرُ الْخَصَائِصِ لِابْنِ جَنِّيٍّ ، وَشَرْحُ الْإِيضَاحِ ، كَانَ يَقُولُ : إِذَا مِتَ
يَفْعَلُ ابْنُ عَصْفُورٍ فِي كِتَابِ سَيَبَوِيهِ مَا شَاءَ ، تُوُفِيَ سَنَةِ ٦٤٧ هـ .

(١) الشُّلُوبِينِيُّ بَيَّاهُ النِّسْبَةَ قَالَ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ : (شُلُوبِينَ أَوْ شُلُوبِينَهُ أَوْ شُلُوبِينِيَّةَ :
حَصْنٌ بِالْأَنْدَلُسِ) وَقَالَ فِي الْقَامُوسِ : (شُلُوبِينَ أَوْ شُلُوبِينِيَّةَ : بَلَدٌ بِالْمَغْرِبِ) ، وَقَالَ
فِي وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ (الشُّلُوبِينَ : الْأَبْيَضُ الْأَشْقَرُ بِلُغَةِ الْأَنْدَلُسِ) ، وَرَوَى بِغَيْرِ النِّسْبَةِ
وَالْبَاءَ عَلَى كُلِّ مَشْوَبَةٍ بِالْفَاءِ لِأَنَّهَا أَعْجَبِيَّةٌ .

المطلب الثاني

علم النحو وعلماءه

بعد سقوط بغداد

لقد كان سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، على يد الطاغية « هولاكو » المغولي التتري ، حدث الأحداث ، إذ تقوض عرش الخلافة الذي كان ملاذ المسلمين ردتاً من الدهر على اختلاف أجناسهم وتنائي أقطارهم ، سادوا فيه العالم ، وبسطوا نفوذهم على رقعة فسيحة من البسيطة ، رفرت عليها راية اللغة والدين .

قضى الله ودالت دولة الخلافة العباسية من بغداد وتمزق شمل المسلمين (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا بأنفسهم) ، فقر من فر من بغداد ، وقتل فيها من قتل ، وارتكب المغول في هذا الحادث الجرائم النكر ، وأزالوا معالم المسلمين ، وأبادوا ثروتهم العلمية ، وألقوها في اليم بـدجلة فعبرت عليها الخيول . ولم يقف شر هؤلاء الطغاة عند بغداد ، بل استشرى شرهم ، وعم بلاد المشرق في عهد عقبه « تيمورلنك » الذي روع المشرق بمحافل الزاحفة وجيوشه المظفرة . اتخذ قاعدة ملكه « سمرقند » واتجه شرقاً وغرباً يلتهم الممالك ، ويثل العروش ، ويعيث في البلاد الفساد ، لا يثنيه عن ضراوته الوحشية صارف ، دخل « أنقرة » عنوة ،

وأسر السلطان العثماني «بايزيد الأول» ، المعروف بالصاعقة ، وزج به في غيابة السجن سنة ٨٠٤ هـ . دانت له الدول الإسلامية من حدود الهند شرقاً إلى سورية غرباً ، فامتدت أطماعه إلى الاستيلاء على القنطرةين مصر والشام ، لكنه خاب أمله بفضل بسالة المماليك سلاطين مصر حينذاك ، كما سيجيء الكلام عليه في الفصل الثالث .

وبلغ من جبروته أنه ألبأ الشيخين سعد الدين التفتازاني والسيد شريف الجرجاني إلى أن يتناظرا بين يديه ، يمتع عينيه ، فشجر بينهما خلاف في الاستعارة التمثيلية ، فجوز السعد فيها أن تكون تبعية ، ومنع السيد التبعية فيها . وطال احتجاج الطرفين ، وكانت العاقبة انهزام السعد فوته همًا وحزنًا . كما كان يفكر في القضاء على ابن خلدون ، لكن ابن خلدون احتال عليه وأملّاه في عودته من القاهرة حاملاً كتبه إليه . فذهب وخلص من شره . طالت مدة هذا الطاغية ، فلم يمت حتى دوّخ الشرق في عهده الطويل ، فقد ملك ستاً وثلاثين سنة ، والشعوب الإسلامية تحت نير العسف والاضطهاد ، لا هم لهذه الشعوب المغلوبة فيها إلا سلامة أرواحهم ، حتى توفي سنة ٨٠٧ هـ — فاختلف أعقابه من بعده ، وألقت بينهم العداوة والبغضاء ، وقد أسلم بعضهم ، ودان الآخرون بالبوذية ، فتفككت أواصرهم ، وانشعبت مملكتهم ، وكان الشرق يموج يومئذ بالفتن ، فتدول دولة وتقوم أخرى ، أو ينحل فتل دولة ويبرم فتل أخرى .

وفي هذا الحين توطد ملك الدولة العثمانية التي اتخذت بعد فترة من نشأتها عاصمتها الجديدة « القسطنطينية » بعد فتحها المعدود أعجوبة الدهر سنة ٧٥٨ هـ ، على يد السلطان محمد الثاني الفاتح ، وقد اطرده على مرور الزمن تقدم نهضة الدولة العثمانية حتى استولت على القطرين في عهد السلطان سليم سنة ٩٢٣ هـ ، وكان لهذا الاستيلاء أثره البالغ في طروء عهد جديد على اللغة العربية ، وبالتالي على النحو الذي نتحدث عنه ، وسرى تفصيل ذلك في الفصل الثالث ، وقد بلغت الدولة العثمانية أوج مجدها في عهد السلطان سليمان القانوني المتوفى سنة ٩٧٣ هـ ، فكان لها شطر كبير من بلاد الشرق ، فقد وصلت المملكة العثمانية زمن السلطان المذكور إلى آخر العراق شرقاً باقتطاع جزء كبير من أملاك الدولة الصفوية الآتية الكلام عليها بعد ، فدخلت « بغداد » في ملكه .

وظهرت أيضاً في هذا الحين الدولة الصفوية بخراسان ، وحالفها الظفر في المشرق حتى أдал الله لها على الدولة التيمورية بعد حرب ضروس في موقعة « شرور » سنة ٩٠٧ هـ ، انتصر فيها الشاه إسماعيل الصفوي رأس الدولة الصفوية ، واتسع ملكه ، فامتد بين جيحون وخليج البصرة وأفغانستان والفرات ، فلم يعد يعدد للبلد التيمورية أثر ، وكأن لم تغن بالأمس ، وكان آخر سلاطينها سلطان هراة « حسين مرزا » المتوفى سنة ٩١١ هـ .

فنشوء الدولتين الفتيتين : (العثمانية والصفوية) حول التيمورية

قضى عليها القضاء النهائي ، لكن الطمع الدنيوى لم يدع الصفاء بين الدولتين الباقيتين ، فقامت حروب بعدئذ بين السلطان سليم والشاه إسماعيل مدة طويلة . وبالحملة كان المشرق بركاناً ثائراً فى نواحيه عامة ، ولا قرار فيه للهدوء والسكون ، والعلماء كافة أنأى الناس عن مشار الاضطرابات ، يركنون إلى مثابات الاستقرار فى موطن الأمن الشامل ؛ لهذا قد تصوبت أنظار النحاة إلى القطرين (مصر والشام) فأخذوا يرتحلون من المشرق رويداً رويداً ، إلى أن حان وقت تفردت فيه القاهرة بالقيام بأعباء النهضة الثقافية للمسلمين ، وآضت كعبة القاصدين — هذه حال بلاد المشرق .

أما الأندلس وبلاد المغرب فإنه ما انفك فيهما بقية من علماء النحو تشتغل به بعيدة عن فوضى بلاد المشرق ، حتى ألقت بهم النواشب ، فاختلف ملوك بنى الأحمر وتفرقوا أحزاباً ، واستعرت الحروب بينهم ، فطفق العلماء يهبطون من الأندلس والمغرب إلى القطرين كالمشاركة أرسالا إلى أن سقطت الأندلس واستولى عليها الفرنجة سنة ٨٩٧ هـ . وستعرف تفصيل ذلك فى الفصل الثانى . فلم ير المطرودون من الأندلس والمغرب ملجأ لهم إلا القطرين ، كما سبقهم من قبل إخوانهم المشاركة . ومن ذلك تعرف أن القطرين : مصر والشام اتسع رحبهما للوافدين إليهما من اليمين واليسار ، من المشرق والمغرب ؛ وفيهما التقى علماء المشرق والمغرب بعلماء القطرين ، وقامت القاهرة عاصمة القطرين بدورها بعد أختيها :

بغداد وقرطبة . وعلى هذا ينبغي في الكلام على هذا العلم ورجاله في هذا العهد أن نسير على طباق ما تقدم في المطلب الأول ، إذ الحال من حيث الاتجاه في النزعة لم تتغير عند كل فريق من الثلاثة ، وبذلك انقسم الحديث إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول

علم النحو في المشرق وعلماءه

إن بلاد المشرق لما منيت بهذا الخطب الجلل الذي أباد تراثها العلمي ، وأودى بحياة علمائها العاملين ، دهمت طويلاً من الأيام ، وعشش عليها بوم الآلام ، غير أن بعض علمائها في إبان الشدة والقسوة ، لأول عهد المغول ، نجوا بأنفسهم إلى حيث يأمنون في سربهم ، فمنهم من وجدوا لهم مُراعماً في الأرض وسعة ، ومنهم من رضوا من الحياة الدنيا بالغذاء العلمي الروحي ، ومن هؤلاء الرضى الذي ولى وجهه شطر الحرمين ونعم بجوار الحرم المدني وألف كتابه المشهور الذي سجل له على النحو فضل الأبد ، وستقف على شأنه عند التعريف به في ترجمة الرضى .

نعم لما أسلم بعض سلاسل التتر في أخريات أيامهم ، وقد ناهضتهم الدولة العثمانية أولاً ، ثم الدولة الصفوية ثانياً ، التفت بعض سلاطينهم وأولى الشأن فيهم إلى وجوب استجلاب مودة الشعوب المملوكة استبقاءً لملكهم ، فتوددوا للعلماء ، وأهابوا بهم في القيام بما يعود على البلاد بالنفع والخير . ولعل من أكبرهم مظهراً في ذلك سلطان هراة « السلطان

حسين » ، فقد غمر الجاهل بما جعله لا يصوب نظره إلى سلطان آخر في إقليم آخر برغم استزارته من كثير من سلاطين ذلك الوقت كما سترى في ترجمته .

كذلك الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، وهما دولتان إسلاميتان ناشتتان يحفزهما الدين إلى إحاطة العلماء بالتكريم ، والعلماء حفظة الدين ولغة الدين . على كل حال كان طبيعياً وحتماً مقضياً على هذه الدول أن تصانع شعوبها وتتقرب إلى خواصها للتنافس بينها ، والشعوب عربية تواقة إلى استرجاع مجدها الحائل ، واللغة عندهم عنوان المجد وسبيل الإبقاء على الدين ، فلا ريب أن أول هم الخواص فيهم — عندما تنقشع سحب الاضطرابات وتسكن الثورات — هو أن ينشروا ما اندرس مما كادت تذهب الحوادث بأصوله ، حقاً لقد شعر العلماء بواجبهم إزاء كارثة بغداد التي اجتاحت ثروتهم العلمية ، ولولا بقية مما في صدورهم لذهبت وانطمست معالمها ، والنحو معبر العلوم ، فهو أجدرها بالحد والنشاط كما كان أسبقها في التكوين ، إلا أن العلماء لم يستطيعوا استعادة مجده القديم في هذه البلاد ذلك الحين لأمرين :

الأول : أن الشغب كان منتشرأ في جميع ربوع البلاد الشرقية ، فالنفوس قلقة والأفكار متبلبلية ، والعلم إنما يترعرع في كنف السكون والاستقرار .

الثاني : أن هذه الدول لم تحن على اللغة من أعماق قلوبها ،
نشأة النحو

لأنها ليست عربية تغار على لغة أصلها ، فالتتر إن حذبوا عليها في
 في آخر عهدهم فلاسترضاء شعوبهم ، والترک بالطبيعة لا يؤثرونها على
 لغتهم ، وستعرف في الفصل الثالث أنهم فرضوها على القطرين بعد
 فتحهما ، والدولة الصفوية كانت تؤثر الفارسية عليها ، لكن علماء
 المشرق مع هذا كله لم يألوا في النهوض بواجبهم في النحو ، لأنهم نشأوا
 في المشرق مهد اللغة العربية وعلومها ، والبيئة غالبة في توجيه المرء مدة
 حياته ، والنحو أساس اللغة العربية ، بيد أنه لا يخفى أن علماء المشرق
 في العهد المغولي فما بعده يختلف حالهم عن علمائهم قبله ، وبعبارة ثانية
 يختلف حال النحاة بعد سقوط بغداد عن حالهم قبله ، فإن السابقين
 على سقوط بغداد لم يدركهم المذهب الأندلسي الذي أدرك من كان من
 لمشاركة بعد سقوط بغداد في بلادهم ، ولذلك عرضت مؤلفات علماء
 العهد المغولي وما بعده إلى المذهب الأندلسي ، فالمذاهب التي يفاضلون
 بينها أربعة : البصري والكوفي والبغدادى والأندلسي ، في حين كان
 أولئك يوازنون بين الثلاثة الأولى .

هذا ، والحقيقة الناصعة أن مؤلفات النحويين في هذا العهد إن
 أتقن ضبطها وأحكم ترتيبها فإن تأثير البيئة العجمية في المؤلفين على اتساع
 آفاقهم في مداركهم وقوة بداهاتهم جعلت كتبهم — على شرف موضوعها
 وجلال مباحثها — صعبة التناول ، ضعيفة الأثر في تقدم اللسان العربي ،
 لما حشيت به من الفلسفة القديمة في تبيان قواعدها ، والأسلوب المنطقي

في توجيهها ، وما للسان العربي بذلك من صلة على ما لا يخفى .
ومن البدهى أن الحديث عن المشاركة بعد سقوط بغداد يقتضى —
بعد ترك العراق العربي الذى انتهى أمره وانقضى الحكم فيه — التّطواف
والسّيحان في خراسان والهند والسند وإيران والبلاد العثمانية في هذه الحقبة
الممتدة ، وفي تلك الأقاليم أعلام مشاهير سارت بذكرهم الركبان ، ولهم
آثارهم التى تعنو لها الجباه ، فالتلبية لهذا الاقتضاء ينوء بحملها الكاهل ،
فكل إقليم يتطلب سفرأ وحده في تراجم علمائه ؛ والحاجة عندنا يجرى
فيها الاقتصار على قليل منهم ؛ على أننا لا نعرض إلا لمن غلب عليه
النحو ، واتسم به ممن لهم آثار بين أيدينا ، وتردد الكتب أسماءهم ، فلا
نذكر أمثال السعد والسيد والعضد ؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ،
فدونك أشهر المشاركة مرتبين على حسب وفياتهم :

أشهر علماء المشرق

١ — ابن إياز

هو أبو محمد الحسين جمال الدين بن بدر ، نشأ ببغداد وتلقى عن سعد
ابن أحمد البياني ، وقرأ على التاج الأرموى ، وكان حسيباً دمث الأخلاق ،
ومن مصنفاته النحوية : المحصول في شرح الفصول (شرح فصول ابن
معط) ، وشرح الضرورى لابن مالك ، والإسعاف في مسائل الخلاف ،

ومضت كلمة عن هذا الكتاب عند الحديث على نتائج المخالفة بين المذهبين
(البصري والكوفي) ، توفي ببغداد سنة ٦٨١ هـ .

٢ - الرضى :

هو محمد بن الحسن نجم الملة والدين الأستراباذى ، هجر بلاد
المشرق وأقام بالمدينة المنورة ، وألف شرحه على الكافية لابن الحاجب
فى النحو ، وله شرح ألفه بعد على الشافىة لابن الحاجب أيضاً فى
الصرف .

وأعجب العجب أن هذا الإمام التعلامة يفوت على أصحاب
المعجمات الإفاضة فى ترجمته ، فلم ندر متى وأين ولد ونشأ ؟ وأين كانت
مراحل حياته ؟ وكم مؤلفاته ؟ وفيم كانت ؟ ومتى وأين كانت وفاته على
التحقيق ؟ ومن تلقى عنهم ؟ ومن تخرج على يديه ؟ - وما يزيد الأسف
عدم معرفتهم اسمه ، فإن السيوطى ؛ وهو من متأخرى أصحاب المعجمات
المعنيين بالتراجم ، اضطر إلى ذكره فى بغية الوعاة « حرف الراء » اكتفاء
بشهرة لفظ « الرضى » ، وقال فى ترجمته : « ولم أقف على اسمه ولا على
شئ من ترجمته » ، ثم قرظ شرحه للكافية بما فيه الكفاية ، وأشار إلى
شرح الشافىة . نعم إن البقاعى المعاصر للسيوطى فى « مناسبات القرآن »
قد ذكر اسمه لمناسبة الكلام على تاريخ شرح الكافية .

أما بعد ، فإن المحقق البغدادى فى مقدمة « خزانة الأدب » قد جمع

نتفًا متفرقة من المصدرين السابقين ومن غيرهما فيها إلمام إجمالى بترجمة الرضى ، والتنويه بشرحه للكافية ، وإن لم تف بالمقصود ، وبحسبنا فى تقدير الرضى علميًّا ، وأنه حجة عصره غير منازع ، ما خلفه من « شرحى الكافية والشافية » ، وهما الكتابان اللذان لم يتركنا شيئًا من الفنين إلا أوفياه حقه ، وكشفا النقاب عن سره « فليس وراء عبّادان قرية » ، ومن الواجب أن نذكر نبذة خاصة عن شرح الكافية فإنما نحن بصدد النحو .

شرح الرضى على الكافية

هذا الشرح قد جمع بين دفتيه قواعد النحو وأسرارها بابتكار يدل على تعمق فى النحو واستكشاف لمخباته وإحاطة بأوابده ، ويعجبني منه وكوعه بضم الأنواع فى محاولاته التى يعنى فيها بلم أطراف الكلام الذى يراد التعقيد له ، حتى لا يدع بابًا إلا قضى وطر العلم فيه . هذا من ناحية التأليف ، أما من ناحية الفن فإنه ليس فى شرحه جماعًا ، وإنما هو الفيصل ، تستحكم الفكرة عنده فيبرزها مدعومة بالدليل النقلى والنظرى غير متحيز إلى مذهب خاص من المذاهب الأربعة السابقة ، وإن كان فى الحملة بصرى الاتجاه ، فقد لا يستبعد صوابية مذهب الكوفيين أحيانًا إذا صح لديه حكمته ، وإليك أمثلة مما رأى قربه إلى الصواب فيها على ترتيب الشرح :

من الأمثلة التي رأى قرب المذهب الكوفي فيها للصواب

١ — يرى الكوفيون شرطية أن المدغمة في ما في نحو أما أنت منطلقاً انطلقتُ ، قال : « ولا أرى قولهم بعيداً من الصواب لمساعدة اللفظ والمعنى إياه . . . إلخ »^(١) .

٢ — يرون الضمير في أنت وأخواته « التاء » ، وفي إياك وأخواته « الكاف » ، قال : « وما أرى هذا القول بعيداً من الصواب في الموضعين »^(٢) .

٣ — يرون المصدر المنسبك من أن والفعل في نحو يعجبني زيد أن يقوم بدل اشتغال من الاسم الظاهر ؛ قال : « والذي أرى أن هذا وجه قريب »^(٣) .

على أنه قد يبدو له ابتكار جديد يخرج به على كل النحاة ، عماده في ذلك استقلال الرأي وبرجاجة الحججة ، وإني أسوق إليك بعض أمثلة من هذا النوع على ترتيب الشرح أيضاً .

من الأمثلة التي خالف فيها النحاة

١ — مخالفته في اشتراط أصالة الصفة في منع الصرف ، فقال :

(١) حذف كان . (٢) المضمر . (٣) أفعال المقاربة .

« وأنا إلى الآن لم يقم لي دليل قاطع على أن الوصف العارض غير معتد به في منع الصرف . . . إلخ » ^(١) .

٢ — مخالفته في عدّهم عطف البيان نوعاً مستقلاً في التوابع ، ورأى إدماجه في بدل الكل ، فيقول : « وأنا إلى الآن لم يظهر لي فرق جليّ بين بدل الكل من الكل وبين عطف البيان ، بل لا أرى عطف البيان إلا البديل . . . إلخ » ^(٢) .

٣ — مخالفته في عدّهم فعّال معدولة عن فعل الأمر ، فقال : « والذي أرى أن كون أسماء الأفعال معدولة عن ألفاظ الفعل شيء لا دليل عليه ، والأصل في كل معدول عن شيء ألا يخرج من نوع المعدول عنه أخذاً من استقراء كلامهم ، فكيف خرج الفعل بالعدل من الفعلية إلى الاسمية » ^(٣) .

٤ — مخالفته في تعميمهم المنع في الثلاثة الآتية : تقدم معمول المصدر عليه ، والفصل بينه وبين معموله بأجنبي ، وحذفه مع بقاء معموله ، ورأى جوازها مع الظرف والجار والمجرور ، فقال : « وأنا لا أرى منعاً من تقدم معموله عليه إذا كان ظرفاً أو شبهه . . . ويجوز الفصل بينه وبين معموله بأجنبي . . . وكذا يجوز إعماله مضمراً مع قيام الدليل » ^(٤) .

٥ — مخالفته في جعلهم الصفة المشبهة موضوعة للدوام ، ورأى أنها

(١) غير المنصرف . (٢) البديل . (٣) أسماء الأفعال . (٤) المصدر .

موضوعة لمجرد الثبوت ، فقال : « والذي أرى أن الصفة المشبهة كما أنها ليست موضوعة للحدث في زمان ليست أيضًا موضوعة للاستمرار في جميع الأزمنة ، لأن الحدث والاستمرار قيدان في الصفة ، ولا دليل فيها عليهما . . . إلخ »^(١) .

٦ - مخالفته في إذن ، فليست بحرف ناصب للمضارع كما يقول البصريون وبعض الكوفيين ، ولا اسم أصله إذا والنصب بعده بأن مضمرة كما يقول البعض الآخر من الكوفيين ، بل يقول إنها اسم أصله إذ والنصب بعدها بأن مضمرة ، ولهذا قال : « الذي يلوح لي في إذن ويغلب في ظني أن أصله إذ . . . إلخ »^(٢) .

٧ - مخالفته في جعلهم فاء السببية وواو المعية عاطفتين المصدر المسبوك من الناصب المحذوف والمضارع على المصدر المتصيد من الكلام قبلهما ، ورأى أن الفاء لمحض السببية والواو للحال أو بمعنى مع فقط^(٣) .

وفي الكتاب أمثلة كثيرة من هذا الطراز لمن شاء أن يستريد ، ومن البدهي أن من بلغ هذا الحد فقد وصل إلى العنقود .

نعم قد يتحاشى الخروج على الإجماع مع لمح أسباب النزوع عنه ، فقد انقدح عنده استحسان ادعاء البناء للمضارع المجزوم لولا

(١) الصفة المشبهة . (٢) نواصب المضارع . (٣) المبحث السابق

إجماعهم ، فقال : « ولولا كراهة الخروج عن إجماع النحاة لحسن ادعاء كون المضارع المسمى مجزوماً مبنياً على السكون ... إلخ » ^(١) .

بقي أن تعرف مسلكه في الكتاب من حيث الاستشهاد ، وهذا أمر جدير بالنظر ، لأن الشاهد في علم النحو هو النحو ، ومن المعروف أن الشاهد إما نثر أو نظم ، وليس كل نثر أو نظم مما يصح في علم النحو الاعتماد عليه ، كما بسطه تفصيلاً البغدادي في مقدمة خزانة الأدب بما فيه المقنع .

شواهد

إن قارئ الكتاب من أوله إلى آخره يقف على شواهد نثرية مستفيضة من القرآن الكريم وكلام العرب المعترف بالاحتجاج بهم والحديث الشريف وقول الإمام عليّ كرم الله وجهه ، وشواهد شعرية .

الشواهد النثرية

أما القرآن وكلام العرب فكثير ما استشهد بهما ، وهو في ذلك موافق للزمخالة القدامى والمتأخرين قبله ، فليس ثمة داع إلى ذكر نصوصهما في الكتاب .

وأما الحديث فقد استدل به كثيراً أيضاً حتى على غير القواعد ،

(١) الفعل وعلاماته .

وقلما تقرأ باباً في الكتاب إلا رأيت الحديث فيه — تقرأ من أول الكتاب أنواع الإعراب فيستشهد على معنى العرب بقوله صلى الله عليه وسلم : « الثيب يعرب عنها لسانها » — ثم تقرأ باب غير المنصرف فيستشهد على الصرف للتناسب بالنظير بقوله : « خير المال سكة مأبورة وفرس مأمورة »^(١) .

وعلى صيغة الجمع المنتهى بقوله : « إنكن صواحبات يوسف » ، وعلى وزن الفعل بقوله : « إن الله نهاكم عن قيل وقال » — ثم تقرأ باب الفاعل فيستشهد على الحصر بقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما الولاة للمعتق » ، و « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » — ثم تقرأ باب الاختصاص فيستدل على قيام الاسم المضاف الدال على المراد من الضمير مقام أى بقوله : « إنا معاشر الأنبياء فينا بلكء » ، أى قلة كلام ، وهلم جرأ ، والرضى في الاستدلال بالحديث متابع لابن مالك قبله .

وأما قول على كرم الله وجهه فإن الكتاب ممتلئ به مع النسبة في بعض الأحيان إلى نهج البلاغة ، ويكفيك لتقدير ثقة الرضى بكلام الإمام ما ذكره عند التمهيد على الاستدلال لورود إذ بعد بينا في « باب

(١) السكة : السطر من النخل ، والمأبورة : الملقحة ، والمأمورة : كثيرة النسل من أمر المزيدي بحرف ، فكان حقها مؤمرة لولا الإتيان ، وهذا ما قاله القالي أيضاً في الأمالي ج ١ ص ١٠٣ ، ولكن البكري في التنبيه على أوهام القالي فند الإتيان مراعيًا أن الفعل الثلاثي مؤد هذا المعنى ، راجع التنبيه ص ٤٢ .

الظروف » ، إذ يقول : « ألا ترى قول أمير المؤمنين رضى الله عنه ، وهو هو من الفصاحة بحيث هو : بينا هو يستقبلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته » (١) .

فلا عجب أن يلجأ إليه في عدة أبواب — يقول في حذف الخبر وجوباً : « وفي نهج البلاغة : وأنتم والساعة في قرآن واحد . . . وقريب منه قول أمير المؤمنين على رضى الله عنه : فهم والجنة كمن رآها » — وفي باب المفعول المطلق لمناسبة جواز ذكر العامل وحذفه يقول : « وفي نهج البلاغة في الخطبة البكالية : نحمده على عظيم إحسانه ، ونير برهانه ، ونوأمي فضله وامتنانه ، حمداً يكون لحقه أداء » — وفي باب المفعول له استدلال على عدم لزوم التشارك بين الفعل والمفعول في الفاعل يقول : « والدليل على جواز عدم التشارك قول أمير المؤمنين على رضى الله عنه في نهج البلاغة : فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة واستتماماً للبلية . والمستحق للسخطة إبليس ، والمعطى للنظرة هو الله تعالى » ، والكلام في الشيطان — وهكذا استرسل الرضى في الكتاب ، والرضى في الاستدلال بكلام الإمام غير مسبوق ، ولم أقف على شيء في ترجمة الرضى أتلمس منه هذه الوجهة الجديدة أترجع إلى النسب أم التشيع ؟ وأيضاً ما كان فإن الإمام لانكران في صحة الاستشهاد بأقواله .

(١) هذه الجملة المذكورة من الخطبة الشقشقية المعروفة ، يتمتع من أبي بكر في استقالاته من الخلافة أول الأمر مع حرصه آخر حياته على عقدها لعمر ، وقد ذكر بعضها في النهج .

الشواهد الشعرية

وأما الشعر فقد دعم الرضى القواعد بالشواهد الشعرية أيضاً ، فذكر في كتابه سبعة وخمسين وتسعمائة ، والمستقرئ لها يتبين أن أكثرها للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ممن يستشهد بكلامهم ، سواء منها ما عرف قائلها وما لم يعرف ، فإن مصدر المجهولة القائل إما سيبويه في أبياته الخمسين المعدودة ولا ريب في خلو الكتاب من المحدثين ، وإما من بعده إلى الرضى ممن جزم العلماء بحظرهم الاستشهاد بهم — وقليلاً منها للشعراء المحدثين الذين لا يعتدّ النحاة بهم في قواعدهم — هذا ، وقد ساق الرضى قليلاً من الشعر لمناسبات معنوية لا علاقة لها بالقواعد ، وإن أرتنا سعة اطلاعه في الأدب بما لم يتح لنحويّ غيره .

فمن هذا في باب المبتدأ والخبر لتوجيه تقديم المبتدأ على الخبر في نحو « سلام عليكم » ، قوله : إن تقديم الخبر ربما يتسرب منه الدعاء عليه قبل المبتدأ ، ونظير ذلك أن أبا تمام لما أنشد في مطلع قصيدة في مدح أبي دلف العجلي :

على مثلها من أربع وملاعب « تذال مصونات الدموع السواكب »

قال بعض الحاضرين قبل نطقه بالشطر الثاني : « لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ، فأنخذل أبو تمام عن إتمام الإنشاد .

ومنه في باب التنازع عند ذكر رأى الكسائي الموجب حذف الفاعل

من الأول عند إعمال الثاني خوف الإضمار قبل الذكر ، مع أن الحذف أشنع من الإضمار قبل الذكر ، قوله : فحال الكسائي حال : « سعيد بن حسان » ، إذ يقول :

فكنتُ كالساعي إلى مشعب موائلا من سبل الراعي

ومنه في باب المفعول به المناسبة حذف الفعل جوازاً ووجوباً في قولهم « انته أمراً قاصداً » ، قوله : القصد خلاف القصور والإفراط كقول الشاعر :

« ولاتك فيها مُفَرِّطاً أو مُفَرِّطاً » كلا طرفي قصد الأمور ذميم

ومنه في باب أسماء الأصوات عند الكلام على « ويَلْمَهُ » وأن هذا الدعاء على حد قاتله الله عند التعجب قوله : فإن الشيء إذا بلغ الكمال يدعى عليه صوناً له عن عين الكمال ، كما قال جميل :

رى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغُسر من أنيابها بالقوادح

وهكذا — وليس في مثل هذا النوع من مؤاخذه على الرضى ، إنما المؤاخذه عليه في استشهاده بشعر المحدثين ، والنحاة لا ينظرون إليه في اتخاذه أساساً للقوانين النحوية ، وقد ذكر منه مقداراً كبيراً سأذكر لك بعضاً منه على ترتيب الشرح مكتفياً به عن الباقي لسهولة الوقوف عليه .

من شواهد الشعراء المحدثين

قد استشهد رحمه الله في باب الفاعل بقول أشجع السلمى :

كأن لم يمت حتى سواك ولم تقم على أحد إلا عليك النوائح
وفي باب المبتدأ والخبر بقول أبي نواس :

غيرُ مأسوف على زمن ينقضى بالهم والحزن
وبقول أبي تمام الطائي :

لعابُ الأفاعي القاتلات لعبه وأرى الجنى اشتهاره أيدي عواسل
وفي باب الحال بقول بشار :

إذا أنكرتني بلدة أُنكِرتُها خرجتُ مع البازي على سواد
وبقول أبي الطيب المتنبي :

قبلتها ودموعي مَرَجَ أدمعها وقبلتني على خوف فما لفم
وبقوله :

بدت قمرًا ومالت خُوطُ بان وفاحت عنبرًا ورنّت غزالا
وفي باب اسم الفعل بقول إريعة الرقيّ :

لشتان ما بين اليزيديين في الندي يزيد سليم والأغر بن حاتم
ولاريب أن استشهاديه بالمحدثين إحدى الهنات الملاحظة عليه .

انتقاد هين

الواقع أن الكتاب برهان حق على عبقرية صاحبه ، وإذا ما تشبنا

بالملاحظات الطفيفة فإننا لا نعدم العثور على شيء منها . ولا بأس بسرد بعض منها الآن فدونها :

الأولى : استشهاده بالمحدثين .

الثانية : أنه ربما لاح له تعقب ابن الحاجب في الكافية فلا يبالي التشهير ، (ورب لائم ملئم) ، فانظر إلى عبارته في رده عليه تجويزه دخول من على تمييزكم الاستفهامية إذ يقول : « فلم أعر عليه مجروراً بمن لا في نظم ولا نثر ، ولا دل على جوازه كتاب من كتب النحو ولا أدري ما صحته ؟ » — ولهذا كان حسناً من السعد في المطول رده على الرضى بشاهد فيه التلميح البديع وهو قوله تعالى : (سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة) .

الثالثة : أنه عدّ قياسية تاء الوحدة في الفرق بين الآحاد والأجناس في المخلوقات والمصادر كتمر وضرب ، فقال في باب المذكر والمؤنث : « وهو قياسي في كل واحد من الجنسين المذكورين أعني المخلوقة والمصادر » ، ثم هو بعد هذا ناقض نفسه إذ يقول في شرحه على الشافية أواخر باب جمع التكسير : « وليس أسماء الأجناس التي واحدتها بالتاء قياساً إلا في المصادر نحو ضربة وضرب . . . إلخ » .

على أن تلك الهنات تتلاشى تجاه المحاسن التي انطوى عليها ذلك الشرح ، وقد تم تأليفه كما قال الرضى في ختامه في شوال سنة ست وثمانين وستمائة ،

وللسيد الشريف « على » الجرجاني تعليقات على الشرح جمعت بين
الوجازة والإفادة ، وقد نال هذا الشرح الإعجاب منذ شع نوره في المشرق ،
ولم ينبثق نوره في مصر إلا أخيراً .

ظهوره بمصر

من العجب العاجب أن يطول الأمد على اختفاء هذا الشرح النفيس
بعد تأليفه عن نحاة مصر ، فلا يدخل مصر إلا بعد ابن هشام المتوفى
سنة ٧٦١ هـ ، قال البقاعي إبراهيم بن عمر المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ، في كتابه
مناسبات القرآن : « ولم ينقل الشرح من العجم إلى الديار المصرية إلا بعد
أبي حيان وابن هشام »^(١) .

وإني لأعلم غير ظان أنه مع نقله إلى مصر بعد ابن هشام لم تتداوله
الأيدي العامة ، وأن قليلا من العلماء اطلع عليه فلم يتيسر لكثيرهم
السماع به ، بله الوقوف عليه — فالأشموني المتوفى سنة ٩٢٩ هـ . لم يذكر
الرضي مرة واحدة في شرحه ، والأشموني أولع المؤلفين بجمع المعلومات
والقائلين لها في شرحه ، وستعرف هذا عند التعريف بشرح الأشموني ،
فما لا شك فيه أن شرح الرضي حرمت منه مصر طويلا ، إذ الكتب
النحوية التي تعتمد عليها مصر إنما هي مؤلفات ابن الناظم وابن هشام وابن
عقيل والأشموني ، وهي خالية من كل جزئية علمية لها اتصال بذكر

(١) نقلها البغدادي في مقدمة الخزانة (الأمر الثالث) .

الرضى ، ولم يجد البحث الطويل الذى بذلته لمعرفة الوقت الذى تناولته الأيدى فى مصر ، ولو على سبيل التقريب ، ومن اليقين أن الأيام لو تقدمت بظهور شرح الرضى لارتشف منه هؤلاء المؤلفون المتداولة كتبهم بأيدينا ، وعليها اعتمادنا من مناهله السائغة العذبة ، والذين اعتادوا فى الأحكام محاولة ضم كل شىء إلى ليفقه ، وازدادوا فى تنقيح عللها ما وسعتهم الفكرة . توفى الرضى سنة ٦٨٨ هـ .

٣ - الكافيجى

هو أبو عبد الله محمد بن سليمان ، ولد فى بلدة « ككجة كى » من آسيا الصغرى ، ثم ارتحل إلى فارس ، فسمع من الفنى وغيره ، واشتهر بالكافيجى لملازمته « كافية » ابن الحاجب ، ثم هبط مصر وفيها نبه قدره ، ودان له العلماء فى متنوع الفنون ، فازدحم الطلاب على دروسه طبقة بعد أخرى ، وصنف كثيراً ، ومن أنفس مصنفاته فى النحو شرح « القواعد الكبرى » لابن هشام ؛ توفى بالقاهرة سنة ٨٧٩ هـ^(١) .

٤ - الجامى

هو أبو ضياء الدين عبد الرحمن نور الدين بن أحمد نظام الدين ، ولد فى قرية خرجرد من قرى جام (ولاية بخراسان) ، وانتقل مع والده صغيراً إلى هــراة ، فشب معروفاً بالجامى ، وتلقى بالمدرسة النظامية

(١) ترجمته فى الضوء اللامع ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر الطالع .
نشأة النحو

في هراة عن السمرقندى وشهاب الدين الحاجرى وغيرهما ، ثم طمحت نفسه إلى الازدياد فى العلم ، فتوجه إلى سمرقند ، وسمع من قاضى زاده الرومى الذى أطراه كثيراً ، وتنبأ عن أمل فيه كبير ، وهنا طارت شهرته فى المشرق ، فقفل إلى هراة ، ودنا من قلب سلطانها أبى الغازى السلطان حسين مرزا آخر سلاطين بنى تيمور المتوفى سنة ٩١١ هـ .

وطوفت سمعة الجامى حتى رغبت السلاطين فى لقياءه، ولهذا لما سافر إلى الحج أرسل له السلطان محمد الفاتح العثمانى يستزيره بعد عودته من الحج ؛ غير أنه اعتذر رغبة فى سرعة العودة إلى هراة ، كما كاتبه ابنه السلطان بايزيد الثانى ، فقد آثر الإقامة الممتعة فى هراة فى ظلال السلطان حسين ، ولقد خلف الجامى مؤلفات شتى فى متنوع الفنون ، ومن آثاره النحوية شرحه على كافية ابن الحاجب وسماه « الفوائد الضيائية » (نسبة لولده ضياء الدين) ، والشرح صغير الحجم ، كبير المادة ؛ ومن أبسط المسائل فيه مسألة الكحل ، وباب نو ، ونقل فيه كثيراً عن شرح الرضى للكافية مع عزو النقل إليه ، وإقبال على شرح الجامى عنى العلماء به ، فعليه حاشية لمحرم مات قبل إكمالها ، إذ وصل فيها إلى بدل الكل من الكل ، فأكملها الأنصارى ، وحاشية للبسنوى ، وحاشية لعصام الدين ، وحاشية لمحمد عصمة الله ، توفى الجامى بهراة سنة ٨٩٨ هـ (١) .

(١) ترجمته فى السقائى (الطبقة السابعة — السلطان محمد) ، والشذرات ، والبدر الطالع .

الفصل الثاني

النحو والنحاة في الأندلس والمغرب

إن بلاد الأندلس والمغرب في هذا الحين قد كثر فيهما علماء النحو الذين دوى ذكرهم في كتبه ، لأنهم نشأوا بعد نضجه واستكمال مذهبهم الخاص الذي تقدم شرحه وبعض مسائل منه ، وقد خدموا هذا العلم بمصنفاتهم التي أعاضت النحو معظم ما فقدته من كارثة بغداد الصماء ، لتوافر رغبتهم فيه ، وقدسية منزلته في نفوسهم ، بل إن منهم من وقف بحثه ونشاطه عليه كابن عصفور وابن الضائع وغيرهما ، فاكتمسب النحو منهم قوة ساعدته على استطالة عمره بعد عوامل الفناء التي أصابته بإيادة كثير من كتبه ، وبفترة الحمول التي خيمت على علمائه من أعاصير اضطرابات المشرق وما توالد عنها مدة طويلة .

ولقد سبق لك أن النحو أوفى على الغاية في هذه البلاد هذا العصر (القرن السابع) ، وكان عندهم شارة النبع والفوق ، وأن عنوان عرفانه وسمه الرسوخ فيه ، استظهار كتاب سيبويه ، لأن له المكانة السُّمِّيَا عندهم ، فمن لم يشتهر به فعلمه مطروح مهما حصل ، ولذا كانوا يقولون عن أحمد بن عبد النور النحوى المعروف المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ، إنه لا يعرف شيئًا ، ولا دهشة من هذه الحال عندهم ، لأن النهضة

الأندلسية في النحو هبت مصاحبة للكتاب عندهم ، فللكتاب اليد الطولى في كونها وإتمائها والإبقاء عليها ، ولها فضل إكبارهم منزلة الكتاب عندهم ، والاحتفاظ به كأنفس ذخيرة لديهم . هذا ، وعند الاعتبار والتبصر يجب أن يدرك أن ذلك إيذان بأفول نجمه من هذه البلاد ، وهذا ما حدث ، فإنه ما تم أمر إلا بدأ ينقص - فقد اتفق أن شبّ ضرام الاضطرابات في البلاد ، وقد استوى على ملك الأندلس بنو الأحمر الذين يؤثرون الأدب على النحو ، والناس على دين ملوكهم ، فدعا ذاك الأمران علماء النحو في البلاد إلى الاستشراف إلى القطرين (مصر والشام) ، وصاروا ينزحون إليهما زرافات ووحداناً إلى أن بلغ الشر إناءه ، وتفرق ملوك بني الأحمر شيعاً ، واستعدى بعضهم على بعض ملوك الإفرنج ، ففضوا عليهم القضاء الأخير في حادث تقشعر منه الجلود ، وسقطت آخره حواضر الأندلس « غرناطة » على يد فرديناند سنة ٨٩٧ هـ ، ونكل الإفرنجية بالمسلمين ، ومثلوا بتراثهم العلمي في غرناطة الصورة الكريهة التي ارتكبتها المغول في بغداد : « وما أشبه الليلة بالبارحة » ، ففرّ جُلٌّ من بقي من العلماء إلى القطرين كما سبق .

وفي الحق أنه لولا العلماء الذين جلدوا إلى القطرين من بلاد المغرب ، ومعهم أغلب مؤلفاتهم ، لفات العالم العربي من هذا العلم قسط كبير . وهاك بعض المشهورين منهم مرتبين باعتبار سني وفياتهم :

١ - الأندلسي

هو أبو محمد القاسم علم الدين اللُّورقي بن أحمد، ولد بمُرُسية ،
 وورد إلى يَنسِيَّة ، وفيهما أخذ النحو عن ابن الشريك وابن نوح وغيرهما ،
 ولقي الجزولي ، وورد مصر ، ثم اتجه إلى دمشق ، فسمع من تاج الدين
 الكندي كتاب سيبويه وغيره ، ودفعه طسوحه إلى علماء بغداد ، فجلس
 في حلقة أبي البقاء العكبري ، وعاد إلى حلب ، واستوطن الشام ، والتف
 الناس حوله ينهلون من معارفه ، إذ كان موطأ الأكناف حسن البِزَّة ،
 كما انتفعوا بمزلفاته الكثيرة ، منها في النحو شرح مقدمة الجزولي ، وشرح
 المفصل ، توفي بدمشق سنة ٦٦١ هـ^(١).

٢ - ابن عصفور

هو أبو الحسن علي بن مؤمن الإشبيلي ، أخذ عن الدباج والشلوبيني
 وكان أصبر الناس على المطالعة ، بيد أنه وقف عنايته على النحو ،
 فما لبث أن توحد بحمل راية النحو في بلاد الأندلس التي تجول فيها
 كثيراً ، وحدثت جفوة بينه وبين الشلوبيني . وله مصنفات منها المقرب
 وشرحه لم يتم ، ومختصر المحتسب لابن جني ، وثلاثة شروح على الجمل
 الكبيرة للزجاجي ، كان رقيق الدين ، جلس آخر حياته في مجلس شراب

(١) ترجمته في معجم الأدباء ، ونفع الطيب ، القسم الأول الباب الخامس ،

رمى فيه بالنارنج إلى أن مات سنة ٦٦٣ هـ (١) .

٣ - ابن مالك

هو أبو عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله الطائي ، ولد بجيآن (بلد بالأندلس) ، وسمع من الثلوثيين أياماً ، ثم ورد المشرق حاجاً ، ثم استوطن الشام ، فسمع بدمشق من السخاوي ، وبحاب من ابن يعيش الحلبي ، ثم تصدر لإقراء العربية في حلب مدة ، فدمشق التي توطنها ، فأتى بما أعجز الأوائل لقوة حافظته ، فكان يستشهد بالقرآن ، فإن لم يجد فأشعار العرب التي كان في استذكارها نسيج وحده ، وصنف مؤلفات نظماً ونثراً تشهد له بالتفوق على من تقدم ، وجمع بعضهم أكثرها في نظم ذكره السيوطي في البغية . ولنقتصر هنا على النحوية فمن النظم « الكافية الشافية » استوعب فيها كل ما سمعه وشرحها ، و « الألفية » وهي ملخص الكافية ، طبقت شهرتها الآفاق ، وترجمت إلى لغات ، وعليها شروح كثيرة استقرأها كشف الظنون ، ومن شروحيها شرح ابن الناظم وشرح المرادي وشرح ابن عقيل وشرح الأشموني ، وسنذكر عنها نبذة عند الكلام على ترجمة مؤلفيها - ومن النثر « الفوائد » و « تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد » - ولا غرو أن طلاب اللغة العربية مدينون لهذا الإمام الذي أسدى هذه الذخائر ، فما أحراه

(١) ترجمته في فوات الوفيات ، وبغية الوعاة ، وشدرات الذهب .

بكتاب منفرد ، فيه التعريف بحياته ومؤلفاته وما فيها بالتفصيل ، نعم ،
 إن المحسن لا يضيع عمله عند الله ، فقد جعل الله لابن مالك لسان صدق
 فيمن بعده ، فمؤلفاته وأقواله تناقلتها العلماء في كتبهم مشاركة ومغاربة ،
 فالرضى القريب منه زمنًا ، وبعو من المشاركة ، نقل عنه في شرحه
 الكثير من مقاله ، والمغاربة ومن في القطرين اتبعوه واعتمدوا عليه فكان
 قطب دأثرتهم ،

هذا ، والغريب من ابن خلكان الذي كان يشيعه إلى بيته بعد
 الصلاة كل يوم تعظيمًا له ألا يترجم له في وفيات الأعيان ، توفي رحمه
 الله بدمشق سنة ٦٧٢ هـ .

٤ - ابن الضائع

هو أبو الحسن علي بن محمد الإشبيلي الكتامي ، لازم الشلوبيني ،
 وأخذ عنه كتاب سيبويه بين قراءة وسماع ، ثم فاق أترابه وأبدع في
 التصنيف ، له شرح على سيبويه جمع فيه بين شرحي السيرافي وابن
 خروف مع الاختصار الحسن ، وله مشكلات عجيبة أبدأها في كتاب
 سيبويه سبق الإلماع إليها في الكلام على علم النحو وعلمائه في الأندلس
 والمغرب في المطلب الأول ، وشرح على الجمل الكبيرة للزجاجي ، وكان
 لا يعتمد في الاستشهاد على الحديث مخالفًا سنة ابن خروف في التعويل
 عليه ، توفي سنة ٦٨٠ هـ .

٥ - ابن أبي الربيع

هو أبو الحسين عبيد الله بن أحمد الإشبيلي ، تلقى عن الدباج
والشلوبيني ، ولم يكن في طلبته الشلوبيني أنجب منه ، ثم هاجر من إشبيلية
بعد استيلاء الإفرنجية عليها إلى سبتة وتوطنها ، ووقعت مناظرة بينه وبين
مالك بن المرحل هل يقال : « كان ماذا ؟ » ونتج عنها مهاجاة بينهما
مقذعة نال فيها ابن الربيع من ابن المرحل ، وصنف مؤلفاً خاصاً
بمنعها ، ولذا قال مالك :

تاب قوم كان ماذا ليت شعري لِمَ هذا ؟
وإذا عابوه جهلاً دون علم كان ماذا ؟^(١)

ومن مؤلفات ابن أبي الربيع النحوية شرح سيبويه . وشرح الجمل
للزجاجي ، وقد رأيتُ في حاشية الشمني على المغني الباب الأول مبحث
« لكن » أن كتاب « البسيط » من مؤلفاته مع أني لم أطلع على هذا الكتاب
ضمن مؤلفاته في ترجمته . ومع أن ابن عقيل عند قول الناظم :

وفعل أمر ومضى بنيا وأعربوا مضارعاً إن عربيا
قال : « وثقل ضياء الدين بن العليج في البسيط » ، وتابعه على ذلك

(١) ذكرنا المناظرة في ترجمة مالك : في نفع الطيب « الباب السابع » من
النسم الأول ، وبغية الرعاة ، وشرح درة الفواص ، في الوهم ٣٥ .

السيوطي في فهرس بغية الوعاة « باب الكنى والألقاب والأسماء والإضافات »
عند حرف الباء ونصه : « صاحب البسيط ضياء الدين بن العليج أكثر
أبو حيان واتباعه من النقل عنه ، ولم أقف له على ترجمة » ، والله أعلم
بالحقيقة ، توفي سنة ٦٨٨ هـ .

٦ - ابن آجروم

هو أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي (نسبة إلى صنهاجة
قبيلة بالمغرب) المشهور بابن آجروم «الفقيه الصوفي» بلغة البربر ،
ولد بفاس ، وذاع فضله في علوم كثيرة إلا أنه غلبت عليه القراءات
والنحو ، ولم يؤثر عنه في النحو إلا مقدمته التي طبقت شهرتها الآفاق ،
وترجمت إلى عدة لغات ، وتناولها بالتعليق عليها كثير من الأعلام ،
ومن أشهر شروحيها بين أيدينا شرح الشيخ حسن الكفراوى المتوفى
سنة ١٢٠٢ هـ ، قال السيوطي في بغية الوعاة : «وهنا شيء آخر ، هو
أنا استفدنا من مقدمته أنه كان على مذهب الكوفيين في النحو ، لأنه
عمير بالخفض وهو عبارتهم ، وقال الأمر مجزوم وهو ظاهر في أنه معرب
وهو رأيهم ، وذكر في الجوازم كيفما والجزم بها رأيهم ، وأنكره
البصريون ففتطن » ، توفي بفاس سنة ٧٢٣ هـ (١) .

(١) ترجمته في الضوء اللامع ، وبغية الوعاة ، وشذرات الذهب .

٧ - أبو حيان

هو محمد أثير الدين بن يوسف الغرناطى ، ولد بمطخارش (من ضواحي غرناطة) ، وتلقى عن كثيرين منهم ابن الضائع ، ودرس بين ظهرائهم ، ثم هاجر وضرب فى مغارب الأرض ومشارقها ، وأخذ عن كثير ممن لقيه ، ثم انتهى به المطاف إلى القاهرة ، فأخذ عن ابن النحاس ، وتصدر فى الجامع الأقمر ، وصنف كثيراً ، فمن مؤلفاته النحوية : « التذيل والتكميل فى شرح التسهيل » ، وملخصه « ارتشاف الضرب من لسان العرب » ، وكان على مذهب ابن الضائع فى منع الاستشهاد لحديث ، ولذا رد على ابن مالك فى شرحه على التسهيل بكلام مسهب ، وفى رحمه الله بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ (١) .

٨ - الشاطبي

هو أبو اسحق إبراهيم بن موسى بن محمد الاعمى الغرناطى ، تلقى العربية وغيرها عن أئمة المغاربة منهم أبو القاسم السبتي وأبو عبد الله التلمساني والمقرئ وابن لب ، فنبغ فى فنون متنوعة وصنف فيها مؤلفات أعجب بها العلماء منها « الموافقات » فى أصول الفقه ، ومن

(١) ترجمته فى الوافى ، وفوات الوفيات ، والدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة (أئمة النحو واللغة) ، ونفع الطيب (الباب الخامس - القسم الأول) ، والشذرات ، والبدر الطالع .

مؤلفاته النحوية شرحه على « الألفية » لابن مالك ، فإنه المنهل العذب الذى اغترف منه النحاة بعده .

ومن آرائه الصائبة تجويزه الاستشهاد بالحديث إذا علم أن المعنى به فيه نقل الألفاظ لمقصود خاص بها كالأحاديث المنقولة فى الاستدلال على فصاحته صلى الله عليه وسلم خلافاً لابن خروف وابن مالك المجيزين مطلقاً ، وابن الضائع وأبى حيان المانعين مطلقاً ، وقد أرفى هذا المبحث حقه فى باب الاستثناء ، ونقله عنه بحذافيره البغدادى فى مقدمة الخزانة ، توفى الشاطبى بالأندلس سنة ٧٩٠ هـ (١) .

(١) ترجمته فى « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ديباج ابن فرحون .

الفصل الثالث

النحو والنحاة في مصر والشام

إن مصر والشام في هذه الآونة كانتا مستقلتين نخنق عليهما راية واحدة حملها المماليك الذين ولوا أمرهما بعد الأيوبيين منذ سنة ٦٤٨ هـ ، واتخذوا القاهرة قاعدة ملكهم ، وكان المماليك لشعورهم بنقص أحسابهم ، ولأنهم دخلاء ، يحاولون استكمال مهابتهم بغرس ما يثمر النفع للبلاد . ثم كان حادث بغداد موحياً إليهم جسارة العبء الملقى على كاهلهم ، إذ لم يبق للإسلام بلاد ذات شوكة تعقد عليها الآمال سوى القنطريين ، والأندلس في دور احتضارها الأخير ، فناصروا اللغة العربية ، لأنها لغة الدين والشعب ، ولم تحل جنسيتهم التركية والجر كسية دون اعتمادها لسان الدولة الرسمي ، وتحبيب علمائها إلى نشرها ورفع لوائها ليستعيدوا مجد العراق في بلادهم ، وقد كان ذلك مستحكما في أدمغتهم . حتى إن الظاهر بيبرس البندقداري استدعى أحد أولاد الخلفاء العباسيين المماربين من أيدي التتر ، وعقد له بيعة الخلافة ، فألبسه تاجها بالقاهرة سنة ٦٥٨ هـ ، ولقبه المستنصر بالله ، واستمد منه سلطة الملك نائباً عنه ، ولما خرج الخليفة على رأس جيش لمحاربة التتر فقتل ، بايع الظاهر بعده عباسياً آخر هو « أبو العباس أحمد » ولقبه الحاكم بأمر

الله ، وهو جد الخلفاء العباسيين بمصر ، وهكذا استمرت الخلافة العباسية في القاهرة مدة ولاية المماليك للقطرين ، وإن كانت صورية ، فتقوى بالاعتزاز بها شأنهم ، واشتدت شوكتهم ، فاستطاعوا مقاومة « تيمورلنك » الذى حاول بعد فتوحاته إلى سورية أن يستحوذ على القطرين ، فأرسل إلى السلطان « قلاوون » - وكان يضطغن عليه لكن الله أنقذه من شره ، وتغلب عليه في موقعة « حمص » فنجى القطران من الوقوع في يده .

مضت الحقبة الطويلة التى ولى فيها المماليك القطرين وكأن الله أراد أن يعيد إلى المسلمين فيهما بعض ما رأوه في العراق إبان مجده الزاهى ، فقامت القاهرة مقام بغداد ، وكما ورثتها في الخلافة العباسية نابت عنها في النهوض بالثقافة العالمية ، فلا غرو أن القطرين كانا آئذ ملتقى علماء المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، وتوالت النهضة في القطرين إلى أن أدال الله لبنى عثمان من المماليك ، واستولى السلطان سليم على القطرين سنة ٩٢٣هـ ، فضعفت النهضة وتغيرت الحال ، وعلى هذا ينبغى الكلام على النحو وعلمائه في كل عصر من العصرين على حدة لاختلاف الشأن فيها .

النحو والنحاة في عصر المماليك

وضح مما فات أن المماليك قبضوا على زمام مقاليد في القطرين ، والعراق في الاحتضار ، والأندلس في سبيل الزوال ، وأن علماءهما لم

يلقوا أمامهم موطنًا يعيشون فيه ويجدون مبتغاهم من الطهوء ونشر العلوم والإفادة والاستفادة إلا القطرين ، ولا سيما قد عرف عنهما حب العلماء ولا كبارهم . وإن العلماء بدورهم قد رأوا إقفار البلاد من الكتب العربية ، يقول السيوطي وهو من علماء هذا العهد : « وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة من التار وغيرهم بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد »^(١) . وربما كان في هذا الكلام شيء من الغلو إلا أنه — أيًا ما كان — دليل على إحساسهم بالنقص والخسارة ؛ وواجب الدين في أعناقهم يقضى عليهم بإحياء ما درس من علوم لغة الدين ، وبينهم بعض المشاركة الذين فروا من وجه المغول ، والجحيم الغفير من المغاربة والأندلسيين الذين وردوا القطرين من عهد بعيد ، فهبت حركة طيبة في علومها ، رفى مقدمتها النحو .

ومن الإنصاف أن نقول إن عماد هذه الحركة التي كان فيها إمساك للحوباء إنما هم جالية الأندلس والمغرب الذين سلف ذكرهم ، فإنهم لما ألّبوا بالقطرين ، واتخذوها مقرًا لهم بثوا علمهم وأذاعوا مصنفاتهم فيهما بين الناس ، فتخرج عليهم تلاميذ كانوا ككب العصور المتأخرة ، وصارت مصنفاتهم نبراسًا لمن صنف بعدهم من العلماء ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن رحلاتهم إلى القطرين كانت بعيدة العهد ، وطالت أيامها ، فاختلطوا بالعلماء قبل حادثهم بزمان غير قريب ، ولا كذلك المشاركة

(١) المزهر . النوع الأول ، المسألة السادسة عشرة بعد الكلام على جمهرة ابن دريد .

الذين بغتوا بحادثهم ، ولجأوا إلى القطرين ، فإنهم وردوهما وقد تشبع العلماء من روح المغاربة ، ومن هنا ندرك :

السفر في تغلب المذهب الأندلسي عند نهضة التمطرين على البغدادى

من الحديث السالف الذى وقفت منه على تبكير المغاربة عن المشاركة فى النزوح إلى القطرين واستيطانهما ، ومعهم مؤلفاتهم ، وقد تكون لديهم مذهبهم ، تدرك أن مذهبهم سبق المذهب البغدادى إلى علماء القطرين ، فإن علماءهما قد تتلمذوا لهم ، فتشبعوا بروحهم ، وتغلب المذهب الأندلسي عليهم ، فتغلغل فى الدراسة والتصنيف والرأى أخيراً ، فألفية ابن مالك الأندلسي التى كثرت الشروح عليها ، وطاف المؤلفون فى التمطرين حولها ، هى التى توزعت دراستها على مراحل التعليم باعتبار شروحها سهولة وصعوبة ، واختصاراً واتساعاً ، وكذا « الكافية الشافية » له أيضاً ، وقد راجت أقوال ابن مالك حتى عند المشاركة ، فقد نقل الرضى عنه كثيراً فى شرحه على « الكافية » لابن الحاجب .

وبالحملة فإن اتجاه النهضة بعد اقتنى المنهاج الأندلسي ، وما برح إلى عصرنا الحاضر فى القطرين ، ففي هذا العصر فاضت دراسة النحو فى أغلب مدن القطرين ، وبخاصة فى القاهرة ودمشق وحلب ، وقد كانت الدراسة أول أمرها أشبه شىء بعلاج المريض الذى لم يبق فيه إلا الدماء ، ولكن اطرادها على طول الأيام مخوفة بالترغيب والتقدير قد أكسبها

استعادة ما فقد النحو من الازدهار ، فظهر في البلدين جهابذة العُلام
الذين حفظوا وجود هذا العلم بعد نكبتى المشرق والمغرب ، ونقلوه كاملاً
غير منقوص لمن بعدهم ممن حدثوا في عصور الظلام ، ونشطت حركة
التأليف لتزايد الإقبال عليها ، ومن مظاهر هذا النشاط أن توخى أغلب
المؤلفين في مؤلفاتهم المتعددة التدرج والتنوع فيها لاختلاف قدر الطالبين
من مبتدئ وشاد ومنته ، فجمعوا فيها بين وجيز ووسيط وبسيط ، حباً
في تعميم النفع ، كما صنع ابن مالك وابن هشام والسيوطي .

نعم ، إن التأليف على عمومته في خلال هذا العهد قد طرأ عليه اتجاه
جديد ، وذلك أن معظم المؤلفات السابقة كانت زعيمة بالإبانة عن نفسها
بنفسها لا ترتقب تفسيراً ولا توضيحاً مع النزوع إلى الوجهة النحوية ،
يستوى في هذا مطولاً ومختصرها ، إذ لم يقصد واضعو المختصرات سابقاً
إلا مجرد التسهيل على المبتدئ بذكر جزئيات من مسائل العلم تؤنسه إذا
جد فيه ، فساوت عباراتها في التأدية ما فيها من المعاني ، ومن ألف
مختصراً على هذا النهج قديماً الزجاجي في « الجمل الكبيرة » وعبد القاهر
الخرجاني في « جملة » أيضاً .

أما في هذا العهد فقد طفق المؤلفون ينشئون المتون مع استيعابها
لما في المطولات ، ويفتنون في سبيل إيجازها ما وسعته قدرتهم ، ومن هنا
مست الحاجة إلى الشروح ، وربما جللت بالحواشي ، وأقرب الأمثلة
لهذا شروح « كافية » ابن الحاجب و « ألفية » ابن مالك و « كافيته »

و « مغنى » ابن هشام و « توضيحه » وبعض حواشيها . وهذه المؤلفات التي كانت غزيرة المادة العلمية من الجهة النحوية لم يعبها إلا ما شابها في الشروح والحواشي من : كثرة بيان اللهجات العربية لكثير من الكلمات مما يمت إلى فقه اللغة بسبب وثيق ، ومن التعليل والتوجيه لمتضارب الآراء النحوية مما لا يعود بطائل على النحو ، ومن محاولة أخذ القاعدة النحوية من مادة الكتاب المعلق عليه ، وكثيراً ما يكرن في العبارة قصور في الدلالة . لكن هذه الهنات لم تذهب بمحاسن هذه المصنفات ، وجلها ما يزال إلى يومنا عتاد طلاب النحو ومطمح أنظارهم ، ويظهر أن الحامل لهم على الإكثار من المتون حبهم في سرعة تلافى ما ضاع من كتب النحو ، والمتون كفييلة بجمع ما كثر من التواعد في سوجز الكلام ، فلكي يسهلوا على الراغبين جمع شتات هذا الفن في قبضة اليد صنفوها كعلاج بدا لهم ، فلم يكن بعد هذا بدءاً من شروح تكشف قناع هذه المخدرات المكنونة ، وبالتالي قد تقتضى الشروح تفصيلاً لما أجمل فيها ، فكانت بعض الحواشي — فما أجدر عهد المماليك بتسميته عهد المتون والشروح .

وسيتبين لك عند تراجع علمائه أن معظم مؤلفاتهم متون وشروح ، فقلما ترى حاشية لمؤلف منهم ، كل ذلك والأقطار الإسلامية الأخرى منصرفة عن هذا العلم وغيره ، ترزح تحت نير الظلم من ملوك لا تحنو على اللغة وعلومها ، ولا تربطها بها أسباب ، فإن المطالع لصفحات تاريخ النحويين لهذا العهد لا تكاد تقع عيناه عليهم إلا متوطنين نشأة النحو

بالقطرين إما نازحين إليهما أو مولودين بهما ، فَمَا لَا مَرِيَّةَ فِيهِ أَنَّهُ لَوْلَا
القطران فِي هَذَا الْأَمَدِ لَا تَقْطَعُ الصَّلَاةُ بَيْنَ الثَّوْقِ قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ ، وَلَكِنْ
لَهُ نِظَامٌ آخَرٌ - تِلْكَ هِيَ حَالَةُ هَذَا الْعِلْمِ وَرِجَالِهِ - وَهَآكِ بَعْضُ مَشْهُورِيهِمْ
مَعَ التَّرْتِيبِ الزَّمَنِيِّ فِي وَفْيَانِهِمْ :

١ - ابن النّازم

هُوَ مُحَمَّدُ بَدْرُ الدِّينِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، وَلَدٌ بِدَمَشْقَ فَأَخَذَ عَنْ أَبِيهِ وَنَشَأَ
حَادِ الذَّهْنَ إِلَّا أَنَّهُ غَلَبَتْ عَلَيْهِ مَعَاشِرَةُ الشَّدَازِ غَاقِصَاهُ أَبَوْهُ ، فَأَقَامَ
فِي « بَعْلَبَك » وَانْتَفَعَ النَّاسُ بِعِلْمِهِ ، وَكَانَتْ لَهُ مِشَارَكَةٌ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ ،
وَمِنْ مَوْلفَاتِهِ النُّحُويَّةُ شَرْحُهُ عَلَى « الْأَلْفِيَّةِ » وَالِدُهُ .

نُبذة عن شرح ابن النّازم

يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ أَوَّلُ شَرْحٍ عَلَى الْأَلْفِيَّةِ مَهْدِ السَّبِيلِ لِمَنْ شَرَحُوا
الْأَلْفِيَّةَ بَعْدَهُ ، نَقَلُوا عَنْهُ ، وَعَنُوا بِبَسْطِ مَا فِيهِ حَتَّى امْتَنَزَ أَنْ يَصِيرَ عِلْمًا
بِالْغَلْبَةِ « لِلشَّارِحِ » إِذَا أُطْلِقَ فِي هَذِهِ الْمَصْنُفَاتِ . وَقَدْ تَعَقَّبَ ابْنُ النَّازِمِ
أَبَاهُ كَثِيرًا ، بِدُونِ هَوَادَةٍ - انْظُرْ بَابَ الْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ وَالتَّنَازُعِ وَالصِّفَةِ
الْمُشَبَّهَةِ ، وَرَبَّمَا حَمَلَهُ التَّعَقُّبُ إِلَى الْإِيتْيَانِ بِيَتِّ بَدَلِ بَيْتِ النَّازِمِ ، فَنَفَى
بَابَ التَّنَازُعِ رَأَى أَنْ يَقُولَ أَبِيهِ :

بَلْ حَذَفَهُ الزَّمُّ إِنْ يَكُنْ غَيْرَ خَبِيرٍ وَأَخْرَجَهُ إِنْ يَكُنْ هُوَ الْخَبِيرُ
يَفِيدُ أَنَّ ضَمِيرَ الْمُتَنَازِعِ فِيهِ إِنْ كَانَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ فِي بَابِ ظَنِّ يَجِبُ

حذفه مع أنه لا فرق بين المفعولين — فاستصوب أن يقول بدله :

واحدفه إن لم يلك مفعول حسب وإن يكن ذاك فأخره تصب
إلا أن الشراح بعده من : ابن هشام وابن عقيل والأشعرى وغيرهم
تصدوا للرد عليه بما جعل حملاته على الناظم طائشة كما ترى فيها
مبسوطاً ، وقد وردت فيه بعض شواهد محرفة نقلها عنه من بعده ، ومن
ذلك على سبيل المثال : استشهاده في أول باب « نعم وبئس » للكوفيين
على اسميتهما بقول الراجز :

صباحك الله به خير باكر بنعم طير وشباب فاخر
وصحة الشعر الثاني « بنعم عيّن إلخ » ، كما في لسان العرب ،
وشرح القاموس ، وعلى هذا ضاع الاستشهاد بالبيت — مع أنه اقتفاه في
هذا الاستشهاد الأشعرى .

ويلاحظ عليه أنه ربما ساق شعر المحدثين استدلالاً ، فقد جوز
ذكر الخبر بعد لولا إن دل عليه دائل كقول أبي العلاء المعرى :

يذيب الرعب منه كل غضب فلولاً الغمد يمسكه لسالا
ثم الشارح في الواقع مغلق ولهذا كثرت الحواشي عليه ، فكتب
عليه ابن جماعة والعيني والسيوطي وزكريا الأنصاري وابن قاسم العبادي
وغيرهم . ومنها شرحه على « كافيته » أيضاً ، ولما توفي أبوه استدعى إلى

دمشق فولى وظيفة أبيه ، ومات بمرض القرانج شاباً بدمشق
سنة ٦٨٦ هـ (١) .

٢ - ابن النحاس

هو أبو عبد الله محمد بهاء الدين بن إبراهيم الحلي ، أخذ العربية
عن ابن عمرو والقراءات عن الضرير وسمع من غيرهما ، ودخل مصر
وتلقى عن مشايخها ثم صار إمام المصريين في العربية . وفي فوات الوفيات
ترجمة « محمد بن رضوان » من شعره إلى الشيخ بهاء الدين :

سلم على المولى البهاء وصف له شوقى إليه وأننى مملوكه
أبدًا يحركنى إليه تشوقى جسمى به مشطوره منهوكه
لكن نحللت لبعده فكأننى ألف وليس بممكن تحريكه
واستطرف ابن هشام الأبيات فذكرها للمناسبة في تقدير الحركات
الإعرابية في المقصور « شرح شذور الذهب » - ولم يصنف ابن النحاس
إلا ما أملاه على « المقرب » لابن عصفور ، توفى بمصر سنة ٦٩٨ هـ (٢) .

٣ - المرادى

هو الحسن بن قاسم المصرى ، أخذ عن أبي حيان وغيره ، وصنف
وتفنن وأجاد ، فمن مصنفاته شرح المفصل ، وشرح التسهيل ، والجنى

(١) ترجمته في - الوافى بالوفيات ، وبغية الوعاة ، وشذرات الذهب .

(٢) ترجمته في بغية الوعاة ، وفوات الوفيات ، وشذرات الذهب .

الداني في حروف المعاني ، وشرح الألفية . وهؤلقات المرادي مصادر لدى النحاة وثيقة ، فالدهاميني عول في شرح التسهيل على شرحه ، والأشعراني نقل في شرح « الألفية » كثيراً عن شرحه ، وقالوا إن ابن هشام استناد في « المغني » من الجني الداني - توفي بالقاهرة سنة ٧٤٩ هـ (١) .

٤ - ابن هشام

هو أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري ، ولد بالقاهرة ، ولزم عبد اللطيف بن المرحل ، وسمع على أبي حبان ديوان زهير ، وحضر دروس التاج التبريزي ، ثم فاق أقرانه بل شبوخته وتخرج على يده الكثير - صنف المؤلفات المأى بالفوائد الغربية والمباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة مع التصرف في منهجها والتنويع في إفادتها مما يدل على الاطلاع الغريب - فمنها شذور الذهب في معرفة كلام العرب وشرحه ، وقطر الندى وبل الصدى وشرحه ، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، وشرح التسهيل لابن مالك ، والجامع الكبير ، والجامع الصغير ، والإعراب عن قواعد الأعراب ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب الذي طارت شهرته إلى المغرب ، يقول ابن خلدون : « ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب

(١) ترجمته في البغية ، وحسن المحاضرة (أئمة النحو واللغة) ، والدرر ، والشذرات .

إلى جمال الدين بن هشام من علمائها إلى أن قال : فأثنى من ذلك بشئ عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء (١) .

إن ابن هشام نسيج وحده . فما من كتاب له إلا وفيه شاهد على علو كعبه ، ولتبيين ذلك فأمامك التوضيح والمغنى .

تعريف بكتابي التوضيح والمغنى

ففي التوضيح توخى شرح الألفية مع الإلماع إلى ما فاتها : من استكمال لبعض الأقسام ، ومن انسجام في ترتيب المعلومات ، ومن تنسيق في ضم القواعد المتصلة بعضها ببعض ، كما يظهر جلياً في باب التصريف . وذلك فوق النخطة في الأحكام لمساثل كثيرة سأقتصر على قليل منها على سبيل التمثيل خوفاً التطويل . فقد عقب على البيت الأول في باب التمييز وهو :

اسم بمعنى من مبين نكره ينصب تمييزاً بما قد فسر
بأن تمييزه النسبة ناصبه المسند لا النسبة ، وفي باب الإضافة عقب على البيت :

قبل كغير بعد حسب أول ودون والجهات أيضاً وعمل
بأن « حسب » لا تعرب نصباً إذا نكرت ، وأن « عل » لا تضاف

(١) المقدمة الفصل الثالث ، علوم اللسان ، علم النحو - ومن إعجاب ابن خلدون مثل ذلك قبلا في المقدمة فصل (في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل) .

ولا تنصب على الظرفية أو غيرها ، وفي باب الوقف عقب على البيت :
 وليس حتماً في سوى ما كع أو كيع مجزوماً فراع مارعها
 بأن المضارع المجزوم الباقي على حرفين لا تجب فيه هاء السكت ،
 بدليل إجماع المسلمين في الوقف على (ولم أك) بترك الهاء .
 وفي المغنى نهج سبيلا لم يسبق إليه ، أتاح له ألا يدع مسألة نحوية
 إلا عرض لها بإبداع مع عدم تكرار ، فأوفى على الغاية ، وفي خلال
 تفصيلاته وازن كثيراً بين المذاهب النحوية وإن كان صغوه مع
 البصريين .

فما اختار من مذهب الكوفيين :

- ١ - إنكارهم وجود أن المنسرة قال : « وعن الكوفيين إنكار أن
 التفسيرية آتية وهو متجه عندي . . . إلخ » ^(١) .
 - ٢ - اختيارهم شرطية « أن » المدغمة في ما في نحو أما أنت منطلقاً
 انطلقت ، قال : « وإليه ذهب الكوفيون ويرجح عندي أمور . . . إلخ » ^(٢) .
- ومن الاتفاق والمصادفات أن هذا الترجيح سبق للرضي كما تقدم
 في ضمن المسائل التي فضل فيها رأى الكوفيين مستدلاً في هذا الاختيار
 بعين ما استدل به ابن هشام ، مع أن ابن هشام ولد ببغداد وفاق الرضي بنحو
 عشرين عاماً ، ولذلك قال البغدادي في خزانة الأدب الشاهد الخمسين

(٢) المبحث الماضي .

(١) الباب الأول « أن » .

بعد المائتين للإشتراك بين الرأيين ، انصبه : « وهذا من توافق الحاطر كما يقال : قد يقع الحافر موضع الحاذر » .

٣ - إعراب فعل الأمر بالجزم بلام الأمر المقدرة لأنه مقتطع من المضارع المجزوم بها قال : « فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة ، وبقولهم أقول لأن الأمر معنى . . . إلخ » ^(١) .

٤ - عدم وجوب أن تكون أم المنقطعة بمعنى بل والهمزة جميعاً قال : « والذي يظهر لي قولهم إذ المعنى في نحو (أم جعلوا لله شركاء) ليس على الاستفهام . . . إلخ » ^(٢) .

هذا ، وفي بعض شواهد عرض تحريف لا نحسبه عليه في هذا المؤلف الكبير ، ومن ذلك على سبيل المثال :

١ - استشهاده في مبحث « التاء » للمناسبة على قلة تقدم الخبر جملة بقول الفرزدق :

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره ^(٣)
والصواب « أبوها » كما يقتضيه البيت التالي وهو :

ولكن أبوها من راحة ترتقي بأيامه قيس على من تفاخره

(١) الباب الأول « اللام » . (٢) الباب الأول « أم » .

(٣) البيت من قصيدة في مدح الوليد بن عبد الملك بن مروان .

وبهذا صار البيت شاهداً على تقدم الخبر شبه جملة لاجملة كما هو ظاهر .

٢ - استشهاده في مبحث « كل » على وجوب مراعاة معناها بحسب المضاف إليه النكرة ، فهي مثني في قول الفرزدق :

وكل رفيقي كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوماً هما أخوان^(١)

وبالنظر إلى روايته « قومًا » بالتنوين قال : « وهذا البيت من المشكلات لفظاً وإعراباً ومعنى فلنشرحه... إلخ » - ثم قال ما قال بناء على روايته الحاطئة ، وسيأتى في ترجمته الدماميني شارح المغنى تصحيحها بما يفيد أنه مثني مرفوع مضاف لا مفرد منصوب منون .

ومما يجدر التنويه به أن ابن هشام في المغنى لم يقف عند المسائل النحوية ، فتناول فيه بعض المسائل البلاغية ، لا لتقليد السابقين من النحاة ، ولذا يقول : « ولم أذكر بعض ذلك في كتابي جرياً على عادتهم ، وأنشد متمثلاً :

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد
بل لأنى وضعت الكتاب لإفادة متعاطي التفسير والعربية جميعاً^(٢) .
يريد أن ما ذكره منها ليس اقتفاء لغيره حتى يحتاج إلى الاعتذار

(١) البيت من قصيدة في ذئب نزل به وقراه .

(٢) آخر الباب الخامس ، والبيت لدريد بن الصمة الجشمي من مرثية في أخيه عبدالله المقتول يوم اللوى ، وغزيرة رطل دريد أرجده ، والمرثية في الحماسة (الرثاء) .

بإنشاد البيت ، وإنما لقصده أن المغنى يجمع بين الأمرين . ويروى أنه قيل لابن هشام هلا فسرت القرآن أو أعربته فقال : أغنانى المغنى . كنت أودّ أن أذكر تعريفاً خاصاً بكتاب « المغنى » أعرض فيه سبب التأليف له واتجاهه فيه ونقده النحاة وانتحاه منحى قوياً فى الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وماأخذ على العلماء فى أعاريب مشتهرة ، وما إلى أولئك من مزايا أخرى . لكن لا يتسع هذا الكتاب لكل ما نود ؛ وما يجدى التعريف إلا بسفر خاص به . غير أنه مما لا ينبغى التساهل فيه أن أنبه على أن المغنى قد تبارى العلماء فى التعليق عليه مذ ظهر ، فشرحه ابن الصائغ إلى أثناء الباء الموحدة ، وسمى شرحه « تنزيه السلف عن تمويه الخلف » ، والدماينى بعد أن علق عليه فى الديار المصرية ونزح إلى الهند شرحه بتوسع وسمى شرحه « تحفة الغريب بشرح مغنى اللبيب » ، وفى هذا الشرح اعتراضات على المغنى كثيرة تعقبها الشمنى فى حاشيته عليه المسماة « المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام » . وللسيوطى حاشية على المغنى وصل فيها إلى « حتى » ، والأمير حاشية تامة . والدسوقي أيضاً ، لنا للإبيارى سماها « القصص المبنى على حواشى المغنى » وصل فيها إلى الباب الثانى . توفى ابن هشام بالقاهرة ودفن خارج باب النصر سنة ٧٦١ هـ (١) .

(١) ترجمته فى الدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر الطالع .

٥ - ابن عقيل

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بهاء الدين بن عبد الرحمن ، الحلبي أصلاً ، تآق عن الجلال القزويني وأبي حيان وغيرهما ، واشتهر في العربية حتى تبوأ منزلة مشايخه ، ودرس بالقطبية والحشبية والجامع الناصري بالقلعة ، والجامع الطولوني ، وولى القضاء الأكبر لشهرته بالتدين إلا أنه كان غير محمود التصرفات المالية على نفسه ، ومن مؤلفاته النحوية شرحه على التسهيل « المساعد على تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد » ، وشرحه على الألفية .

كلمة عن شرحه على الألفية

يمتاز هذا الشرح بالسهولة ، فلا يحتاج الطالب الشاى إلى تفهيمه من موقف ، وليس من المبالغة أن يقال إن هذا الشرح هو الذى أرشد المتعلمين إلى معرفة المراد من الألفية تماماً ، فإن عنايته متجهة إلى إيضاحها وتبيان المقصود منها ، وهو شرح حسن متوسط فى النصف الأول ، ومختصر فى النصف الثانى ، وتجلّى فيه مواءمة ابن عقيل للناظم ، ولما دافع هجوم ابنه عليه فى شرحه كثيراً ، فيقول مثلاً فى باب المفعول المطلق : « وقول ابن المصنف إن قوله : وحذف عامل . . . ليس بصحيح » .

وقد اهتم العلماء بهذا الشرح ، وكتبوا عليه الحواشى ، فمنها حاشية

« إرشاد النبيل إلى ألنية ابن مالك وشرحها لابن عميل » لابن الميت ،
وحاشية لعطية الأجهوري ، وحاشية للسجاعي ، وحاشية للخضري ، توفي
ابن عميل ودفن بالقرب من الإمام الشافعي سنة ٧٦٩ هـ^(١) .

٦ - ابن الصنائع

هو محمد شمس الدين بن عبد الرحمن ، أخذ عن ابن المرحل
ولازم أبا حيان ، فمهر في العربية مع النشاط وحدة الذكاء ودماثة
الأخلاق ، فسرعان ما تبوأ المناصب العليا ، فولى قضاء العسكر وإفتاء
دار العدل ، ودرس بالجامع الطولوني ، وصنف وأبدع ، فمن مؤلفاته
النحوية : شرح الألفية ، والتذكرة - عدة مجلدات ، والمرقاة في إعراب
لا إله إلا الله ، وحاشية على المنى سلفت الإشارة إليها ، والوضع الباهر
في رفع أفعال الظاهر ، وهذا الكتاب مسطور في « الفن السابع » من
الأشباه والنظائر . توفي بالقاهرة سنة ٧٧٦ هـ^(١) .

٧ - ناظر الجيش

هو محمد محب الدين بن يوسف ، ولد بحلب ، واشتغل بها ، ثم

(١) ترجمته في الوافي ، والدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر
الطالع .

(٢) ترجمته في الوافي والدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة « الفقهاء الحنفية » والشذرات .

قدم إلى القاهرة ولازم أبا حيان وغيره ، ومهر في العربية وولى نظر الجيش وغيره ، فكان المثل الأعلى في الكياسة والحد والتدين . ومن مؤلفاته النحوية شرح التسهيل « تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد » . توفي بالقاهرة سنة ٧٧٨ هـ (١) .

٨ - ابن جماعة

هو محمد عز الدين بن أبي بكر بن عبد العزيز ، ولد بينبع ، أخذ عن ناظر الجيش والسيرامى وغيرهما ، ثم صار المشار إليه في الديار المصرية في فنون شتى ، ولم يتزوج ، وكان فيه ميل إلى السهولة والمزاح ، وجاوزت مؤلفاته الألف ، منها في النحو حاشية على شرح ابن الناظم تسمى « المسعف والمعين في شرح ابن المصنف بدر الدين » ، وحاشية على المغنى ، وحاشية على شرح التوضيح ، توفي سنة ٨١٩ هـ (٢) .

٩ - الدمامينى

هو محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر المخزومى ، أصله من دمامين (قرية قريبة من الأقصر) ، ولد بالإسكندرية وتعلم بها ، ثم هبط مصر وارتفع قدره فيها ، فالتف حوله الطلاب بالأزهر ، ثم اشتغل بالدقيا ،

(١) ترجمته في الدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات .

(٢) ترجمته في الدرر ، والضوء اللامع ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ،

والبدر الطالع .

ولما نكّب بالحريق هرب من الغرماء إلى الصعيد ، فاستقدموه مرغمًا ،
وبعد صلاح حاله غادر الديار المصرية ، فدرس في جامع زبيد باليمن ،
وترك اليمن متجهًا إلى الهند ، وهناك صعد نجمه ، وأقبلت الدنيا عليه ،
فتفرغ للتعليم والتصنيف ، فمن مؤلفاته النحوية : شرح التسهيل لابن مالك
« تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد » عول فيه كثيراً على شرح المرادى
للتسهيل ، وقد ألفه تلبية لطلاب السلطان أحمد شاه ، وفي مستهل الشرح
بعد الإهداء كلمة عن ابن مالك ومؤلفاته ، وله تعليق على المغنى كتبه بالديار
المصرية ، وشرح مزيج على المغنى ألفه بالهند سماه « تحفة الغريب في الكلام
على مغنى اللبيب » إجابة لرغبة السلطان محمد شاه ، وفي هذا الشرح
جلى عن غزارة مادة وعبقورية فذة ، بيد أنه أسرف في تعقبه لابن هشام
مما حمل الشمنى على محاولة الرد عليه دائماً في حاشيته « المنصف من
الكلام على مغنى ابن هشام » ، ففي التسمية ما يغنى عن البيان ، والخفيقة
أن الدمامينى في بعض الأحيان يكون متوخياً لإصابة الحق في اعتراضه ،
فمن هذا على نمط التمثيل تخريج ابن هشام في مبحث « كل » قول
الفرزدق :

وكل رفيقى كل رجل وإن هما تعاطى القنا قوماهما أنخوان
بناء على طنه تنوين « قومًا » إذ قال : « وهذا البيت من المشكلات
لفظًا وإعرابًا ومعنى » ، فأبان الدمامينى أن « قوما » مثنى ، وطاح كلام
ابن هشام من أساسه ، كان الدمامينى رحمه الله أديبًا جيد النظم ، فترى

طلاوة أدبه في ألغازه النحوية المشهورة التي يستهلها بخطاب علماء الهند ،
فمنها إلغازه في مفرد جمع المذكر السالم ، فقد اشترطوا علميته إن لم يكن
وصفًا ، ومع هذا فلا يجمع بعدُ إلا مقصوداً تنكيهه بأن يراد به واحد
مسمى به ، وذلك لأن العلم يدل على الشخص ، والجمع يدل على
الشيوع والتعدد ، فيتناحيان ، فيقول :

أيا علماء الهند لا زال فضلكم	مدى الدهر يبدو في منازل سعده
ألم بكم شخص غريب لتحسنوا	بإرشاده عند السؤال لقصده
وها هو يبدي ما تعسر فهمه	عليه لتهدوه إلى سبل رشد
فيسأل ما أمر شرطتم وجوده	لحكم ؟ فلم ترض النحاة برده
فلما رأيتم ذلك الأمر حاصلًا	أبيتم ثبوت الحكم إلا يفقده
وهذا لعمري في الغرابة غاية	فهل من جواب تنعمون برده ؟

وقد أجاب، بعض الفضلاء عليه بشعر من بحر وروى السؤال كما في
حاشية العطار على الأزهري : مبحث جمع المذكر السالم . ومنها
إلغازه في جر الفاعل وقد ذكره في « تحفة الغريب بشرح مغنى اللبيب »
عند الكلام على الجملة الرابعة المضاف إليها من الجمل السبع التي لها
محل من الإعراب في « الباب الثاني » .

وذلك أن ابن جني في الجزء الأول من الخصائص « باب في الفرق

بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى « للمناسبة قال في بيت طرفة
العبدى :

بجفان تعترى نادينا من سديف حين هاج الصنبر^(١)
« يريد الصنبر فاحتاج للتأقية إلى تحريك الباء . . . وكان يجب
على هذا أن يضم الباء فيقول الصنبر لأن الراء مضمومة إلا أنه تصور
معنى إضافة الطرف إلى الفعل فصار إلى أنه كأنه قال حين هيج الصنبر ،
فلما احتاج إلى حركة الباء تصور معنى الجر فكسر الباء ، وكأنه قد نقل
الكسرة عن الراء إليها . . . إلخ » .

فقال الدمامي على هذا التقدير ملغزاً :

أيا علماء الهند إني سائل فمنا بتحقيق به يظهر السر
أرى فاعلا بالفعل أعرب لفظه بجر ولا حرف يكون به الجر
ولبس بمحكي ولا بمجاور لدى الخفض والإنسان للبحث يضطر
فهل من جواب عندكم أستفيده ؟ فمن بهركم ما زال يستخرج الدر
وأجاب عن هذا اللغز نظماً أيضاً من البحر والروى السجاعي ،
فانظره في ترجمته في الجبرتي .

(١) بجفان متعلق بالفعل قبل وهو ندعو ، وتعترى نادينا : تلم به ، والنادى مجلس
الفوم ، والسديف قطع السنام ، والصنبر أشد ما يكون من البرد ، والبيت من قصيدة طويلة .

قال الشمني تحليقاً على الدماميني : « قد سبقه إلى الإلغاز بهذا فرج بن تاسم الأندلسي في منظومته النونية في الألغاز النحوية » ، وهذا مبني على القطع بمسكون الباء في الصنبر ، لكن في الصحاح ورودها بالكسر أيضاً فلا إلغاز ، وقد نقل ذلك كله تفصيلاً البغدادي في الخزانة مكرراً في شامدي ٦٠٧ و ٧٥٩ - بل على السكون قد يكون الكسر المتخلص لا للنقل ، فلا إلغاز أيضاً كما قال الخصري على ابن عميل أول باب الفاعل . ر في الدماميني بالهند في كليرجا سنة ٨٢٧ هـ (١) .

١٠ - الشمني

هو أبو العباس أحمد تقي الدين بن محمد بن محمد المشهور بالشمني (نسبة إلى مزرعة ببلاد المغرب) ، ولد بالإسكندرية وقدم مع أبيه القاهرة فتلقى النحو عن الشطنوفي وبقية الفنون عن أساتذتها ، ثم صار واحد العصر في سائر الفنون ، وتزاحم الناس في الأخذ عنه ، إذ كانت التلمذة له مفخرة . وولى المشيخة والخطابة بقايتباي ، وطلب للقضاء فأبى . وله في النحو حاشية على المغني وشرح الدماميني سماها « المنصف من الكلام على معنى ابن هشام » ، سبقت الإشارة إليها ، وقد وهبها الله القبول فحرص الناس على قراءتها ، غير أنها في الحقيقة ليست من الحواشي الضافية التي أسيغت ثوباً جديداً على ما تعلق عليه ، فليس من المبالغة

(١) ترجمته في البقية ، وحسن المحاضرة ، والفضوء ، والشذرات ، والبدر الطالع .
نشأة النحو

قول الشوكاني عليها في أثناء الكلام على ترجمة الشمي في البدر الطالع :

« وقد رأيت حاشية على المغني ، وحضرت عند قراءة الطلبة على في الأصل فما وجدت لها مما يرغب فيه لا بكثرة فوائده ، ولا بتوضيح خفي ، ولا بمباحثه مع المصنف ، بل غايتها نقول من كلام الدماميني ، وإني لأعجب من تنافس الناس في مثلها » - توفي رحمه الله بالقاهرة سنة ٨٧٢ هـ (١) .

١١ - خالد الأزهرى

هو خالد زين الدين بن عبد الله ، ولد بمجرجا (في الصعيد) ، وتحول وهو طفل مع أبيه إلى القاهرة ، ثم حفظ القرآن ، وخدم في الأزهر وقاداً ، فسقطت منه يوماً قتيلاً على كراس أحد الطلبة فشتمه وعيَّره بالجهل . فغز عليه شتمه ، واشتغل بالعلم بعد أن جاوز العقد الثالث ، وقرأ في العربية على يعيش المغربي والسنهوري ، وأخذ قليلاً عن الشمي والمناوى وغيرهما ؛ وقد بورك له في عمله فصنف مؤلفات انتفع بها لإخلاصه ، منها في النحو : التصريح بمضمون التوضيح ، والأزهرية وشرحها ، وشرح الأجرومية ، وشرح قواعد الإعراب لابن هشام ، وإعراب الألفية ،

(١) ترجمته في البغية ، وحسن المحاضرة (الفقهاء الحنفية) والضوء ، والشذرات ، والبدر الطالع .

توفي بمائداً من الحج في (بركة الحج) قلوبية سنة ٩٠٥ هـ (١).

١٢ - السبوطي

هو أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين بن أبي بكر ، نشأ يتيماً وكان ذكياً حفيظاً ، فتلقف مشايخ العصر في كل فن ، وأخص مشايخه في النحو الشمسي والسيرامي والكافيحي ، ونفر في سبيل العلم إلى الشام والحجاز واليمن والهند ، فأعطاه ربه ما أرضاه ، وصنف مؤلفات في متنوع العلوم تربو على الثمائة ، فسبحان الوهاب . ومن أشهرها في النحو : الأشباه والنظائر ، وجمع الجوامع وشرحه همـع الجوامع . والنكت تعلية على « ألفية ابن مالك والكافية والشافية لابن الحاجب والشذور ونزهة الطرف لابن هشام » ، والاقتراح في أصول النحو — ومن مؤلفاته الممتعة « المزهرة » في علوم اللغة وأنواعها ، و « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ، وهذه الكتب من المراجع القيمة التي لجأنا إليها في هذا الكتاب . وبعد فلا أستطيع في هذه الكلمة الموجزة إيفاء المترجم حقه ، وقد ترجم لنفسه في الجزء الأول من كتابه « حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة » فارجع إليه تر العجب العجيب ، توفي بالقاهرة سنة ٩١١ هـ (٢) .

(١) ترجمته في شذرات الذهب ، والضوء اللامع .

(٢) ترجمته أيضاً في البدر الطالع ، والضوء اللامع ، والشذرات .

١٣ - الأشموني

هو أبو الحسن علي نور الدين بن محمد بن عيسى الأشموني أصلاً ، ولد بقناطر السباع ، وتوطن القاهرة مكباً على العلم مع التقشف في مأكله وملبسه ومفرشه ، لا هم له إلا العلم والطاعة ، أخذ عن الجلال المحلي والكافيجي والتقي الحصني وغيرهم ، ومن أشهر مؤلفاته النحوية شرحه على الألفية المسمى « منهج السالك إلى ألفية ابن مالك » .

تعريف بشرح الأشموني

في الحق أنه أغزر شروح الألفية مادة على كثرتها واختلاف مشاربها ، بل إنه من أوفى كتب النحو جمعاً لمذاهب النحاة وتعليلاتهم وشواهدهم على نمط البسط والتفصيل ، ولا غرابة أن يجمع في شرحه ما جمع ، فأمامه من شروح الألفية شرح ابن الناظم والمرادي وابن عقيل والشاطبي والتوضيح وغيرها ، ومن شروح الكافية شرح الناظم وغيره ، ومن شروح التسهيل المرادي وغيره ، وأمامه المغني ، وهذا كله عدا كتب السابقين ، فما عليه - وقد رام أن يكون شرحه موسوعة - إلا أن يضم كل شيء إلى نظيره ويضعه في موطنه ، وإذا أنعم النظر في شرح الأشموني وكانت الأصول السالفة بين يديه فإنه يسهل عليه أن يرجع المقال إلى مصدره .

وقد يحسن الأشموني في بعض الأحيان ، فينسب القول إلى قائله ، فيصرح بالشاطبي في باب المعرب والمبنى عند قول الناظم « في اسمي جثتنا » وبالمعنى عند قول الناظم « وفعل أمر ومضى بنيا » ، وبالتوضيح في باب النكرة والمعرفة عند قول الناظم « كافعل أوافق نغبت إذ تشكر » ، وفي الابتداء بعد قول الناظم « وأخبروا باثنين أو بأكثر... إلخ » ، وبالمرادى في التنازع عند قول الناظم « وأخرنه إن يكن هو الخبر » ، وكثيراً ما يصرح بلفظ الشارح ، يقصد ابن الناظم ، ولكن ذلك كله من الأشموني قليل جداً بالنسبة لإغفاله النسبة إلى صاحب الكلام — فإذا قرأت فيه المباحث المتعلقة بالأدوات في باب « عطف النسق » مثلاً أو « النواصب » أو « الجوازم » أو « لو » أو « أما ولولا ولوما » أو « كم وكأين وكذا » وأمثال هذا فإنك واجده قد نقل كلام المعنى مع قليل من التغيير ؛ إما بنقص لا يلمح ، أو زيد لا يذكر ، أو تقديم أو تأخير ربما أذهب شيئاً من المطلوب ، زيادة على أنه ربما دعا الكاتبين عليه إلى تنكب الجادة ؛ ولتهافتهم على تسطير ما حوته الكتب السابقة ، كتب بعض المعلومات في موطن غير أنسب بالكتابة فيه ، وحمله هذا الصنيع إلى تكرارها ثانياً وثالثاً ، والحيلة في التخلص عنده لحوؤه إلى « التنبيه » مفرداً ومثنى وجمعاً ، هذا مع عدم الدقة في ترتيب التنبيهات من حيث رعاية ارتباطها بالمقصود ، فلو اتسقت في الترتيب على المعنى المقصود من البيت المشروح لحسنت وضعاً ، وكانت الثمرة منها أشهى . ولا يتسع هذا الكتاب

لضرب أمثلة لكل هذا . تلك حالة هذا الشرح من الناحيتين : العلمية والتأليفية .

بقى علينا للمطلوب أن نكتب كلمة عن شواهد لأهميتها لدى المستفيد :

شواهد

سلك الأشمونى فى شواهد مهيع السابقين عليه الذين دونوها فى مصنفاتهم : سواء فى ذلك الشعر أم النثر ، وسواء فى النثر القرآن الكريم أم الحديث الشريف أم كلام العرب « مثلا أو غير مثل » .

أما الشواهد النثرية فمحشودة فى الشرح ، فلسنا فى حاجة إلى عرض شىء منها ، لأن النثر متفق على الاستشهاد به فى غير الحديث ، أما فيه فتابع لابن مالك المجيز له على ما سبق فى ترجمته ، وأما الشعر فكثير أيضا ومقلد فيه من أخذه منهم . وقد ساعده تأخره الزمنى على جمع مقدار كبير من مختلف المؤلفات قبله ، فمما يمتاز به هذا الشرح زيادة الشواهد فيه على المصنفات النحوية زيادة يؤود الطالب حفظها والإحاطة بما تستوجب المعرفة بها من : قائلها ومن قصائدها ومما قيلت فيه وغير هذا من مقتضيات الوقوف على جليلة الحال فى الشعر ، وإن المتبع لهذه الشواهد يعلم أنها للشعراء المعتد بهم إلا قليلا ، غير أن قليلا من الشعر

المعتد به قد ناله التحريف أو التصحيف ، لهذا ناسب أن أذكر الأمرين :
الشعر المحدث والشعر القديم الطارئ عاياه التغيير :

من شواهد الشعراء المحدثين

ذكرت في الشواهد بعض أبيات للشعراء المحدثين الذين لا يعتد بهم
النحاة وإن كان مقلداً من قبله ، فمن أمثلة ذلك استشهاده في باب الابتداء
مجاراة لارضى بقول أبي نواس :

غيرُ مأسوف على زمنٍ أينقضى بالهم والحزن
ومتابعة لابن الناظم بقول أبي العلاء المعري :

يذيب الرعبُ منه كل غضب فلولاً الغمد يمسكه لسالا
واستشهاده في باب إعراب الفعل مجازاة للسيوطي في الهمع بقول
المرتضى :

أتبيت ريان العصفون من الكرى وأبيت منك بليلة الملسوع
وعجب ابن هشام في المغنى (الباب السابع) من استشكال بعض
علماء العربية ضم التاء من « تبيت » وفتحها من « أبيت » مع الوضوح ،
ثم شرح الإعراب .

من شواهد الشعراء القدامى المخرفة أو المصحفة

كثر ما وقع في شواهد الشعرية من تصحيف أو تحريف ، ولا يحمل بي أن أعرض كل ما عثرت عليه من تلك الشواهد فإنه يقتضى مع التفصيل رسالة خاصة ، فسأجتزئ بذكر بعض الشواهد ، مع بيان أن ذلك التغير العارض على الشواهد قد يجر عليها عدم صحة الاستشهاد بها في الحقيقة ، وربما لا يستدعى ضرراً في ناحية الاستشهاد بها ؛ وهالك أمثلة للنوعين :

مما لم يحن التغير الطارئ فيه على الشاهد

١ — استشهاده في باب أبنية المصادر بعد قول الناظم « وغير ما مر السماع عادله » على ورود المصدر بزنة اسم المفعول كمعقول في قول الشاعر :

لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفواده معقولا
وصحة البيت هكذا :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفواده معقولا
فإنه من قصيدة للراعى النميرى مذكورة في جمهرة أشعار العرب « الملحومات » ، فالتغير طمس وزن البيت فقط ، ولم يستتبع ضرراً في موطن الشاهد .

٢ — استشهاده في باب عطف النسق بعد قول الناظم « وحذف
«شروع بدا هنا استبح» على تقدم المعطوف على المعطوف عليه بقول
ذى الرمة :

كأننا على أولاد أحقب لاحها ورى السفى أنفاسها بسهام
جنوبٌ ذوت عنها التناهى وأنزلت بها يوم رباب السفير خيامٌ
وصحة البيت الثانى كما في سيبويه ج ١ ص ٢٦٦ هكذا :

جنوبٌ ذوت عنها التناهى وأنزلت بها يومَ ذباب السبيب صيامـ
فالتغيير جر إلى الإقواء والإبعاد عن مرى الشاعر فقط .

٣ — استشهاده في باب إعراب الفعل بعد قول الناظم « وبلن انصبه »
على ورود « لن » للدعاء بقول الأعشى :

لن تزالوا كذلكم ثم لا زلت لكم خالداً خلود الجبال
وصحة البيت هكذا :

لن يزالوا كذلكم ثم لا زلت لهم خالداً خلود الجبال
فإنه من معلقة الأعشى في جمهرة أشعار العرب .

مما جنى التغيير فيه على موطن الشاهد

١ — استشهاده في أول باب « نعم وبئس » للكوفيين على اسميتهما
نشأة النحو

بقول الشاعر :

صبحك الله بخير باكر ينعم طير وشباب فاخر
تبعاً لاستشهاد ابن الناظم به ، وتقدم في التعريف بشرح ابن الناظم
تصحيح البيت بما يضيع الاستشهاد به .

٢ — استشهاده في إعراب الفعل بعد قول الناظم :

« كذا بأن لا بعد علم . . . »

على أن المضارع نصب شذوذاً بأن الواقعة بعد العلم بقول جرير :
نرضى عن الله إن الناس قد علموا ألا يدانيئنا من خلقه بشر
والرواية « أن لن يفاخرنا » بنصب المضارع بلن ، فطاش الاستشهاد
لنصب بأن بعد العلم ، وبراعة التحريف في البيت ظاهرة في استبدال
الفعل الناقص بالصحيح ، واستبدال لا بلن .

٣ — استشهاده « في إعراب الفعل » أيضاً بعد قول الناظم « وبعد غير
النفي جزمًا اعتمد إلخ » على مجيء المضارع مرفوعاً بعد الأمر بقول
الأخطل :

كُروا إلى حرتيكم تعمرونهما كما تكرر إلى أوطانها البقر
والاستشهاد بالبيت مبنى على فعل الأمر أول البيت ، والحقيقة أنه
فعل ماض « كـروا » ، فأنعدم الاستدلال بالبيت ، وتقدم في الحديث

عن أبيات سيبويه التي خطأوا فيها روايته ما يتعلق بهذا البيت تفصيلاً ،
لأن سيبويه أول من استدل به .

وقد رزق هذا الشرح القبول بين العلماء ، فغلق عليه كثيرون ، فن
حواشيه حاشية المدابغى (حسن بن على) ، وحاشية الأسقاطى (أحمد
ابن عمر) ، وحاشية الحفنى ، وحاشية الصبان ، وسأفرد حاشية الصبان
بنبذة خاصة في ترجمته . توفي الأشمونى سنة ٩٢٩ هـ^(١) .

النحو والنحاة في عصر الترك

حان حينُ دولة المماليك ، فقضت عليها دولة بنى عثمان على يد
السلطان سليم الذى فتح بلاد القطرين عنوة بعد قتل السلطان « قانصوه
الغورى » ، فدخل القاهرة عاصمة القطرين سنة ٩٢٣ هـ ، وجد في طلب
« طومان باى » آخر المماليك ، ثم صلبه عند « بوابة زويلة » ، فتم
القضاء على المماليك ، وأسر الخليفة العباسى « المتوكل على الله »
الذى ما انفك سجيناً في الآستانة حتى نزل عن الخلافة للسلطان
سليمان القانونى بعد توليه ، وبذلك انتهى عصر المماليك وبدأ العصر التركى
في القطرين ، فانتقلت الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين ، ومن القاهرة
إلى الآستانة عاصمة المملكة التركية ، فاندمج القطران في البلاد التابعة

(١) ترجمته في الضوء اللامع ، وشذرات الذهب ، والبدر الطالع .

لترك ، واحمى استقلالهما ، واضطرب حبل الهدوء والأمن فيهما ، وانتكث
فتلهمها المبرم ثلاثة قرون ، فلا استقلال ولا خلافة ، ولا استقرار نظام ،
وتفشت فيهما أوبئة الضعف في كل النواحي . وكان من هذا أن فرضت
اللغة التركية على البلاد ، فركدت ريح هذا العلم ، وانحط شأنه بين
الناس ، فقل إنتاج العلماء فيه ، وكان أغلب مؤلفاتهم تلخيص مطولات ،
أوحواشي على الشروح ، فلو تقرّيت مؤلفات النحاة في القطرين لم تقع
عينك إلا على الحواشي المترادفة على الشروح ، وناهيك بحواشي شروح
« متون ابن مالك » وحواشي شروح « متون ابن هشام » .

وقد امتدت تلك الحطة إلى المشرق ، فتوالت الحواشي على شروح
« كافية ابن الحاجب » ولا سيما « الفوائد الضيائية للجامي » ، فقد جاوز
الأمر فيها حده ، فكتبت على حواشيتها حواش أخرى — وإن الثبت
أمامك في كشف الظنون والفهارس العامة ، فستقف منه على ما لا يدور
بخلدك من كثرة الحواشي كثرة تفضي إلى الاستغراب والدهش ، وسترى
عين اليقين الدليل ماثلا في يديك عند سرد علماء هذا العصر مع ذكر
مؤلفاتهم ، فإنك واجد أنها حواش على شروح السابقة ، وهذه الحواشي
على البسط فيها مشوبة بالنقول المضطربة المتخالفة ، ولعل ذلك منشؤه
عدم السهولة في الوصول للمراجع المسند إليها النقول — وملاى بالاعتراضات
والردود عليها ثم الردود على الردود .

هذا كله مع كثرة التعقيد والالتواء في العبارات ، والتهافت عليها

دون الغرض الحقيقي من النحو ، ومع كثرة حشوها بالمصطلحات الأخرى من الفنون عربية وعقلية ، ومع التعلق بالاستطراد لأوهى الأسباب ، وعدم ملاحظة من وضع لمستواهم الكتاب . ففي حواشي كتب المبتدئين كالكفراوى والأزهرية والقطر من المسائل ما لا يهضمها إلا من قد تزود من هذا العلم . وقد ترتب على هذا أن نفر بعض الطلبة الذين لم يتحلوا بفضيلة الجلد والصبر حين صدموا في مطلع حياتهم العلمية بهذه الكتب ، وعيوا بأمرها ، وانطمست عليهم مسالكها ، لكنه حرص العلماء على مصلحة العلم بدون انتباه إلى ما سواه .

والخلاصة أن النهضة التأليفية في هذا العهد الغاشم إن صح لنا اعتبارها كانت في الحواشي . ولم تمنع هذه الحال العامة في التصنيف أن يظهر بين الفينة والفينة بعض أفراد لا تنطبق عليهم أحكام هذا العصر ، غير أنهم تقسمتهم الأزمنة المتطاولة جدًّا ، فأجادوا في التصنيف ترتيبًا وتقريبًا ، وإن لم تكن لهم آثار من ناحية ابتداع وتجديد ، إذ كان غرضهم الأول إنما هو فهم أو تفهيم عبارات السابقين إذا كانت مغلقة ، وبسطها إن كانت موجزة ، فقدموا بعملهم هذا صنعًا جميلًا ، وكانوا منحًا في أيام كلها محن ، كابن قاسم والشنوائى والدنوشرى ، ويس والحنفى والصبان ، ولقد تغالى العلماء بعد هؤلاء ، وكتبوا تقارير على الحواشى كتقارير الإنبأى المعروفة .

والواقع أن هذه السلسلة فى التأليف الواحد ينوء بحملها الطالب

عندما ينتقل نظره مرات مترادفة من متن إلى شرح إلى حاشية إلى تقرير، وإذا ضم إلى هذا ما قلما تسلم منه هذا الخطوات في عرض التفسير والإيضاح من انتقادات شائكة، إما على ضعف العبارة، أو خطأ الفكرة، أو مجانفة الاصطلاح الفني، أو غلط الرواية المعزوة، إلى غير ذلك، تضاعفت الصوارف التي تصرف الذهن عن لب المقصود إلى القشور اللفظية والفلسفة التأليفية.

وليس بخاف أن هذا اللون من التأليف وعمر المسلك على المؤلف، ويقتضيه مجهوداً جباراً يبذله في الوثام بين العلم وبين الكتاب الذي يعلق عليه، فالفرق جلي بين من ينظر إلى العلم للعلم يدون فيه الفكرة الناضجة متوخياً في تصويرها أسلوبه المفطور عليه غير ملتزم محاذاة مؤلف آخر ربما كان معتسفاً في منهجه، أو متنكباً جادة الصواب، أو مشتت المادة، وما إلى ذلك، وبين من ينظر إلى العلم لبيان دواخل الكتاب الذي يعلق عليه باذلاً همه في توجيه المراد من العبارة، أو تكميل نقص فيها، أو تمسيهاً مع عبارة لكتاب آخر، وأمثال هذا مما لم يحل العلم منه بطائل.

فهذه المؤلفات النحوية المتراكمة التي يخطئها العدو، التي لم يقيض لفن آخر غير النحو مثلها، لو أنها كلها أو معظمها تفردت في طرقها، وتوحدت في هدفها، وقل منها القيل والقال، وأصاب فلان وأخطأ علان، واعتمدت في الخلافات النحوية على الأساليب العربية لا غير — لو كان

هذا لأضفت هذه المؤلفات على النحو حلل البهجة والرواء .
نعم ، لا نستطيع أن ننكر أن هذا الأسلوب من التأليف يربّي فضيلة
البحث والتمحيص في الطالب ، ويكون فيه حلية الاعتماد على النفس ،
ويعوده دقة الملاحظة ، إلا أنه يفوت عليه العناية بتعرف أطراف المسألة وتكوين
صورة لها متضامة الأجزاء ، وفي ذلك نوع من التضييع للفائدة المنشودة ،
فإن لم يكن الطالب لقيناً حاضراً البديهة قوى النظر فربما أذهب عليه
اللاحق من التعليقات السابق ، وانتهى إلى حيث ابتدأ ، ومن ثمة تدهش
كثيراً من الطالب القارئ معظم كتب النحاة ، المتزود بما فيها من الأقاويل ،
المستظهر للآراء في الأوابد من المسائل النحوية ، حينما تعرض عليه
النصوص العربية فلست بواجد منه خبرة في التطبيق على معلوماته المكنوزة
عنده ، وذلك هو الداء العقام والمرض العياء .

ومن المعروف أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال ، ومن ابتغى العرفان
سما إليه وإن طال السفر ، وإن هذه المحاولات الثقافية منذ انقضاء العصر
التركي سنة ١٢٢٠هـ ، في سبيل استعادة النهضة العربية لمكحلة بالنتجج
إن شاء الله تعالى ، لأن الثروة العلمية المخلفة لعصرنا الحاضر إنما تتطلب
منا تسميرها . والانتفاعُ بها موكول للرشد وحسن القوام ، ودراسة النحو
الآن — فيما نعتقد ويصدقه الواقع — يسرته على طالبه وأدنته إلى
راغبه .

ولو أنه تهيأ للأزهر الشريف ، وهو ينبوع الدين واللغة تلك الأعصر

الغابرة ، أن يسترد نهضته مرة أخرى ، ويعيدها جذاعة ، لكانت له الأخرى كما كانت له الأولى ، أبقاه الله للغة والدين معقلا ، ووقاه كيد الشائين .

ودونك أعلام هذا العهد مرتبين بحسب سنى وفياتهم :

١ - ابن قاسم العبادى

هو أحمد شهاب الدين الصباغ ، أخذ عن ناصر الدين اللقانى وغيره ثم اشتهر بالتحقيق . وله مصنفات فى مختلف الفنون غاية فى الدقة ، منها فى النحو حاشية على شرح ابن الناظم ، توفى بالمدينة المنورة عائداً من الحج سنة ٩٩٤ هـ (١) .

٢ - الشنوائى

هو أبو بكر شهاب الدين ، ولد بشنوان (من المنوفية) ، وتلقى بالأزهر عن ابن قاسم العبادى وغيره ، مع شغف بالاطلاع ، ورغبة فى حفظ الشعر ، وميل لتتبع مذاهب النحاة وشواهدهم ، ومن مؤلفاته النحوية حاشية « قطر الندى وبلّ الصدى » لابن هشام ، وحاشية على شرح القطر للفاكهى سماها « هداية مجيب النداء » إلى شرح قطر الندى وبلّ الصدى ، وحاشية على شرح خالد لقواعد الإعراب لابن هشام سماها

(١) ترجمته فى شذرات الذهب .

« هداية أولى الألباب إلى موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب » ، توفي بالقاهرة سنة ١٠١٩ هـ ^(١) .

٣ - الدنوشري

هو عبد الله بن عبد الرحمن أصله من دنوشر (قرية قريبة من المحلة الكبرى) ، ولد بالقاهرة ، وتلقى عن الشمس الرملي ومحمد العلقمي وابن قاسم العبادي وغيرهم ، ثم ارتحل إلى بلاد الروم ، وأقام فيها مدة ، ثم عاد إلى القاهرة ، وانتفع الناس به في الأزهر ، وصنف كتباً قيمة في النحو منها « حاشية » على التصريح ، وكان يقول النظم ، وأكثر شعره في مسائل نحوية مسرودة في كتب النحو بكثرة ، توفي بالقاهرة سنة ١٠٢٥ هـ ^(٢) .

٤ - يس

هو يس بن زين الدين ، ولد بحمص وارتحل مع أبيه إلى مصر ، فتلقى عن الشهاب الغنيمي والدنوشري وغيرهما ، ثم برع في علوم متنوعة وألف فيها ، ومن مصنفاته النحوية حاشية « قطر الندى وبل الصدى » . لابن هشام ، وحاشية « مجيب الندا إلى شرح قطر الندى وبل الصدى » للفاكهي ، وحاشية « التصريح » لخالد ، توفي بالقاهرة سنة ١٠٦١ هـ ^(١) .

(٢) ترجمته في خلاصة الأثر .

(١) ترجمته في خلاصة الأثر .

(٣) ترجمته في خلاصة الأثر .

٥ - الحفنى

هو يوسف بن سالم ، ولد بحفنا (قرية بجوار بليس) ، وتلقى بالأزهر عن مشايخ عصره وعن أخيه محمد ، ثم نبغ واشتهر بالأدب والشعر ، ومن أبدع مصنفاته النحوية « حاشية » على شرح الأشموني تنافس فيها الفضلاء ، ولكن الصبان تتبعها في حاشيته هو على الأشموني وفند كثيراً منها ، توفي سنة ١١٧٨ هـ (١) .

٦ - الصبان

هو أبو العرفان محمد بن على ، ولد بالقاهرة ونشأ فقيراً متواكلاً مستجدياً الخلق مع العفة ، ولم ينشب أن حفظ القرآن والمتون ، واجتهد في طلب العلوم ، وحضر على أشياخ العصر كالمداينى والبليدى والأجهورى والعدوى ، فنبح في العلوم عقليها ونقلها ، ودرس الكتب القيمة في حياة أشياخه ، واعترف العلماء بفضله في مصر والشام ، فالتف حوله الخلائق الكثيرون ، وصنف مؤلفات في مختلف العلوم ، ومن أشهرها في النحو « حاشيته » على الأشموني التي سارت بها الركبان ، فاحتفى بها العلماء ، وعلقوا عليها تقارير كالإنبأى والحامدى والرفاعى - وتلك كلمة خاصة بها :

(١) ترجمته في الجبرق .

حاشية الصبان

رسم الصبان في مقدمة الحاشية الخطة التي سيتبعها فيها ، وأنها تقوم على ثلاثة عناصر : تلخيصه زبدة ما كتبه السابقون قبله على شرح الأشموني ، وتنبيهه على ما وقع لهم من أسقام الأفهام ، وتعليقه مما فتح الله به عليه فاهتدى إليه . كما رسم اصطلاحاً خاصاً في الإشارة إلى أسماء السابقين ومنهم الحفني الذي التزم التعبير عن اسمه بلفظ « البعض » .

أما العنصر الأول ، فالصبان فيه موافق موفق .

وأما العنصر الثاني ، فإنه فيه عادل ، رائده تبيان الحقيقة العلمية مع غير الحفني ، فإنه تحامل على الحفني في شدة وعنف لا سجاجة معهما ، وأدرف في التشهير به متجاوزاً العرف التقليدي في رد العلماء بعضهم على بعض حتى في الهنات الهيئات ، ولهذا أكثر ما تنذر به وبكتابته ، ولو أردنا إحصاء لما وافق فيه الصبان الحفني ولما خالف فيه لتبين لنا موافقته له في النزر اليسير مما لم يستطع الصبان فيه مجابهة الصحيح المسلم به . وهالك عشرة أمثلة للنوعين : ما وافق فيه الصبان ، وما خالف فيه ، على ترتيب الكتاب ، مع ذكر العبارات النابية من الصبان فيما خالف فيه .

مما وافق فيه الصبان الحفني

١ — ما كتبه في باب « النداء » على قول الأشموني : « والمثنى والمجموع » في شرح قول الناظم : « وابن المعرف المنادي المفردا ... إلخ » .

٢ - ما كتبه في باب « ما لا ينصرف » على قول الأشموني : « ما فيه من الصيغة ... إلخ » في شرح قول الناظم : « وإن به سمي أو بما لحق ... إلخ » .

٣ - ما كتبه في باب « ما لا ينصرف » على قوله : « لضعف سبب البناء ... إلخ » في شرح قول الناظم : « والعدل والتعريف مانعاً سحر ... إلخ » .

٤ - ما كتبه في باب « إعراب الفعل » على قوله : « وبمعنى ما تأتينا فأنت تحدثنا » ، في شرح قول الناظم : « وبعد فالجواب نفي أو طلب ... إلخ » .

٥ - ما كتبه في باب « لو » على قوله : « إذ لو قدر حصوله » في شرح قول الناظم : « لو حرف شرط في مضي ... إلخ » .

مما يخالف فيه

١ - ما كتبه في باب « ما لا ينصرف » على قول الأشموني : « يعني ما كان من الجمع ... إلخ » في شرح قول الناظم : « وذا اعتلال منه كالجواري ... إلخ » - ثم قال معلقاً : « ولغفلة البعض ... إلخ » .

٢ - ما كتبه في باب « ما لا ينصرف » على قول الأشموني : « وذكر الأخفش ... إلخ » في شرح قول الناظم : « ولسراويل بهذا الجمع ... إلخ » - ثم قال معلقاً ما نصه : « وأن تبججه هنا مما لا ينبغي على من لولاه ما راح ولا جاء لم يتم ، نسأل الله العافية ... إلخ » .

٣ — ما كتبه في باب « إعراب الفعل » على قوله : « ولا يطرد إلا بتجاوز وتكلف » في شرح قول الناظم : « وبعد غير النفي جزمًا ... إلخ » فقال معلقًا ما لفظه : « وقد ظهر لك إن كان عندك أدنى تنبه أنه لم يخطئ إلا ابن أخت خالته » .

٤ — ما كتب في باب « العدد » على قوله : « وإن ترد بالوصف المذكور ... إلخ » ، في شرح قول الناظم : « وإن ترد بعض الذي منه بنى ... إلخ » — فقال معلقًا « وللبعض هنا كلام حقيق بالطرح » .

٥ — ما كتب في باب « التصريف » على قوله : « من الحواية » في شرح قول الناظم : « كذاك همز آخر بعد ألف ... إلخ » — فقال معقبًا ما حروفه : « وقول البعض بفتح الحاء لا يعنيد عليه وحده ، لكثرة تساهله كما لا يخفى على ممارس حاشيتنا » . وما كنت أبغى تسطير هذا التعقيب اللاذع فيما خالف فيه الصبان لكنه مسطور في الحاشية ، وليس على الراوى تبعه ، وستقف على ما تعرف منه أن الصبان كان متعجنيًا في بعض الأحيان .

وأما العنصر الثالث ، فالصبان فيه بحق السابق المجلى في الكثير ، إذ لم يسلم في القليل من التريب والالوم في أمور تتصل بالناحية العامة ، وبالاستطراد إلى غير النحو ، وبالخطأ في شرح الشواهد . وسأذكر عن كل من الثلاثة كلمة خاصة به غير مسترسل في التفصيل :

التعقيب عليه في أمور ثلاثة

الأمر الأول وقعت منه مسائل : منها عدم معرفته اصطلاح المذهب الكوفي في تسميته « المنصرف » بالمجري و « غير المنصرف » بغير المجري ، وذلك أنه كتب على قول الأشموني في بيان مذهب الفراء « الأمثلة التي تكون للأسماء والأفعال إن غلبت للأفعال فلا تجره في المعرفة ... إلخ » في شرح قول الناظم : « كذلك ذوزن يخص الفعل ... إلخ » — أن المنفى هو الجرح بالكسرة معتقداً أن الفعل « تجره » مفتوح التاء ، والواقع أنه مضمومها ، والمنفى هو الصرف .

الأمر الثاني من أمثلته الظاهرة ما كتبه في باب عطف النسق عند الكلام على « أم » ، فقد سطر قوله ضافية فيما تستعار له الهمزة ، ثم انجر الحديث إلى غيرها من الأدوات .

الأمر الثالث وهو خلق بالعناية ، لأن شواهد الأشموني مستفيضة في الأبواب كلها ، والصبان كثير الحدس والتخمين فيها ، فقد يفسر البيت بما يبدو له بدون تنقيب عن أصله ، وقد يقف دون بيانه معتذراً ، وقد يردد الاحتمالات التي يستغرب التعرض لها ، ودونك مقداراً كنموذج للباقي على ترتيب الكتاب .

١ — في باب « المعرب والمبني » مبحث المثني شرح قول الفرزدق :

كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى

بما يفيد أنه في وصف فرسين ، والحقيقة أنه للتندر في ابنة جرير
وبعلها .

٢ - في باب « كان وأخواتها » مبحث الأفعال الموافقة « صار »
معنى وعملا ، ومنها « آض » شرح قول فرعان بن الأعرف :
وبالمخض حتى آض جعداً عَنطُنْطَا إذا قام سلوى غارب الفحل غاربه
بما يفيد أنه في وصف بعير ، والحقيقة أنه في وصف « منازل » ابن
الشاعر كما في الحماسة (باب الهجاء) .

٣ - في باب « المفعول المطلق » مبحث ما حذف عامله وجوباً وكان
مفيداً التشبيه ، شرح قول أبي كبير الهذلي :
ما إن يمس الأرض إلا منكب منه وبحرف الساق طي المحمل
بما يفيد أنه في وصف فرس ، والواقع أنه وصف ربيب الشاعر
« تأبط شراً » .

٤ - في باب « أبنية المصادر » مبحث ورود المصدر بزنة اسم
المفعول كتب على قول الراعي :

لم يتركوا لعظامه لهماً ولا لفؤاده معقولا
ما يؤخذ منه عدم الاطلاع على أصل البيت ، فظن أنه كامل مخمس
شدوذاً ، وتبعة الخطأ على الأشموني ، وقد نهنا على ذلك في ترجمته .
٥ - في باب « عطف النسق » مبحث تقدم المعطوف شرح بيتي

ذى الرمة المذكورين سابقاً في شواهد الأشموني التي طرأ عليها التغيير ،
مع التهافت في الرد على البعض في فهمه ، وخفيت معالم الحقيقة في غبار
النقاش .

٦- في باب « أسماء الأفعال » مبحث « رويد » كتب على قول
الهذلي :

رويد علياً جُدد ما ثدى أمهم إلينا ولكن بغضهم متاين
ما نصه : « لم أر من تكلم على هذا البيت » - مع أن البيت من
شواهد سيبويه ج ١ ص ١٢٤ ، ومن شواهد شرح المفصل في الجزء
الرابع ص ٤٠ .

٧- في باب « ما لا ينصرف » منتهى الجدوع شرح قول ابن
ميادة :

يحدو ثمانى مولعاً بلقاحها حتى هممن بزيغة الإرتاج
بما يفيد أن النياق طربت من الحداء ، والحقيقة أن البيت في وصف
حمار اشتد شبقة على الأثن .

٨- في باب « النسب » مبحث المركب الإضافي شرح قول
ذى الرمة :

ويسقط بينها المرئى لغواً كما ألغيت في الدية الحوارا

بما يضحك بعد تغيير الشطر الثاني من البيت بما لا قرابة بينه وبين الأول . والواقع أن البيت بلحير من أبيات أسعف بها ذا الرمة في ذمه المرثي — كما في الأمل للقال ج ٢ ص ١٤١ ، والأغاني الجزء السادس عشر (سأسى) .

وما قدمناه من الشواهد قليل من كثير ، ويضم إليها الشواهد التي عقبنا على الأشموني فيها ، فإن التحري في سلامتها من مستلزمات الكتابة عليها .

وصفوة المقال أن حاشية الصبان مفيدة علمياً فحسب ، ولا يعتمد عليها في شواهد النحو . نعم ، وكانت الإفادة العلمية أقوى وأقوم لو صرف الصبان النظر عن تتبع عثرات الحفني ، فإن النقاش يغيب في عجاجه الأبيض الأزهر . ورحمة الله على الجميع . وقد بسط الجبرتي ترجمة الصبان في الجزء الثاني من تاريخه ، توفي وصلى عليه بالأزهر في حفل مهيب سنة ١٢٠٦ هـ .

كلمة الختام

ولأبي العباس : « ثعلب » فادرة مروية أسوقها ختاماً لهذا الكتاب ، عسى أن تبعث في طالب النحو والرغبة الصادقة في الإقبال عليه والأخذ بمحاسنه . فإنه يحز في نفوسنا ما نراه من فتور همم الطلاب في هذا العلم الجليل ، زعمنا منهم أن الغرض المنشود منه لا يتكافأ مع ما يعانونه
نشأة النحو

في مسائله وتحالفاته المذهبية والشخصية وما يتبع هذا ، وقد عذب عنهم أنه سلم الفهوم وعلم العلوم ، وفاتهم أن الطالب لا يتذوق فناً من الفنون ويسير فيه على هدى وبصيرة إلا إذا كان آخذاً من هذا العلم بطرف .

تلك النادرة هي ما حدث به أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ هـ ، قال :

« كنت عند أبي العباس ثعلب فقال : يا أبا بكر ، اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا ، واشتغلت أنا بزيد وعمرو ، فليت شعري ما يكون حالي في الآخرة ؟

فانصرفت من عنده ، فرأيت تلك الليلة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : أقرئ أبا العباس عني السلام ، وقل له : أنت صاحب العلم المستطيل .

قال الروذباري أحمد بن عطاء المتوفى سنة ٣٦٩ هـ : أراد أن الكلام به يكمل ، والخطاب به يحمل ، أو أراد أن جميع العلوم مفتقرة إليه ^(١) .

حقاً إن العلوم مفتقرة إليه في مسائلها ، ومحتاجة إلى مراعاته في

(١) راجع هذه النادرة في ترجمة ثعلب في النزعة ، والمعجم ، والإنباه . والوفيات ، والبغية .

محاوراتها ، وعلى قدر النبغ فيه يواقي الفوز بها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وكان إتمام هذا الكتاب في مساء يوم الخميس الموافق ١٠ من رمضان سنة ١٣٥٧ هـ و ٣ من نوفمبر سنة ١٩٣٨ م ، بتوفيق الله ومعونته ، فأنشدُ إعلاناً بالشكر قول سُحَيْيْم عبد بنى الحَسَنُحاس :

الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع^(١)
وصلى الله على سيدنا محمد وسائر الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين .

(١) قال أبو جعفر محمد بن حبيب : (أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قول سحيم : البيت ، فقال : أحسن وصدق ، وإن الله يشكر مثل هذا ، ولئن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة) راجع الإصالة في تمييز الصحابة حرف السين القسم الثالث ، ونقل ذلك البغدادى في خزانة الأدب في الشاهد الرابع والتسعين .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	أهم مراجع الكتاب
٩	مقدمة الكتاب
١٣	تمهيد
١٦	سبب وضع النحو
١٩	متى ؟ وأين كان وضعه ؟
٢١	وضعه عربى محض
٢٣	واضعه
٢٧	واضعه « أبو الأسود الدؤلى » على الصحيح
٣٢	تسميته بالنحو بعد أبى الأسود
٣٣	سبب التسمية بالنحو
٣٤	نشأة النحو وتدرجه
٣٦	أطوار النحو الأربعة

الموضوع	الصفحة
الأول طور الوضع والتكوين (بصرى)	٣٧
الثانى طور النشوء والنمو (بصرى كوفى)	٤٠
الثالث طور النضج والكمال (بصرى كوفى)	٤٦
كلمة فى مناظرات الطورين : (الثانى والثالث)	٤٩
من مناظرات الطور الثانى : بين الكسائى والأصمعى —	
بين الكسائى وسيبويه — بين الكسائى واليزيدى	٥٠
من مناظرات الطور الثالث : بين المبرد وثعلب	٥٧
مجالسة الرياشى وثعلب	٦١
مشاهير البصريين والكوفيين	٦٣
أبو الأسود الدؤلى — عماد الفريقين	٦٨
جدول مبين فيه طبقات الفريقين	٦٩
طبقات البصريين السبع	٧١
الأولى : نصر بن عاصم ، عنيسة الفيل ، عبد الرحمن	
ابن هرمز ، يحيى بن يعمر	٧١
الثانية : ابن أبى إسحق ، عيسى بن عمر ، أبو عمرو	
ابن العلاء	٧٢

- الثالثة : الأخفش الأكبر ، الخليل ، يونس . ٧٧
- الرابعة : سيبويه - (تعريف بكتاب سيبويه ، شواهد ، أبياته المجهولة القائل ، بعض الأبيات التي خطأوا روايتها ، بعض الأبيات التي قيل إنها مصنوعة ، الأبيات المزیدة على الشواهد . تقدير الكتاب) - اليزیدی . ٧٩
- الخامسة : الأخفش - (من المسائل التي وافق فيها الكوفيين ، من المسائل التي انفرد فيها بالقياس) - قطرب . ١٠٤
- السادسة : الجحرمي ، التوزي ، المازني ، أبو حاتم ، الرياشي . ١٠٩
- السابعة : المبرد . ١١٢
- طبقات الكوفيين الخمس . ١١٥
- الأولى : الرؤاسي ، معاذ الهراء . ١١٥
- الثانية : الكسائي . ١١٦
- الثالثة : الأحمر ، الفراء ، اللحياني . ١١٨

الصفحة	الموضوع
١٢٠ . . .	الرابعة : ابن سعدان ، الطوال ، ابن قادم
١٢٠	الخامسة : ثعلب
١٢٢	أسباب الاختلاف بين البصريين والكوفيين
١٢٤	المذهب البصري ، عناصره الثلاثة
١٣٠	بعض المسائل التي خالفت قياسه وحاول دفعها
١٣٤	المذهب الكوفي ، عناصره
١٤١	أمثلة للقياس الكوفي
١٤٤	بعض المسائل التي ظفر فيها الكوفي
١٤٧	حكمة تخصيص كل من المذهبين باتجاهه
١٥٥	نتائج المخالفة بين المذهبين
١٥٩	سرد مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين
١٦٥	موازنة بين المذهبين
١٧٠	أثر تلاقي الفريقين ببغداد في تنويع النزعات إلى ثلاث من غلبت عليه النزعة البصرية : الزجاج ، ابن السراج ،
١٧٢	الزجاجي ، مبرمان ، ابن درستويه من غلبت عليه النزعة الكوفية : أبو موسى الحامض ،

الموضوع	الصفحة
ابن الأنباري	١٧٥
من جمع بين التزعتين : ابن قتيبة ، ابن كيسان ،	
الأخفش الصغير ، ابن شقير ، ابن الحياط ، نفطويه .	١٧٦
نحاة مصر الآخذون عن العراقيين : ولاد ، أبو علي	
الدينوري ، ابن ولاد ، أبو جعفر النحاس	١٧٨
نشوء المذهب البغدادي على أيدي الجامعين بين التزعتين	١٨٤
الرابع طور الترجيح (بغدادي)	١٨٥
من القواعد التي ركن فيها البغادة إلى المذهب	
الكوفي	١٨٦
ومن القواعد التي عولوا فيها على المذهب	
البصري ، ومن القواعد المستدركة وراء المستحسن من	
المذهبيين	١٨٧
انقراط عقد المذهب البغدادي بعد استيلاء بني بويه	
على بغداد	١٩٠
انتهاء المتقدمين وابتداء المتأخرين	١٩١
تشاطر الدول الإسلامية نهضة هذا العلم ، وفي ذلك	
مطلبان	١٩٣

الموضوع	الصفحة
المطلب الأول : علم النحو وعلماءؤه في عهد الدول الإسلامية المتعاصرة من عهد بني بويه إلى سقوط بغداد ، وفيه ثلاثة فصول	١٩٤
الفصل الأول : علم النحو في العراق وما يليه شرقاً وما يقرب منه غرباً ، وعلماءؤه	١٩٧
ترسم النحاة خطى المذهب البغدادي طويلاً	١٩٧
أشهر النحاة : السيرافي ، ابن خالويه ، الفارسي ، الرماني ، ابن جني ، الربيعي ، ابن برهان ، التبريزي ، ملك النحاة ، الزمخشري ، ابن الشجري ، ابن الخشاب ، ابن الدهان ، الأنباري ، المطرزي ، الكندي ، العكبري ، ابن الخباز	١٩٩
الفصل الثاني : علم النحوي القطرين : مصر والشام ، وعلماءؤه	٢١١
انتهاج النحاة فيهما مذهب العراقيين طويلاً	٢١١
أشهر علماء القطرين : الخوفي ، ابن بابشاذ ، ابن بري ، ابن معط . ابن يعيش ، السخاوي ، ابن الحاجب	٢١٣

٢١٨ . الفصل الثالث : علم النحو في الأندلس والمغرب ، وعلماءؤه .

٢٢١ . كتاب سيبويه عندهم

٢٢٣ . المذهب الأندلسي المغربي ، مأخذه ، وبعض أمثلة له .

أشهر علماء الأندلس والمغرب : جودي ، حمدون ،

الأفشنيق . محمد بن يحيى الرباحي ، الزبيدي —

(تعريف بكتابه : طبقات النحويين واللغويين) —

الأعلم . ابن السيد . ابن الطراوة ، ابن الباذش .

اللمخي ، ابن طاهر ، السهيلي ، ابن مضاء ، الجزولي ،

٢٢٥ ابن خروف ، الشلوبيني ، ابن هشام الحضراوى . ابن الحاج

المطلب الثاني : علم النحو وعلماءؤه بعد سقوط بغداد ،

٢٣٥ وفيه ثلاثة فصول

٢٤٠ . الفصل الأول : علم النحو في المشرق وعلماءؤه

أشهر علماء المشرق : ابن إياز ، الرضى — (تعريف

بشرح الرضى على الكافية ، من الأمثلة التي رأى قرب

المذهب الكوفي فيها للصواب ، من الأمثلة التي خالف

فيها النحاة ، شواهد : الشواهد النثرية ، الشواهد

الشعرية ، من شواهد الشعراء المحدثين . انتقادهين ،

٢٤٣ . ظهور الشرح بمصر — الكافيحي . الجامي .

الصفحة	الموضوع
٢٥٩	الفصل الثاني : النحو والنحاة في المغرب والأندلس
	أشهر النحاة : الأندلسي ، ابن عصفور ، ابن مالك ،
	ابن الضائع ، ابن أبي الربيع ، ابن آجروم ، أبو حيان ،
٢٦١	الشاطبي
٢٦٨	الفصل الثالث : النحو والنحاة في القطرين (مصر والشام)
٢٦٩	النحو والنحاة في عصر المماليك
٢٧١	السرفي تغلب المذهب الأندلسي عندهم على البغدادى .
	أشهر النحاة : ابن الناظم - (نبذة عن شرح ابن الناظم
	على الألفية) - ابن النحاس ، المرادى ، ابن هشام -
	(تعريف بكتايب التوضيح والمغنى) - ابن عقيل -
	(كلمة عن شرحه على الألفية) ابن الصائغ ، ناظر
	الجيش ، ابن جماعة ، الدماميني ، الشمني ، خالد
	الأزهري ، السيوطي ، الأشموني - (تعريف بشرح
	الأشموني ، شواهد ، من شواهد الشعراء المحدثين ،
	من شواهد الشعراء القدامى : مما لم يجن التغيير الطارئ
٢٧٤	فيه على الشاهد ، مما جنى التغيير فيه على موطن الشاهد)

- النحو والنحاة في عصر الترك ٢٩٩
- أشهر النحاة : ابن قاسم العبادي ، الشنواني ،
الدنوشري ، يس ، الحفني ، الصبان - (تعريف
بجاشية الصبان ، مما وافق فيه الصبان الحفني ، مما
خالف فيه ، التعقيب عليه في أمور ثلاثة : علمية ،
استطرادية لغير النحو ، خطأ في شرح الشواهد) . . . ٣٠٤
- كلمة الختام ٣١٣

١٩٩٥ / ٣٨٠٨	رقم الإيداع
ISBN 977 - 02 - 4922 - X	الترقيم الدولي

١٥ / ٩٤ / ٨٥

.. طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)